قصة وتاريخ
الحضارات العربية

أول موسوعة من نوعها حديثة وبالالوان تعالج نشأة البلدان العربية واحداثها حتى ايامنا هذه

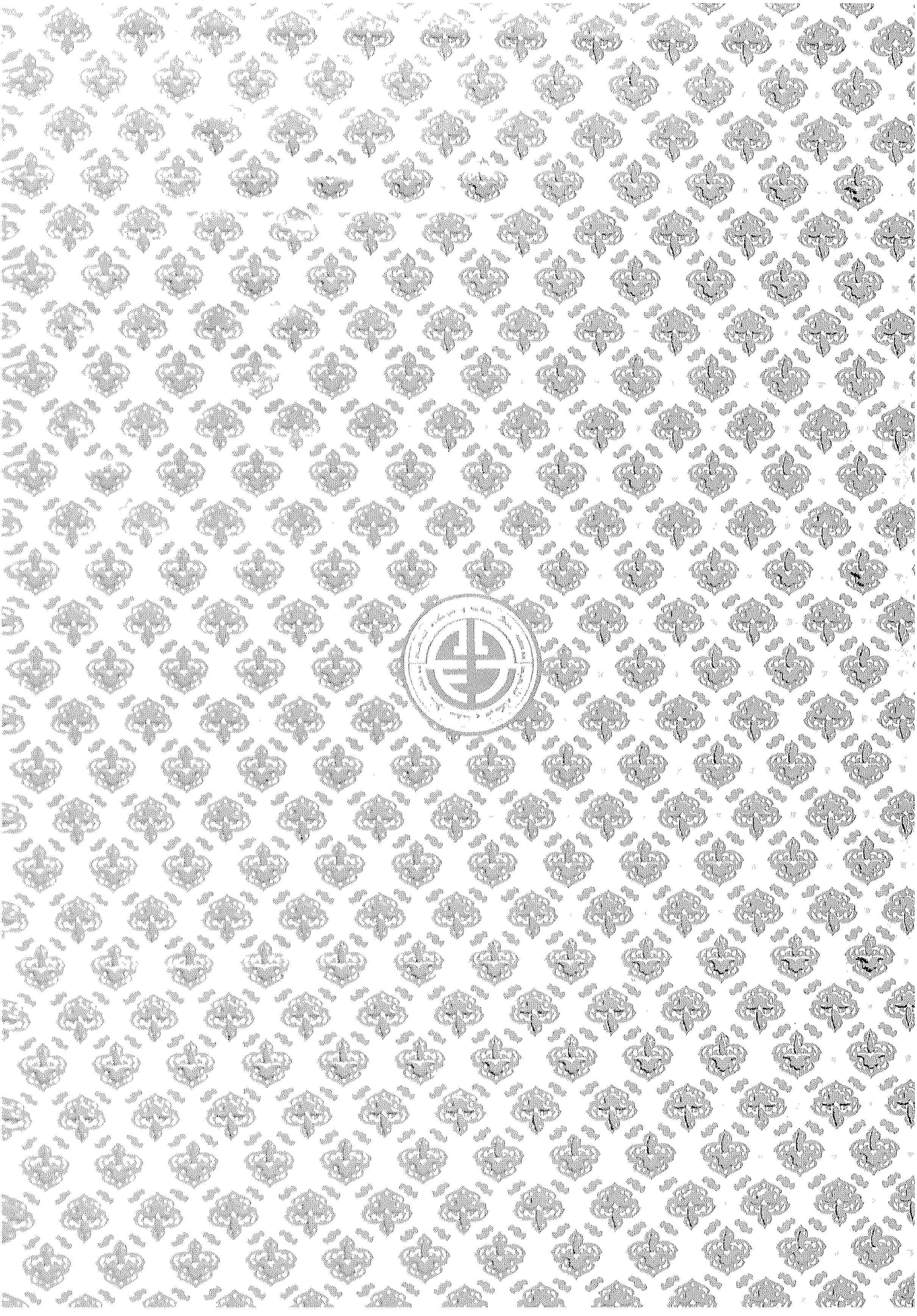
١ ـ ٢

تاريخية - جغرافية - حضارية وادبية

لبنان (١)

من عصور ما قبل التاريخ
حتى عهد المتصرفية

جوزف صقر



قصة

و

تاريخ

الحضارات العربية

١ _ ٢

Edito Creps, INT- 1998 -1999

BEYROUTH ,TEL :01/586207 - 01/586219 - 03/240824 - FAX 009611584391

مقدمة

مرّة جديدة تطلّ Edito Creps على قرائها الأعزاء بموسوعة تطرق أبواب التاريخ والحضارة على مستوى العالم العربي بأكمله، بحيث تتيح للقارىء أن يطّلع، من خلال مجموعة موحّدة، على أبرز المحطات التاريخية والسياسية والحضارية التي مرّت بها الشعوب العربية منذ بداية الأزمنة وحتى مراحل متقدمة من أواخر القرن العشرين. وقد اعتمدت Edito Creps من أجل إنجاز هذا العمل على الجهود والأبحاث المضنية التي قام بها فريق من الاختصاصيّين في مجال التاريخ، والتي تركزت على أبرز المراجع في هذا المجال. وقد ترجمت هذه الجهود في ثمانية وعشرون جزءاً بأقلام محرّرين ومصحّحين ومصمّمين فنيين، ذوي خبرة واسعة وذوق رفيع في عالم الكتابة والإخراج.

في أجزائها، ما ينيف عن الثلاثة آلاف صفحة، تحدّثنا الموسوعة عن تاريخ ٢١ دولة عربية يتألف منها اليوم العالم العربي الذي يمتدّ من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي، مع العلم أنّ تاريخ بعض هذه الدول كان مشتركاً في مرحلة من المراحل، لا سيّما في التاريخ القديم وحتى بدايات التاريخ الحديث:

- الاجزاء ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤: لبنان.
- الجزآن ٥ ـ ٦: سوريا.
- الجزآن ٧ ـ ٨: فلسطين.
- الجزآن ٩ ـ ١٠: العراق ـ الأردن.
- الجزآن ١١ ـ ١٢: السعودية ـ الإمارات العربية المتحدة.

ـ الجزآن ١٣ ـ ١٤ : الكويت ـ البحرين.

ـ الجزآن ١٥ ـ ١٦ : اليمن ـ عمان ـ قطر.

ـ الجزآن ١٧ ـ ١٨ : مصر.

ـ الجزآن ١٩ ـ ٢٠ : السودان ـ ليبيا ـ المغرب.

ـ الجزآن ٢١ ـ ٢٢ : تونس ـ الجزائر.

ـ الجزآن ٢٣ ـ ٢٤ : تاريخ القبائل العربية ـ موريتانيا ـ الصومال ـ جيبوتي.

ـ الجزآن ٢٥ ـ ٢٦ : شعراء العرب وأدباؤهم من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي.

ـ الجزآن ٢٧ ـ ٢٨ : شعراء العرب وأدباؤهم في العصر الاندلسي وعصر النهضة.

إنّ Edito Creps، إذ تقدّم إلى قرائها هذه الموسوعة الغنية بمعلوماتها وصورها، لا تسعى إلى زيادة مجموعة من الكتب على المكتبة العربية، وإنما إلى تقديم عمل فريد من نوعه يجمع تاريخ العالم الذي نعيش فيه في مؤلف واحد يستفيد منه القراء أينما كانوا ويطلعون من خلاله على تاريخ الدول التي تتقاسم معهم هذا العالم. وهي تأمل في أن يكون لإنتاجها الجديد هذا مكانة لائقة في عالم المعرفة.

الناشر

Edito Creps

International

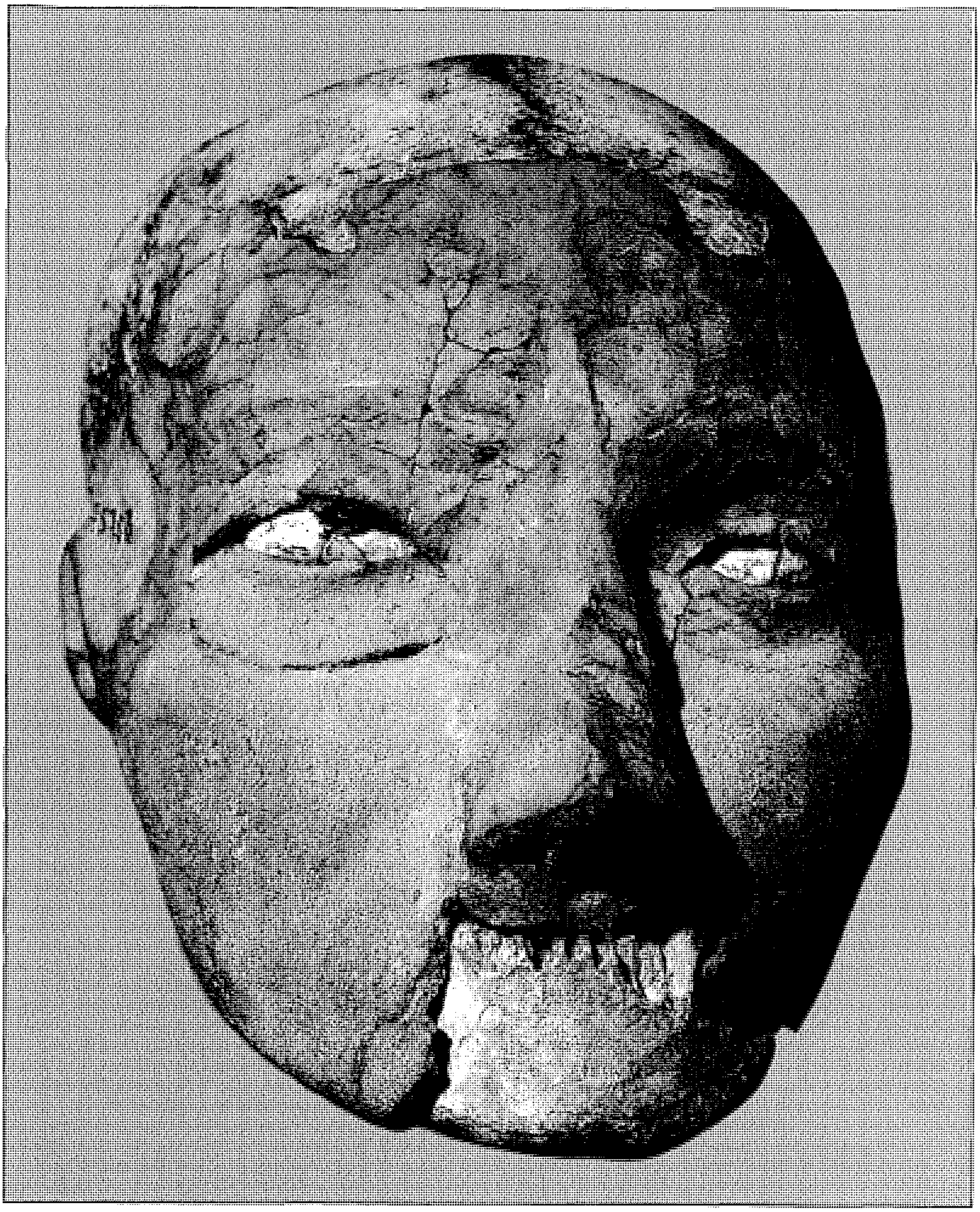
الصور



أرز الرب



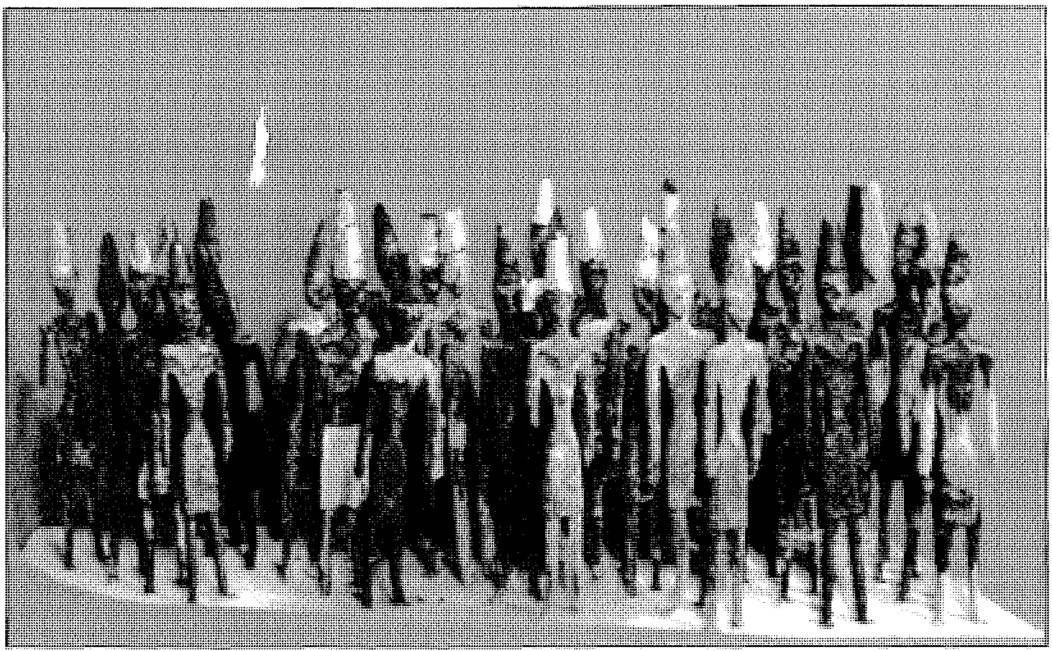
رسوم على الصخور للإنسان القديم



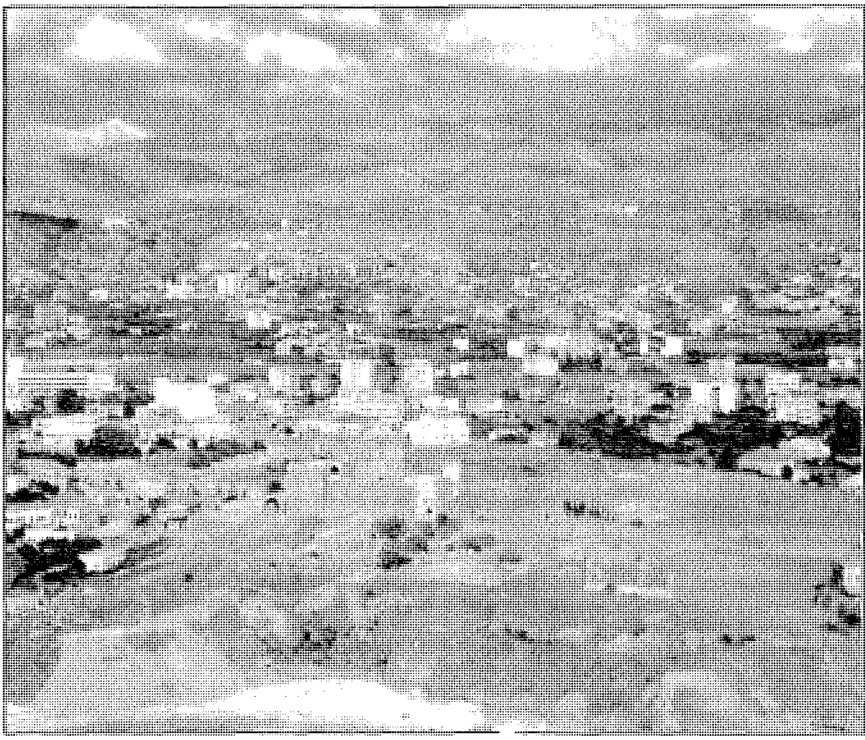
جمجمة وجدت في أريحا



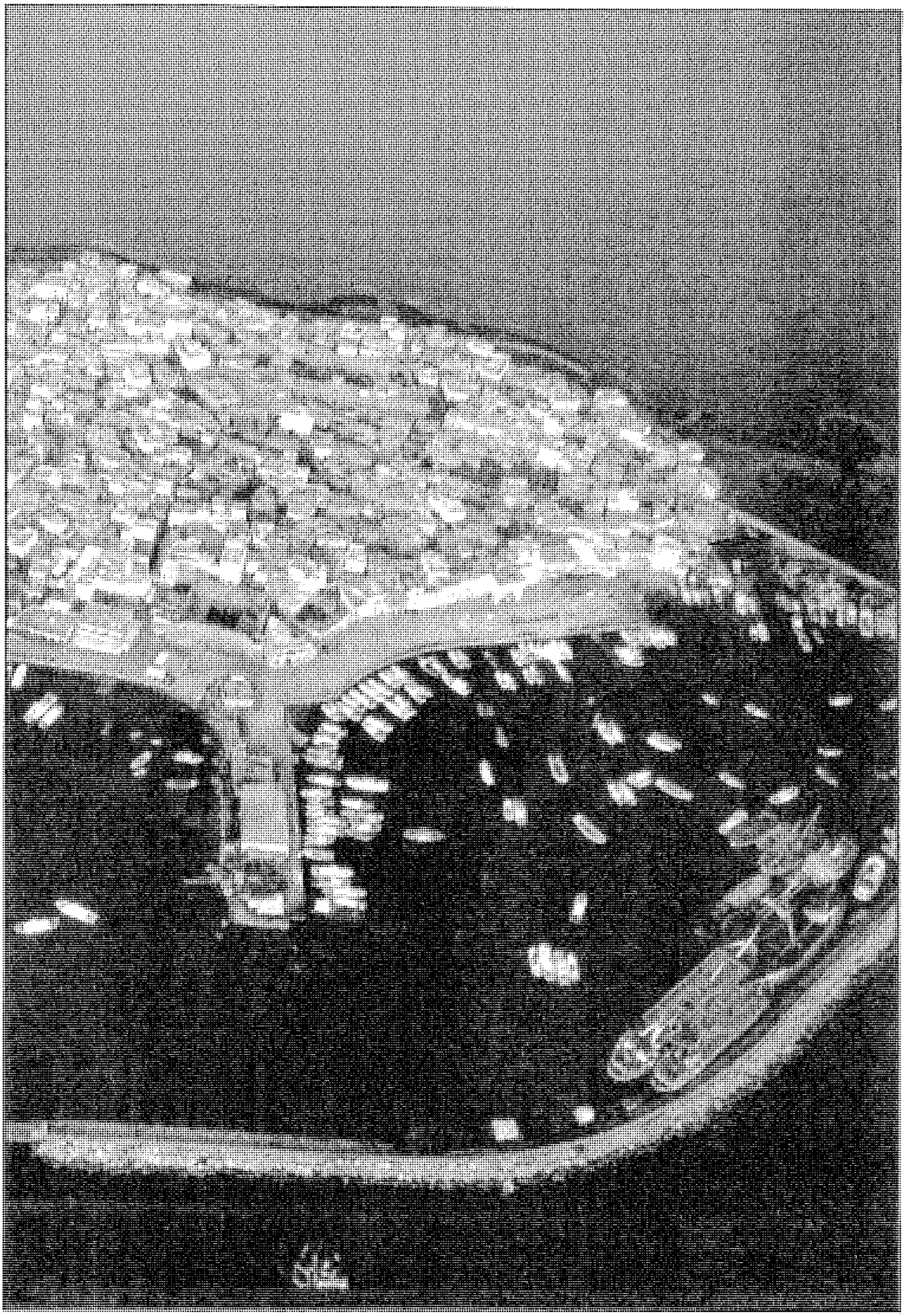
رسم يظهر جانباً من حياة الإنسان القديم



تماثيل فينيقية



مدينة جبيل



لقطة من الجو لجزيرة ارواد



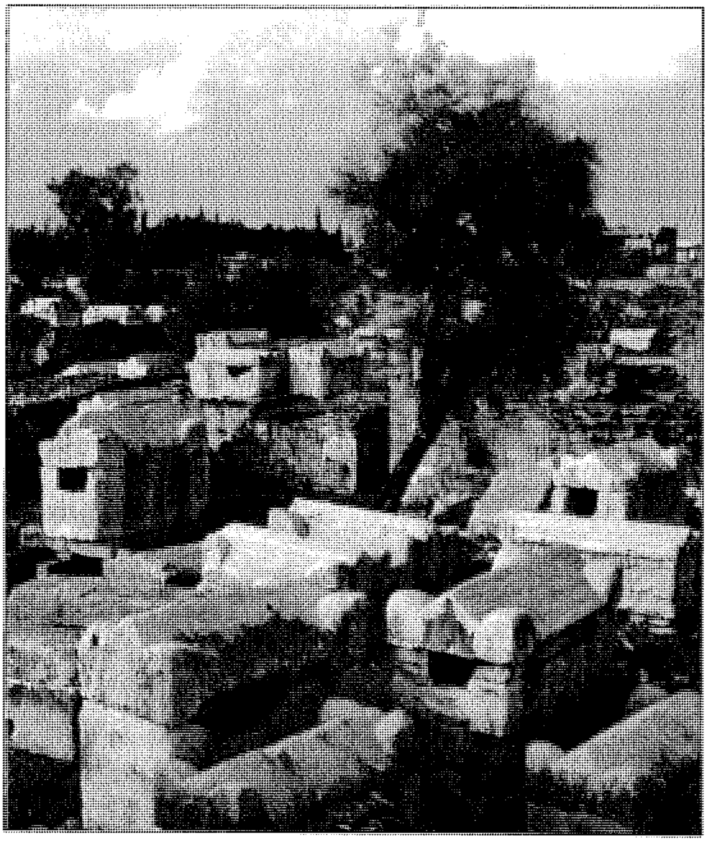
مدينة بعلبك



قلعة صيدا



صور



نواويس حجرية
في صور



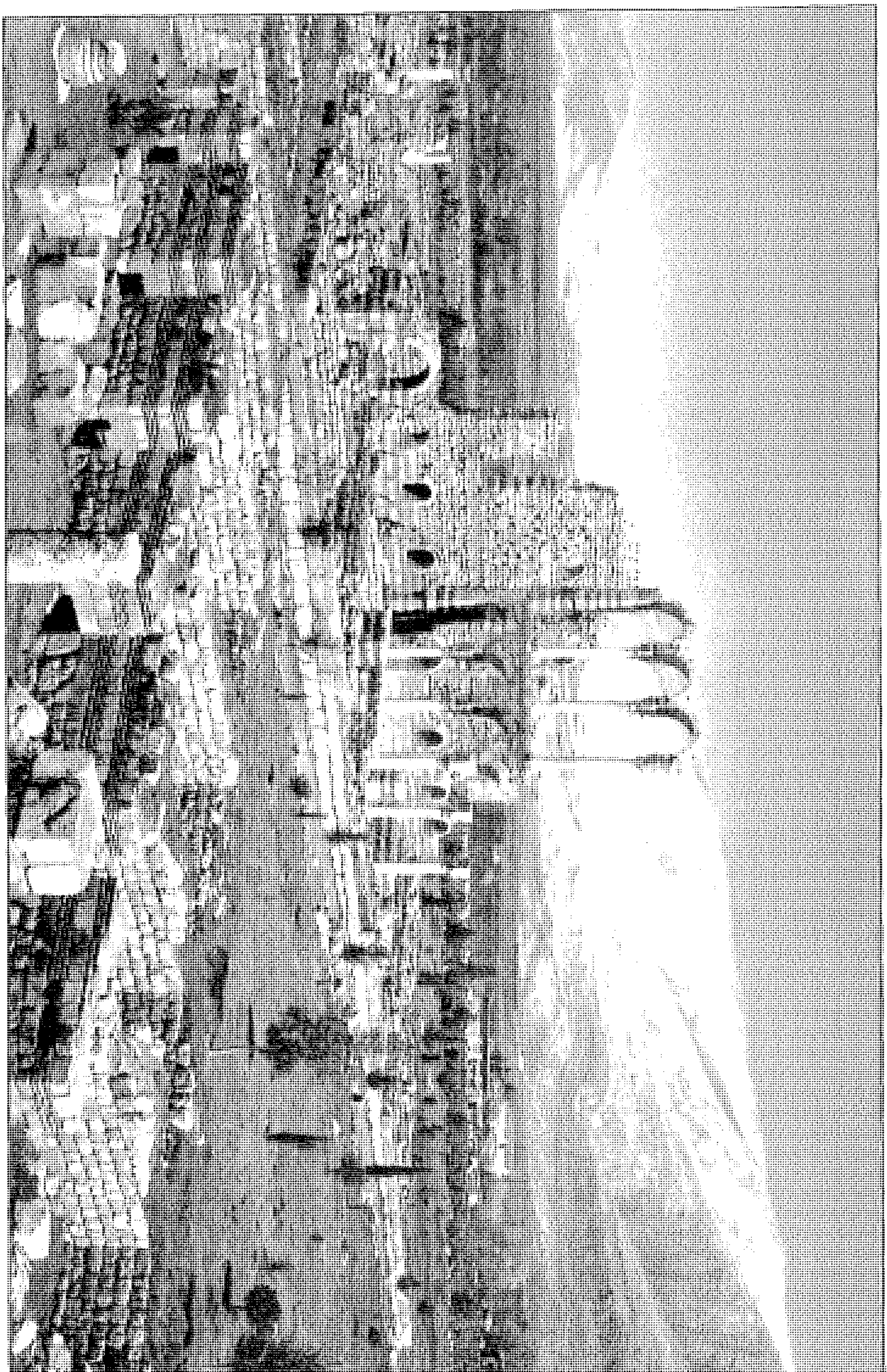
الإسكندر على حصانه



قدموس وأوروبا



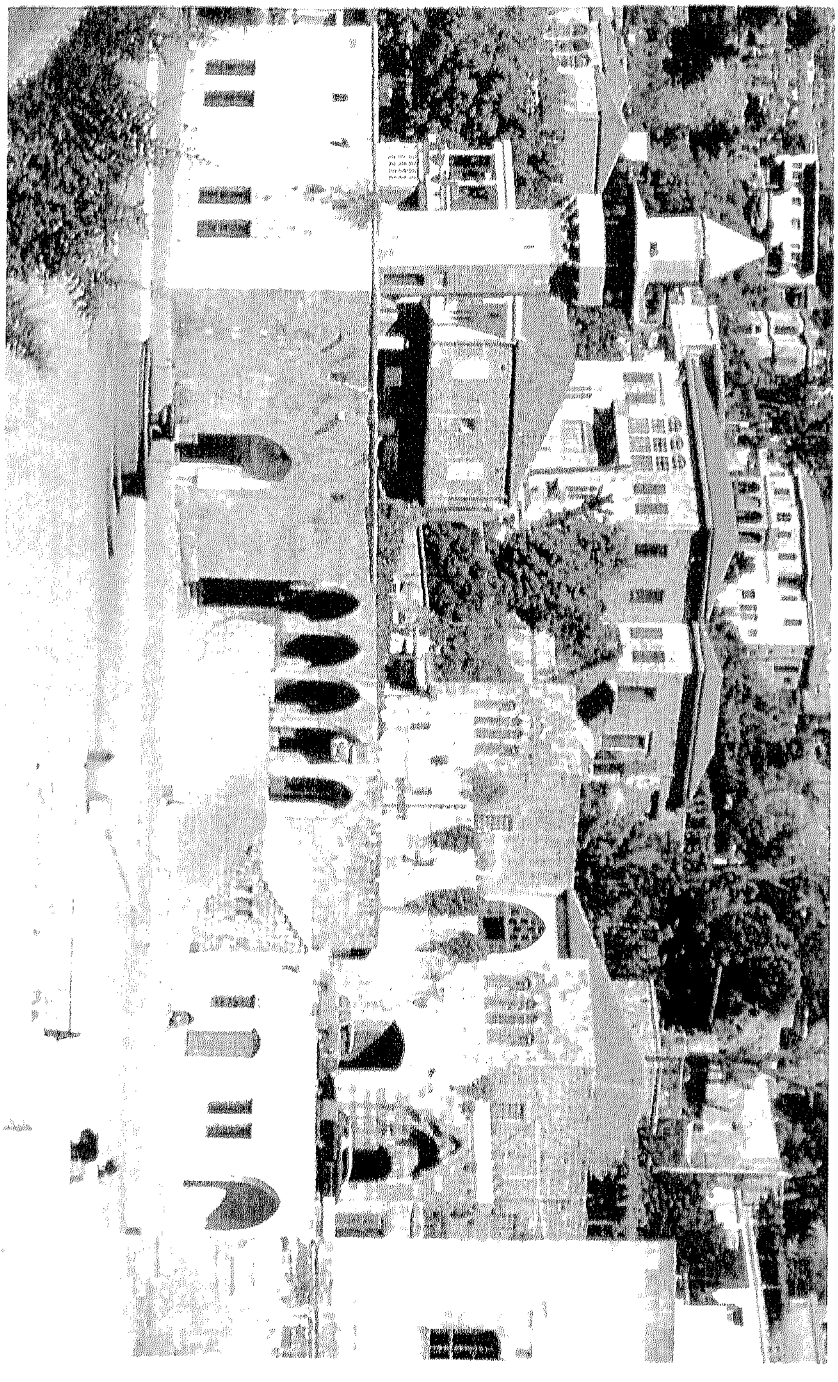
قوس نصر روماني في صور



قلعة خنجر العربية



من معارك الصليبيين



دير القمر معقل المعنيين

لمحة جغرافية

الإسم

١ ـ **لبنان:** إسم لبنان مشتق من كلمة «لبان» الساميّة، ومعناها اللون الأبيض، نسبة إلى الثلوج التي تغطّي قمم جباله طوال أشهر من السنة. ويعزو البعض الإسم إلى الصخور الكلسيّة البيضاء. إلاّ أنّ هذا الافتراض غير مقنع كثيراً، لأنّ الصخور تكون عادة مغطّاة بالأعشاب والأشجار، فيما تسيطر الثلوج على المساحة التي تتساقط فيها وتغطيها.

وقد ورد ذكر اسم لبنان مراراً في الكتاب المقدّس، العهد القديم، مع ذكر الثلوج المتراكمة فوق قمم جباله.

٢ ـ **فينيقيا:** هذا الإسم أطلقه الإغريق على سكّان الساحل الممتدّ من سوريا إلى فلسطين، مروراً بلبنان. وهي كلمة إغريقية معناها اللون الأحمر. وقد تعود هذه التسمية إلى سمرة بشرة سكّان تلك المنطقة، أو إلى شهرتهم في الصباغ الأرجواني. وينسب البعض التسمية إلى طائر الفينيق ذي اللون الأحمر، وهو بحسب الأسطورة طائر يحرق نفسه ثم يُبعث حيّاً من رماده.

ويعتبر البعض الآخر أنّ الإسم مشتق من كلمة «فينقس»، وهي كلمة يونانية معناها شجر النخيل، باعتبار أنّ أراضي فينيقيا كانت غنيّة بأشجار النخيل في الأزمنة القديمة.

الموقع والحدود والمساحة

يقع لبنان في الطرف الغربي من قارة آسيا، وعلى الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسّط. يحدّه من الشمال والشرق سوريا، ومن الجنوب فلسطين، ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط.

تبلغ مساحته ١٠,٤٥٢ كلم^2.

السكّان والعاصمة والمدن

يبلغ عدد سكّان لبنان نحو ٤ ملايين نسمة.

عاصمته مدينة بيروت.

أبرز مدنه: طرابلس، صيدا، جونيه، زحلة، وصور.

السطح والمناخ

يُقسم سطح لبنان إلى خمسة أقسام تمتدّ من الشمال إلى الجنوب: الشاطىء، السهول الساحلية، الجبال الغربية، السهول الداخلية والجبال الشرقية.

أمّا المناخ فتموسّطي يمتاز بشتاء قصير ممطر وبصيف طويل حار ورطب. ويعرف لبنان الطقس المشمس الجميل طيلة ثلاثمئة يوم في السنة، في حين يتعرّض خلال فترة من فصل الربيع لرياح صحراويّة حارة تُعرف بالرياح الخمسينية. ويبلغ معدّل الأمطار السنوي نحو ٩٠٠ ملم.

التكوين الجيولوجي

تتألف الطبقات الصخرية في جبال لبنان وسهوله من طبقة كلسيّة عُليا، ثمّ طبقة كلسيّة سُفلى. وتسمح الطبقة العُليا بتسرّب مياه الأمطار إلى الداخل، حيث تتجمّع المياه وتختزن في الطبقات الرمليّة الدلغانيّة، ومن ثمّ تتفجّر الينابيع العديدة التي تساهم في تغذية الأنهار.

أمّا الطبقة الرمليّة فهي طباشيريّة، وكذلك الطبقة الكلسيّة العُليا. وأمّا الطبقة الكلسيّة السُفلى فهي من النوع الجوري.

وتتخلّل الصخور طبقات من الحديد والفحم الحجري، بالإضافة إلى صخور بركانية وناريّة ورسوبيّة. والتربة رمليّة حمراء تخصّب الأرض وتجعلها صالحة للزراعة.

أحدثت الطبيعة داخل الطبقات الصخرية المتراكمة تجاويف ومغاور عميقة، منها مغارتا جعيتا وقاديشا اللتان ترسم في داخلها لوحات وتماثيل من الكلس المتجمّد.

أما في الجنوب، فتنتشر الصخور البركانية، وخصوصاً قرب جبل الشيخ ووادي التيم. ونجدها ايضاً في جبل عكار ونواحٍ اخرى في الشمال.

وتصلح القشرة الكلسيّة اللبنانية كمواد خام لصنع حجارة البناء، كما أنّ في بعض الجبال العالية مقالع للحجارة، كقرية كفرحونة في منطقة جزين. كما يُستخدم الكلس لصنع الطين بعد حرقه في أتونات كبيرة.

أمّا المعادن فهي نادرة حالياً في التربة اللبنانية بسبب طبيعة الأرض الكلسيّة والتي كانت مغمورة بالمياه. أمّا قديماً، فيأتي ذكر لوجود بعض الحديد والنحاس، في بيروت تحديداً وعند سفوح جبل صنين في منطقة المتن.

ويستخرج من الطبقة الرملية التي تكوّن الأرض اللبنانية الفحم الحجري، وهناك مقالع في بعض قرى الجنوب، إضافة إلى مواد الحمّر والزفت.

كما نقّب اللبنانيون قديماً عن الحديد، ولكنهم اكتشفوا لاحقاً أنّ كلفة استخراجه غالية جداً، مع أنّ حديد لبنان من النوع الجيّد والخالص تقريباً في نسبة كبيرة.

ويُقال أيضاً أنّه عُثر في لبنان على معادن كالنحاس والتوتيا والذهب والفضة. وكانت تُصنع من هذه المعادن أدوات عدّة في زمن الفينيقيّين ومن أتى بعدهم. وهناك آثار مناجم ومعادن مصهورة تؤكّد صحّة ذلك.

ولكن صناعة استخراج المعادن تراجعت حتى اختفت تماماً في لبنان.

الاقتصاد

يعتمد الاقتصاد اللبناني على النظام الرأسمالي الحرّ، وعلى المبادرة الفرديّة. وتتوزّع ركائز الاقتصاد على الزراعة والصناعة والتجارة والخدمات.

كما أنّ الواردات التي يرسلها اللبنانيّون المقيمون في الخارج إلى ذويهم في لبنان ترفع بنسبة لا بأس بها مستوى الدخل الوطني.

أمّا الزراعة فتشغل مساحة ٣٨٪ من البلاد، وتتركّز على زراعة القمح والخضار والفاكهة والزيتون والتبغ، تُضاف إليها تربية المواشي. ويعمل فيها ١٥٪ من اليد العاملة اللبنانية.

وفي مجال الصناعة، حدث تقدّم ملحوظ ابتداءً من العام ١٩٩٤. ويشمل الإنتاج الإسمنت، تصنيع الكابلات الكهربائية، النسيج والملبوسات، المواد الغذائية والمشروبات، المعادن الخفيفة، الخشب والأثاث، الأدوية والمواد الكيميائية، الجلود والأحذية، صياغة المجوهرات، الورق والكرتون، بالإضافة إلى الصناعات الحرفية وغيرها.

وفي التجارة، يعاني لبنان عجزاً في ميزانه التجاري بسبب الفارق الشاسع بين قيمة الواردات وقيمة الصادرات. فقد بلغت قيمة الواردات للعام ١٩٩٦ نحو ٢٤٠٠ مليون دولار، فيما بلغت قيمة الصادرات نحو ٢٩٠ مليون دولار. ويعمل لبنان على التعويض عن هذه الخسارة من خلال قطاع الخدمات الذي يتركّز على القطاع المصرفي في شكل رئيسي، وعلى القطاع السياحي.

فالحرية التي يمنحها النظام المصرفي للزبائن، بالإضافة إلى نظام السرّية المصرفية، يشكّلان عاملين أساسيّين في استقطاب الأموال العربيّة التي يتمّ توظيفها في مشاريع مختلفة مفيدة.

أمّا السياحة التي شهدت ركوداً في سني الحرب، فقد بدأت تتحسّن مع عودة الأمن بشكل ملحوظ إلى مختلف المناطق اللبنانية. ويعوّل لبنان في هذا المجال على مناخه، وربوعه الجميلة، وقرب الجبل من الشاطىء، والآثار العديدة المنتشرة في مناطقه. يضاف إلى ذلك كلّه عامل الضيافة وحسن الإستقبال والمعاملة التي يقابل بها اللبناني السيّاح، والفنادق الفخمة والمطاعم التي تقدّم الأطعمة الفاخرة ودور اللهو والتسلية والمسارح وغيرها.

نظام الحكم

لبنان جمهورية ديموقراطية ذات نظام برلماني مؤلف من رئيس الجمهورية ومجلس النوّاب ومجلس الوزراء الذي يترأسه رئيس الحكومة. وفي الدستور اللبناني تأكيد على الفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية.

رئيس الجمهورية يُنتخب من قبل مجلس النوّاب لمدّة ست سنوات غير قابلة للتجديد. أمّا مجلس النوّاب فيُنتخب من قبل الشعب لمدّة أربع سنوات. ويبلغ عدد أعضائه ١٢٨.

العلم اللبناني

تمّ تصميم العلم اللبناني الحالي في عهد حكومة بشامون، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣. وهو يتألف من ثلاثة أقسام أفقية، أحمر فأبيض فأحمر. ويوازي الجزء الأبيض مجموع الجزأين الآخرين. وتتوسّط الأرزة الخضراء، وهي رمز البلاد، المساحة البيضاء، ويلامس طرفاها الأعلى والأسفل المساحتين الحمراوين.

الفصل الاول

ظهور الانسان في لبنان

إنّ أقدم آثار تدلّ على وجود الانسان في لبنان وجدت في كهوف ومغاور إنطلياس، حيث وجدت هياكل بشريّة تعود إلى أزمنة قديمة. إلاّ أنّ كهوف إنطلياس ومغاورها اختفت بفعل الكسّارات التي أجهزت على أبرز المعالم الأثرية والطبيعيّة في المنطقة.

وتشير الأبحاث والآثار المكتشفة إلى أنّ الإنسان في شكله الحالي استوطن هذه المنطقة منذ وجد على سطح الكرة الأرضية. وتؤكّد ذلك الأدوات الحجرية التي تعود إلى العصر الحجري القديم، والتي عُثر عليها في أماكن متفرّقة من الأراضي اللبنانية.

ومعلوم أنّ الأرض السورية كانت مغطّاة بالمياه، وأنّها ارتفعت في العصر الجيولوجي الثالث، حيث نشأ الشقّ السوري العظيم المعروف بالبحر الميت.

أمّا في العصر الجيولوجي الرابع، أي منذ حوالي المليون سنة، فقد تكوّنت الجزر والنتوءات المقابلة للشاطىء اللبناني في صور وصيدا وطرابلس.

ثمّ أتى عصر الأمطار، فعصر الجفاف الذي أدّى إلى قلّة المراعي. وهذا المناخ تسبّب في هجرة إنسان العصر الحجري الأوّل إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، وظهرت آثار تدلّ على هذا الإنسان في مغاور عدلون وقرب صور في مغاور حناوية وفي إنطلياس.

وأظهرت الآثار المكتشفة والدراسات أنّ الإنسان الأول عاش على الشواطىء اللبنانية، منذ العصر الحجري الأول. وعثر على بقايا هذا الإنسان في مغاور إنطلياس، وعلى أغراض تدلّ على أنّ الإنسان القديم كان يعيش في الكهوف الموجودة في صخور الساحل اللبناني.

وما جعل الإنسان الأول يستوطن هذه البقعة ميزات كثيرة، منها المناخ الملائم، ووجود موارد الماء والخضرة، والقرب من البحر، والجبال العالية التي كان تؤمّن الحماية وتحفظ المناخ الجيد، من حيث معدّل الأمطار ودرجات الحرارة، وهذه الجبال العالية الخضراء تحوي تنوّعاً نباتياً وحيوانياً ملائماً لحياة الإنسان.

ومنذ أقدم العصور كانت هذه المنطقة محطّاً للقبائل الراحلة أو الهاربة، لأنّها تشكّل ملجأ حصيناً بفضل طبيعة جبالها وصخورها.

وأسهم مناخ هذه المنطقة الجيّد بفضل اعتداله وشمسه في قدوم الإنسان إليها. ففي هذه التربة وهذا المناخ تنمو جيّداً الحبوب الصالحة للتأنيس كالقمح والحنطة. كذلك تُدجَّن الحيوانات كالغنم والماعز والبقر، والتي يتغذّى الإنسان من حليبها ولحمها... ومن أحجارها يمكنه صناعة الأدوات اللازمة لحياته وصيده...

العصر الحجري الأول: عاش إنسان هذا العصر معتمداً على أدوات حجرية بدائية، تمّ العثور على البعض منها في مناطق الساحل والجبل في لبنان، وفي المنطقة الممتدّة من نهر الأردن جنوباً إلى منطقة رأس شمرا في سوريا شمالاً. ووجدت هذه الأدوات تحديداً في العقيبة، على الشاطىء الممتدّ بين بيروت وجبيل، وفي قريتي كفريا ومدوخا البقاعيّتين.

وفي مغاور إنطلياس ومنبع نهر الكلب، وجدت أدوات حجرية تعود إلى الحقبة الأخيرة من العصر الحجري الأول.

وكانت مغاور نهر الكلب المتعدّدة مسكناً للإنسان الأول الذي كان يشبه إنسان النيندرتال. ويستدلّ عليه من بقايا الحيوانات التي عُثر عليها في المغاور، ومنها أسنان وعظام متحجّرة لخنزير برّي وجاموس وماعز وغزال ودبّ وكركدن، إضافة إلى حيوانات أخرى منقرضة. كما عُثر على بزاق متحجّر.

وعُثر في الحفريات التي أُجريت في جبل الكرمل، حيث وجدت آثار للإنسان القديم، على فحم محترق، ممّا يدل على أنّ الإنسان القديم عرف

النار مصادفة، واستفاد منها مراراً في طهي طعامه وفي إعطائه الدفء، وأيضاً في إخافة الحيوانات وإبعادها عنه.

إنسان انطلياس: في الأعوام ١٩٣٦ و١٩٣٧ و١٩٣٨ قام اليسوعيّون والأميركيون من جامعة بوسطن بالتنقيب في مغاور إنطلياس، حيث عاش الإنسان الأول، وركزوا حفرياتهم في مغارة كسار عقيل ووصلوا إلى عمق عشرين متراً، حيث دهشوا لمّا اكتشفوا: هيكل عظمي بشري وجد في قلب صخر عند أسفل طبقة الحضارة الأورينية السُفلى، وهي الحضارة التي تلي الحضارة اللافلوزية ـ الموسترية العُليا، التي تميّزت فيها الأدوات الحجرية ـ الرقائق.

والهيكل العظمي يعود إلى طفل عمره ثماني سنوات، عاش قبل ٢٥ ألف سنة إلى ٣٠ ألف سنة، وهو أقدم هيكل عظمي بشري عُثر عليه في لبنان.

وعُثر في هذه المغارة أيضاً على بقايا حيوانات كالكركدن وجثة دبّ عمره أكثر من ٢٠ ألف سنة، وحيوانات أخرى كالغزال والضبع والثعلب والبقرة والماعز. وعُثر على أصداف حلزونية مختلطة بعظام أخرى، وكأنّها سُحقت لاستخراج النخاع منها.

وإضافة إلى هذه الهياكل العظمية عُثر على أدوات حجرية كان يستخدمها إنسان إنطلياس في عمليّات الصيد. وهي مصنوعة من أحجار الصوّان، ويعود بعضها إلى الحضارة الأورينية القديمة، أو إلى عصور أقدم، إلى الحضارة اللافلوزية ـ الموسترية، خلال العصر الممتدّ من ٧٠ إلى ٤٠ ألف سنة قبل المسيح، إلى عصر الحجر المرقوق والصوّان المشغول.

وما بين العامين ١٩٦٥ و١٩٧٠ اكتشف فريق تنقيب فرنسي أدوات حجرية في كسار عقيل، ونقلت إلى فرنسا لدرسها.

وهناك دلالات كثيرة على أنّ مغاور إنطلياس كانت مأهولة منذ ما قبل سبعين ألف سنة. وعندما انتشر الإنسان انطلاقاً من أفريقيا قبل مئتي ألف عام، وصل إلى الشرق الأوسط، حيث سكن مغاورها ومنها مغاور إنطلياس. وقد اختار هذه المنطقة بسبب وفرة مياهها. ومعلوم ما للمياه من أهمية للإنسان وللحيوان أيضاً الذي كان يؤم مصادر الماء فيقوم الإنسان باصطياده،

في زمن سبق اكتشاف الزراعة وتدجين الماشية، وحيث كان مصدر القوت الرئيسي يعتمد على الصيد.

وإضافة إلى مغارة كسار عقيل حيث عُثر على هيكل للإنسان الأول، كانت في إنطلياس مغاور أخرى شكّلت مسكناً لإنسان العصر الحجري. وهذه المغاور لم تعد موجودة اليوم بعدما قضت عليها الكسّارات.

وفي العصر الحجري المتوسط الذي يشكّل مرحلة انتقالية بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث، سجّل الإنسان تطوّراً فكرياً مهمّاً، ظهر من خلال تطويره للأدوات التي يستعملها في حياته اليومية، وسبق هذا الإنسان في تطوّره شبيهه الذي كان يعيش في أوروبا. والسبب في ذلك أنّ المناخ الدافىء نسبياً الذي كان يسيطر على هذه المنطقة ساعد الإنسان على العيش وعلى تطوّر دماغه وتفكيره في سرعة أكبر من الإنسان الذي كان يعيش في المناطق الباردة.

وعُثر على أدوات تعود إلى أواخر هذا العصر في منطقة عدلون الواقعة بين مدينتي صيدا وصور وفي مغاور إنطلياس ونهر الكلب ونهر إبراهيم.

كذلك، عُثر في لبنان في الحفريات التي أُجريت قرب البترون وطرابلس على أدوات وبقايا حيوانات تعود إلى إنسان العصر الحجري الحديث. ومن هذه البقايا عظام للوعل والغزال والذئب.

وبدأ إنسان هذا العصر يصقل أدواته، ويصنع مقابض خشبيّة لها، وأصبح يولي عناية أكبر بمصنوعاته، فيصقلها صقلاً جيّداً ويلمعها، وأحياناً يحفر عليها رسوماً فنية. وتعلّم الإنسان في هذه الفترة أن يخيط ملابس له من جلود الحيوانات وصوفها، وقد صنع إبراً ودبابيس من العظم.

وفي هذه المرحلة، طوّر الإنسان صناعة أدوات الصيد لتصبح أكثر فعالية في اصطياد الفريسة، ممّا يجنّبه التعرّض لإصابات خطيرة في صراعه معها. وقد شمل صيد الحيوانات الطيور والحيوانات المفترسة والأسماك النهرية والبحرية. ومع تطوّر الحياة الاجتماعية، أصبح الصيد يمارس في شكل جماعي، حيث يتعاون عدد من الأشخاص على رسم خطط الصيد وتنفيذها في شكل منظّم يجنّبهم الخطر بنسبة كبيرة.

ومن الأسلحة التي استعملت في تلك المرحلة الحجارة والحراب والقوس والسهام المزوّدة برؤوس خشبية أو حجرية مسنّنة. أمّا الحراب فكانت تعلّق في رؤوسها قرون الحيوانات. وصنع الإنسان السكاكين والشفرات من الحجارة.

ويعتقد أنّ الإنسان القديم كان يعرف طرقاً عدّة لطهي الطعام. ويستدلّ على ذلك من الحجارة المكوّمة على أشكال المواقد التي عُثر عليها، والتي تنبّىء بأنّه كانت لدى الإنسان وصفات عدّة للطعام غير الشيّ والسلق.

ويتخيّل بعضهم في سيناريو لإحدى الوجبات أنّ الإنسان كان يعمد أولاً إلى إشعال النار بصبر بواسطة أحجار الصوّان، ثمّ يستعمل وعاء صُنع من جلود الحيوانات، حيث يفرغ فيه الماء حتى يغلي مع مراقبة لاستمرار اتّقاد النار بإضافة أغصان وأعشاب يابسة. وبعد الغليان تسلق أصناف من الخضار مع معطّرات نباتية ولحوم، ويصنع حساء ساخن مع عظام الحيوانات... وهكذا فإنّ حساء الخضار هو وجبة من العصر الحجري، إذا صحّ تصوّر هذا السيناريو للمطبخ الحجري.

وفي ذلك العصر، بدأ الإنسان بتدجين بعض الحيوانات الأليفة، كالكلب، الذي كان رفيقاً له في الصيد وحامياً له من الحيوانات الكاسرة. ودجّن أيضاً الأغنام والماعز للاستفادة من لحمها ولبنها وصوفها وجلدها.

إنّ تدجين هذه الحيوانات أتاح للإنسان فرصة الاستقرار، فراح يتّخذ مساكن دائمة له في الكهوف والمغاور. ثمّ راح يبني الأكواخ مستخدماً الأخشاب والعظام وجلود الحيوانات. ومع الاستقرار، بدأت ملامح حياة اجتماعية بدائية وتنظيم اجتماعي - بيتي غير واضحة تماماً. لكن المؤكّد أنّ أحد عناصرها كان تقاسم الفرائس بين العائلات التي تعيش بالقرب من بعضها البعض.

كذلك، أتاح الاستقرار للإنسان أن يهتدي إلى الزراعة لتأمين قوته. والبداية كانت مع القمح والشعير، فالذرة. وبعدها، زرع الأشجار المثمرة التي هي قديمة العهد جدّاً في لبنان.

وتعلّم الإنسان القديم من خبرته في الزراعة أنّ التربة تُستنفد بعد مواسم

زرع متكرّرة، وأنّ من الضروري تغذيتها بالمواد العضوية التي يحملها الطمي. واعتمد سياسة الانتقال إلى أراضٍ جديدة خصبة، بعد استنفاد طاقة التربة التي زرع فيها في المواسم السابقة.

وتمكّن الإنسان لاحقاً بعد عشرات السنوات من تحوّله إلى مزارع من اكتشاف طرق اصطناعية لتسميد الأرض، بدلاً من انتظار المياه التي تحمل معها الطمي. واعتمد للتسميد أسلوب قطع الأشجار وحرقها، بحيث يصبح الرماد بمثابة سماد اصطناعي يغذّي الأرض، ويسمح باستغلال التربة لمواسم متتالية من دون الاضطرار إلى الانتقال إلى أرض جديدة. كما عمد إلى استعمال روث الماشية في تسميد التربة. وهاتان الطريقتان تسمحان له بالزراعة البعلية.

وبدأ الإنسان يتكاثر ويزداد عدد الناس وتزيد تجمّعاتهم السكنية. ولم يعودوا يهوون السكن في المغاور، وحتى أنّ هذه المغاور لم تعد تكفيهم، فبدأوا ببناء البيوت من الأحجار. وهكذا بدأ فنّ العمارة. وأقدم مدينة في لبنان هي مدينة جبيل. وأدّى الإستقرار في بيوت وقرى إلى بدء الحضارة الفعلية، فأخذ الإنسان يجمع معارفه ويعلّمها للأجيال المقبلة.

ومنذ أن استقرّ الإنسان، وتعرّف أكثر إلى عوامل الطبيعة كالرياح والأمطار والشمس، ومنذ أن بدأ فكره يتجوّل في أمور الدنيا، اتجه تفكيره إلى وجود قوى خارقة تسيِّر الطبيعة. فاعتقد بوجود آلهة وقرنها بكل ما يراه من قوى تفوق تفكيره. فعبد الشمس والأرض والماء. وخاف من معبوداته التي صنعها، معتبراً أنّ غضبها يسبّب له الأذى.

وفكّر إنسان العصر الحجري القديم بالموت وما وراءه، وتدلّ مكتشفات على وجود أفكار مبهمة لدى هذا الإنسان عن حياة ما بعد هذه الحياة. ومن هذه المكتشفات أوانٍ وقرابين عُثر عليها في حفريّات النطوف يعتقد أنّها كانت توضع مع الميت من أجل استعمالها في حياته الأخرى.

آثار بيروت ما قبل التاريخ

في الحفريّات الأخيرة التي أُجريت في بيروت، عثر المنقّبون على مقبرة يُعتقد أنها تعود إلى حقبة قديمة جداً. ولم تحوِ الطبقات الرملية التي عُثر فيها على بقايا عظام على أية فخاريّات، ممّا يعني أنّ الجثث تعود إلى حقبة تسبق اكتشاف الفخّار. كما أنّ الهياكل العظمية سوداء اللون، ممّا يوحي بقدمها. وإذا ثبتت الترجيحات، فإنّ هذه المقبرة التي عُثر عليها في ساحة الدباس قد تعود إلى العصور الحجرية.

وعُثر أيضاً على قطع صوّانية، ويرجّح أن يكون الإنسان القديم قد أخذ من هذه المنطقة موقعاً لسكناه.

وعُثر أيضاً على طبقات تعود إلى العصر الحجري في محيط كنيسة مار مارون، ممّا يرجّح امتداد المنطقة التي سكنها الإنسان الأول على مساحة واسعة.

ويُعتقد أنّ تاريخ بيروت يعود إلى العصر الحجري القديم، حيث سكن الإنسان الكهوف، ومنها كهوف موجودة عند شاطىء رأس بيروت. وعُثر على رؤوس أسهم وأدوات مصقولة على الشاطىء الجنوبي لبيروت، وتحديداً في منطقة برج البراجنة. كما عُثر في العام ١٩٣٠ على آثار قرية حجرية في منطقة تلّ أرسلان الواقع الآن في حرم مطار بيروت، كما وجدت آثار للإنسان القديم في جنوب بيروت والروشة، حيث اكتشف أدوات ترجع إلى العصر النحاسي.

وقبل نحو ٤٠٠٠ سنة ق.م. اكتشف الإنسان معدن النحاس لينتقل إلى العصر النحاسي ـ الحجري. فاستعمال النحاس لم يبدأ في شكل واسع إلاّ بعد حوالي الألف عام على اكتشافه. والسبب في ذلك أنّ معدن النحاس هو معدن ليّن نسبياً ينكسر في سرعة، وتصنيعه صعب. لذلك ظلّ الإنسان يستعمل الحجر إلى جانب النحاس، الذي كانت صناعته حكراً على بعض المهرة. وسمّي ذاك العصر بالعصر النحاسي ـ الحجري.

أمّا استعمال النحاس في شكل واسع فلم يبدأ إلاّ حوالي ٣٠٠ عام ق.م. وعُثر على أدوات وآثار تعود إلى تلك الحقبة في أوغاريت وجبيل وفلسطين وشمال سوريا وسيناء وعمّان والعراق.

ويُعتقد أنّ استخدام النحاس بدأ أوّلاً لأهداف حربية ودفاعية، واستُعمل

في صناعة أدوات الحرب، ثمّ لصنع الحُلى، وبعد ذلك في صناعة الأدوات المنزلية، كالآنية، والأباريق، والأدوات الزراعية.

وبعد النحاس، اكتشف الإنسان البرونز، ثمّ الحديد الذي صُنع منه الفولاذ.

وأهمّ التطوّرات التي اتّسم بها هذا العصر هو تطوّر فنّ العمارة. فقد أصبحت البيوت أكبر حجماً وأفضل شكلاً. وكانت البيوت المستطيلة مخصّصة للسكن، أمّا البيوت المستديرة، فهي أماكن للعبادة. وكانت جدران البيوت تُصنع من الطين من الداخل وبحجارة من الخارج. وكانت أرض المنزل مرصوفة بالقصب وفوقها طبقة من الطين، مع فناء أو دار أمام المنزل.

وتُعتبر بقايا الأبنية الحجرية التي عُثر عليها في مدينة جبيل من أقدم الأبنية الحجرية في الشرق، وربّما في العالم أجمع. ويعود تاريخها إلى ٣٢٠٠ ق.م. كما عُثر على مقبرة هناك يعود تاريخها إلى ٣٥٠٠ ق.م.

وتظهر لنا الآثار المكتشفة اهتماماً بالميت ومصيره بعد الموت. وقد عُثر في حفريّات جبيل على مقابر هي عبارة عن جرار من الفخّار كانت توضع الجثث داخلها في شكل يشبه وضعية الجنين في أحشاء أمه، في إشارة إلى نظرة الإنسان إلى الولادة الجديدة بعد الموت، وقد كانت هذه الجرار تُدفن تحت البيوت.

الأعراق البشرية في العصر المعدني

كان إنسان إنطلياس ينتمي إلى العصر الحجري القديم، ويتمتّع بمزايا جسدية بدائية تختلف عن مزايا الإنسان المعاصر.

أمّا إنسان العصر الحجري الحديث وبداية العصر المعدني فينتمي إلى عرق حوض البحر الأبيض المتوسّط. وعُثر على آثاره في حفريّات جبيل (٣٥٠٠ ـ ٣٢٥٠ ق.م.) وفي أماكن أخرى من منطقة شرق المتوسّط. وإلى هذا العرق تنتمي الشعوب التي كانت تعيش في دول حوض البحر المتوسّط.

وصفات هذا الإنسان أنّه كان قصير القامة نسبياً، ويتمتّع ببنية معتدلة القوّة، وشعره قاتم وكثيف.

وظهرت في العرق المتوسّطي مزايا أخرى، هي مزايا العرق الأرمني. ويحدث تمازج الأعراق نتيجة الهجرات المتتالية والاختلاط بين الشعوب. والعرق الأرمني هو جزء من العرق الألبي. وقد هاجرت جماعات من هذا العرق في العصر النحاسي الحجري من مواطنها في الجبال الواقعة في أواسط آسيا.

ويتميّز إنسان هذا العرق بأنفٍ عالٍ منحنٍ قليلاً، وجمجمة قصيرة مستطيلة مفلطحة عند مؤخرتها. والإنسان اللبناني الحديث يميل إلى قصر في القامة وبدانة في الجسم، وبنية قويّة.

الفصل الثاني

بداية التاريخ
و
ظهور فينيقيا

شكّلت هجرة الشعوب السامية إلى منطقة الهلال الخصيب، في الوقت الذي ظهرت فيه الكتابة، نهاية لعصر ما قبل التاريخ المدوَّن، وبداية التاريخ المكتوب في هذه المنطقة، التي انطبعت أولاً بالعصور السامية القديمة.

وكانت الكتابة في أشكالها البدائية، ثمّ المتطوّرة، المرحلة الفاصلة بين عصور ما قبل التاريخ وبداية التاريخ المدوَّن، هذه الكتابة التي سمحت للإنسان بتدوين تفاصيل وأمور كثيرة تبقى ذخراً للأجيال المقبلة وتسجّل مراحل مهمّة في تاريخ الشعوب.

والكتابة بدأت كما هو معروف في منطقة الشرق الأوسط. وقبل اكتشاف الحروف الأبجدية، شاع نظامان كتابيّان: الكتابة المسمارية التي بدأت في بلاد ما بين النهرين، والكتاب الهيروغليفية التي انطلقت من مصر القديمة.

الكنعانيون

في تلك المرحلة بالذات، وقرابة العام ٣٠٠ ق.م. أتى إلى لبنان شعب سامي عُرف بالشعب الكنعاني، وسكن الساحل اللبناني امتداداً إلى فلسطين في الجنوب والساحل السوري شمالاً.

ودخل الشعب الكنعاني إلى لبنان عن طريق شمال سوريا والبقاع على شكل قبائل بدوية، في الوقت عينه الذي هاجرت فيه القبائل الأمورية من الصحراء العربية إلى بلاد ما بين النهرين. ولم تكن هناك في الأساس فروقات عرقية مهمّة بين الشعبين الكنعاني والأموري، ولكن هذه الفوارق بدأت تظهر على مرّ السنين بفعل الاختلاط مع شعوب مختلفة والسكن في منطقتين مختلفتين.

فالشعب الأموري الذي توطّن شمال سوريا، اكتسب مزايا جسدية معيّنة بفعل اختلاطه مع السومريّين والحوريّين. أمّا الشعب الكنعاني الذين توطّن الساحل اللبناني فقد اكتسب مع الوقت مزايا جسدية متوسّطية.

وتقول رواية أخرى أنّ الكنعانيّين، أو الفينيقيّين، قدموا إلى لبنان من منطقة الخليج العربي. ويذكر الجغرافي شرابو اسمي جزيرتين في الخليج، الأولى تدعى صور، والثانية أرواد. ويقول إنّ فيهما هياكل تشبه الهياكل الفينيقية.

وفي إحدى الجزر الواقعة في دولة البحرين عُثر على قبور شبيهة بالقبور الفينيقية. وهناك مدينة اسمها صيدا تقع على شاطىء الجزيرة العربية الشرقي. ولكن هذه النظرية تبقى غير مؤكدة بعد.

وقبل قدوم الكنعانيّين إلى الساحل الشرقي للبحر المتوسّط، كان قد سبقهم إلى هذه الأرض شعب آخر، لم تحدّد هويّته بعد، وقد ترك آثاراً وآنية تشبه الآنية الفخّارية التي عُثر عليها في تلال غصول في الأردن والتي ترجع إلى الألف الرابع قبل الميلاد.

ويعتقد عدد من المؤرّخين أنّ الكنعانيّين أتوا من منطقة البحر الأحمر أو خليج العقبة تحديداً، وأنّهم مرّوا عبر البحر الميت. وسكنوا أولاً سوريا، قبل أن ينتقلوا منها إلى المناطق الساحلية التي عُرفت بفينيقيا. ويقول المؤرّخ جوستين أنّ الفينيقيّين هجروا الأماكن التي كانوا يسكنون فيها بعد تعرّضها لزلازل متتالية. وتشير وثائق رأس شمرا إلى أنّ الفينيقيّين أتوا من شبه جزيرة سيناء، وهم بالتالي قسم من هجرة الشعوب السامية التي حصلت في ذلك الزمان.

النظام السياسي في فينيقيا

كان لبنان، أو فينيقيا، في عهد الفينيقيِّين يقوم على نظام «المدن - الدول». فكانت كلّ مدينة من مدن الساحل دولة قائمة بذاتها، يحكمها ملك وتتمتّع باستقلال ذاتي. ولم تكن هذه المدن موحّدة يوماً لتشكّل دولة قويّة ذات نفوذ على الدول المحيطة بها.

وعلى طول الشاطىء اللبناني نمت مدن مهمّة واشتهرت، وأبرزها جزيرة أرواد في شمال فينيقيا، والتي تقع الآن في سوريا. ومدينة جبيل شمال بيروت، ومدينتا صور وصيدا في الجنوب. وكانت هذه المدن بسبب استقلاليّتها تعاني من أنظمة سياسية ضعيفة ومن عدم استقرار سياسي وعسكري، وهذا أدّى بالطبع إلى ضعف سادة هذه المدن.

وكان تاريخ فينيقيا هو تاريخ هذه المدن الأربع في شكل خاص، وتاريخ تناحرها في ما بينها أو تصالحها، وقد كانت هذه المدن في الغالب، وإن لم يكن من حدود جغرافية بينها، تتناحر وتتنافر في كثير من الأحيان وتتحالف الواحدة مع المحتلّ ضدّ الأخرى، وتشهد فترات أخرى مراحل من الاتفاق والوئام.

وكانت المدن الفينيقية منعزلة الواحدة عن الأخرى، بسبب المنافسة التجارية في الأساس ورغبة كل مدينة في تسلّم زمام الزعامة على المدن الفينيقية الأخرى. وزادت هذه العزلة السياسية عزلة دينية. فقد كانت لكلّ مدينة آلهتها الخاصة، وكان من الصعوبة بمكان القضاء على المنافسة التجارية الشرسة بين هذه المدن المفتوحة جميعها على المتوسّط.

ورغم ذلك فقد مرّت فترات وحدة أو تقارب فرضتها المصلحة المشتركة أو الأزمات، وكان الاتحاد يتمّ في معظم الأحيان تحت زعامة دولة

مدينة فقد ترأست مدينة أوغاريت اتحاداً للمدن الفينيقية في القرن السادس عشر ق.م. فيما كانت جبيل وأرواد في هذا الموقع في القرن الرابع عشر ق.م. وترأست صيدا اتحاد الدول المستقلة بعد ذلك بقرنين، وصور كانت قائدة الاتحاد بين القرنين الحادي عشر والتاسع ق.م. أمّا طرابلس فترأست هذا الاتحاد في القرن الخامس ق.م.

التنظيم السياسي

إعتمد التنظيم السياسي أسساً ديموقراطية. فقد ساد حكم «ملكي - جمهوري» المدن الفينيقية. وكان على رأس كلّ مدينة ملك ومجلس شيوخ منتخب.

١ - **الملك**: على الملك أن يتحلّى بمزايا محدّدة تجعله أهلاً لتولّي المسؤولية المُلقاة على عاتقه، فعليه أولاً أن يكون متحدّراً من عائلة نبيلة، وحتى من عائلة مقدّسة.

وإلى جانب نسبه، على الملك الفينيقي أن يتحلّى بصفات أخلاقية وفكرية، كأن يحسن التعامل مع الناس ويحافظ على احترامهم له من خلال تصرّفاته وممارسته للحكم. وعليه أن يكون ذات تفكير راجح قادر على قيادة الأمور في الأوقات الصعبة، فهو حاكم البلاد الذي يتحمّل مسؤولية المحافظة عليها، وعلى التطبيق العادل للقوانين والإنصاف في الرعية. وعليه أيضاً أن يرئس الجيش، وهو عملياً القائد الأول للجيش في المعارك.

وللملك طبعاً بعض الامتيازات التي هي في الغالب امتيازات مادية، خصوصاً في المجتمع الفينيقي القائم على التجارة والمادة. ولكن هذا الملك لم يكن مستبدّاً، بل كان يخضع لمحاسبة مجلس الشعب، وهو يتبع في حكمه مجموعة تقاليد وأعراف، تثبّتت مع الوقت، وأصبحت تسيِّر طريقة الحكم، في ما يشبه اليوم الدستور.

وعلى الملك إذا أخطأ أن يقدّم حساباً أمام مجلس الشعب، الذي يراقب أعماله، وكذلك أمام الآلهة.

وكان انتقال الحكم وراثياً من حيث المبدأ. إلاّ أنّه يحقّ للملك تسمية خلفه، واختيار شخص آخر غير وريثه الطبيعي، في حال لم يرَ في هذا الوريث المزايا المناسبة لتسلّم زمام الحكم. وقد لا يكون الابن البكر هو خليفة والده، الذي قد يختار ابنه الأصغر أو ربّما شخصاً غير ابنه. وإذا كان الخلف قاصراً تتسلّم أمّه مقاليد الحكم لحين بلوغه سنّ الرشد.

٢ ـ **الشفاتيم**: في الحالات التي لا يكون فيها وريث الملك أهلاً لتسلّم الحكم، كانت المدينة تعمد إلى اختيار قاضيين (الشفاتيم) لإدارة شؤون الحكم بالتعاون مع مجلسي الشيوخ والشعب. وللشفاتيم صلاحيّات واسعة جداً، لكنّها لا تشمل الجيش. ويساعده إداريّون يتابعون القضايا اليومية، وهم بمثابة وزراء في عصرنا الحاضر.

٣ ـ **مجلس الشيوخ**: يتألف في غالبية المدن الفينيقية من ٣٠٠ عضو ينتخبهم مجلس الشعب. ويهتمّ تقريباً بكلّ شؤون البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ويقوم بانتخاب «الشفاتيم»، ويعمل على مراقبة أعماله. واستطاع مجلس الشيوخ في صور أن يتّخذ قرارات في غياب الملك.

٤ ـ **مجلس المائة**: هذا المجلس هو كناية عن مجلس شيوخ مصغّر. فقد انبثق من مجلس الشيوخ، لكنّه يتمتّع بصلاحيّات أوسع عند الأحداث المهمّة. ويحقّ له محاسبة «الشفاتيم» في شكل أكثر صرامة. وقد توصّل هذا المجلس إلى تحدّي سلطة الملك في مدينة صيدون.

٥ ـ **مجلس الشعب**: يقوم بانتخاب مجلس الشيوخ من الأرستقراطيّين وتكون له الكلمة الفصل عندما يدبّ الخلاف حول أمر ما بين «الشفاتيم» ومجلس الشيوخ. لكن الصلاحيّات الفعلية لهذا المجلس أصبحت هامشية في ظلّ التوافق بين «الشفاتيم» ومجلس الشيوخ على تقاسم مهام الحكم وإبعاد مجلس الشعب عن التدخّل بينهما.

❀ ❀ ❀

وعرفت الأنظمة السياسية المتّبعة في المدن الفينيقية نوعاً من الاستقرار

والثبات، ذلك أنّ المجتمع مقسّم تقسيماً اجتماعياً ـ مادياً، والرخاء يسيطر نسبياً على المجتمع الفينيقي، حيث طبقة الأثرياء والميسورين، وهؤلاء جميعاً يحتاجون إلى استقرار سياسي يضمن لهم ازدهار تجارتهم، والتجّار عادة لا يهتمّون كثيراً بالسياسة.

وقد عرف الحكّام كيف يحافظون على رضى الشعب، فمنحوه نوعاً من الحرية من خلال نظام ديموقراطي فيه محاسبة للملك. وأمّنوا له حاجاته الاقتصادية من دون عوز. وأسهم إنشاء المستعمرات في ما وراء البحار في سدّ أي نقص اقتصادي وفتح أسواق جديدة وأبواب رزق، ممّا أسهم في الحفاظ على حدّ أدنى من الرخاء يمنع قيام أيّة ثورات اجتماعية.

الحياة الحزبية

عرفت المدن الفينيقية في تلك الفترة من الزمن نوعاً من الحياة الحزبية الشبيهة بالحياة الحزبية الحالية، من حيث تعدّد الأحزاب وتنافسها واختلافها في الآراء.

ففي مدينة صور مثلاً قام حزبان كبيران، الأوّل هو حزب الأشراف، ضمّ الأرستقراطيّين والكهنة، وحزب الشعب، الذي ضمّ غالبية الناس من غير الأسر الإرستقراطية. وقد احتدم الخلاف مرّات عدّة بين هذين الحزبين. ونستنتج أنّ الحياة السياسية والحزبية قامت هنا على أساس اجتماعي طبقي ومادّيّ في آن.

أمّا في قرطاجة التي عرفت تنظيماً سياسياً متقدّماً منذ إنشائها، فقد تعدّدت الأحزاب ونشأ حزب الأرستقراطيّين وحزب الديموقراطيّين، وحزب الإقطاعيّين الملاكين.

المجتمع الفينيقي

يقسم المجتمع الفينيقي إلى طبقتين رئيسيّتين هما: الأشراف والعامة. والأسس التي تحدّد انتماء شخص ما إلى إحدى هاتين الطبقتين هي القدرات المالية. وهو يبقى مرشحاً للانتقال إلى الطبقة الأخرى في أيّ لحظة ينقلب فيها وضعه المادي من الغنى إلى الفقر أو العكس. وبدورها، تقسم هاتان الطبقتان إلى فئات عدّة هي:

أولاً: الأشراف

وفي طليعتهم الملك وعائلته، ومن ثمّ النبلاء والكهنة والقادة العسكريّون.

أ ـ الملك وعائلته: كان الملك في المجتمع الفينيقي ذا سلطة سياسية ودينية معاً، ذلك أنّ العرش مقدّس والقيّم عليه أشبه بإله تُحترم إرادته على هذا الأساس، ومخالفته تعني مخالفة الآلهة. وكانت زوجته ذات شأن رفيع في اتخاذ القرارات، وهي تتولّى الوصاية على الحكم إذا كان وليّ العهد قاصراً. وغالباً ما تضطلع الملكة بدور الكاهنة الكبرى. ويرتكز المؤرّخون على هذا الدور لإثبات ما للمرأة من موقع في المجتمع الفينيقي. كما يسجّل التاريخ زواج الشقيق من الشقيقة أحياناً، رغبة منهما في الحفاظ على صفاء النسب الملكي.

ب ـ النبلاء: وهم عادة الميسورون مادياً، ومعظمهم من التجار وذوي الصناعات الحرفية، إضافة إلى أصحاب النفوذ الاجتماعي والإقطاعيّين. ومن مميّزات هذه الطبقة أنّ المنتمين إليها يمكن أن ينتقلوا بينها وبين طبقة العامة، وفقاً لنجاحهم في الحفاظ على ثرواتهم. وهناك استثناءات لهذه القاعدة

أحياناً، إذ يكون لأصحاب المآثر الاجتماعية أو السياسية أحياناً الحق في الانتماء إلى طبقة النبلاء، ولو شاءت الأقدار أن تضعهم في مستوى مادي أدنى.

ج ـ **الكهنة**: تمكّن هؤلاء من تكوين ثروات كبيرة لهم ولعائلاتهم وأبنائهم لأنّهم كانوا يتقاضون نسباً من أثمان الذبائح المقدّمة للآلهة في الهياكل، وكان يرأس الكهنة العاملين في المعابد أرفعهم رتبة، ويُطلق عليه لقب رئيس الكهنة أو «رب». وأحياناً كانت هناك كاهنات، ترئسهن الملكة. ويعاون هؤلاء الكهنة في المعابد مجموعات من حرّاس الهيكل والمنجّمين والعرّافين والسحرة الذين كان لهم شأنهم أيضاً في المجتمعات القديمة بسبب التداخل الذي كان قائماً بين الدين والسحر والتنجيم.

د ـ **القادة العسكريّون**: كان شائعاً في المدن الفينيقية أن يتولّى الملك قيادة الجيش العُليا، والتي تشمل الحامية البرية العاملة داخل أسوار المدينة وخارجها، إلى جانب الأسطول البحري المرابط قبالة الشواطىء. إلاّ أنّ الوضع كان مختلفاً في قرطاجة، حيث كانت القيادة العسكرية منفصلة عن موقع الملك، ممّا ساعد قادتها العسكريّين على التأثير في سياسة المدينة. ومن أبرز هؤلاء القادة هنيبعل بن برقة، وقبله والده هملقار.

ثانياً: طبقة العامة

وتتألف من أرباب الأعمال والعمّال والفلاحين.

أ ـ **أرباب الأعمال**: وهم غالباً من التجّار وأصحاب المهارات الصناعية التي كانت رائجة في فينيقيا خلال ذلك العهد، كصناعة السفن، إضافة إلى الأطباء الذين كان يقترب دورهم بأهمّيته الاجتماعية أحياناً من دور الكهنة.

وعلى رغم انتماء هذه الطبقة إلى العامة، فإنّ أبناءها كانوا ينجحون أحياناً في الانتقال إلى فئة النبلاء إذا ما قُدّر لهم بناء ثروة ترفعهم إلى مستوى مادي يسمح لهم بذلك.

ب ـ **العمّال**: كانوا يعيشون في مساكن متلاصقة ضمن أحياء خاصة في المدينة. لم يكونوا هامشيّين أو منبوذين اجتماعياً، بل كانوا يقابلون بالاحترام من جانب طبقة الأشراف ونظراً إلى مهنهم التي تتطلّب مهارة وجهداً ذهنياً مميّزين، وقدرة على الإبداع الفنّي.

ج ـ **الفلاحون**: هم الطبقة العاملة في الأرض التي تعود ملكيّتها إلى طبقة النبلاء.

د ـ **العبيد**: لم تكن هناك طبقة للعبيد بالمعنى الذي كان شائعاً في سائر الأمم القديمة في تلك العهود، إذ امتلكوا الحق في التملّك وتأسيس عائلة، ولطالما كان يجري تحريرهم إذا ما أدّوا خدمات بارزة. وثمّة مصادر أشارت إلى أنّ زواج الجواري من رجال أحرار كان ممكناً إذا ما تمّ إعتاقهنّ. ولهذا كان يشعر العبيد في فينيقيا أنّهم جزء له دوره في الحياة الاجتماعية، وهذا ما سمح بتأسيس حياة صلبة داخل المجتمع الفينيقي، بعيداً نسبياً عن القلاقل وحالات التمرّد.

المدن الفينيقية

أرواد

هي جزيرة مقابل ساحل مدينة طرطوس (سوريا). يعود تاريخ تأسيسها إلى زمان قديم جداً، ليس بعيداً في القدم عن تاريخ تأسيس مدينتي صيدون وصور. ويرى بعض المؤرّخين أنّ مؤسّس المدينة هو الأروادي بن حام بن نوح الذي ورد ذكره في كتاب التوراة.

إزدهرت هذه الجزيرة ونمت قوّة، حتى اعتبرت إحدى المدن الفينيقية الرئيسيّة. لكن تعرّضها لغزوات متلاحقة قوّض اقتصادها وقوّتها السياسية وأفقدها مركزها بين شقيقاتها الأخريات.

كان النظام السياسي في المدينة ملكياً ـ جمهورياً، كما في المدن الفينيقية الأخرى. فيها مجلس للشيوخ، أو دار للشورى تقوم بإدارة المجالس التي تمثّل المدينة. أمّا الملك فكان وطنياً غير مستبد، ويخضع لسلطة مجلس الشيوخ.

عرقا

هي بلدة كنعانية قديمة تقوم على تلة صغيرة فوق مدينة طرابلس في جبال عكّار. وهي لا تعلو كثيراً عن سطح البحر. وتدل آثار المدينة المكتشفة على قدمها وتاريخها العريق. ويحيط بالمدينة سور حجري ككل الأسوار التي كانت تُبنى لحماية المدن من الغزاة. ويقول بعض الروايات التاريخية أنّ باني هذه المدينة هو العرقي بن كنعان.

البترون

هي مدينة فينيقية ساحلية تقع جنوب طرابلس. لم تلعب دوراً مهمّاً ولم يذكرها المؤرّخون كثيراً، إذ لم يبق من آثارها الكثير بسبب توالي الزلازل التي خرّبتها.

ويعيد بعض المؤرّخين تاريخ إنشاء البترون إلى ١٠٠٠ سنة ق.م. ويعتقد أنّ ملك صور إيتو بعل هو الذي بناها، وقد عُرفت باسم بوتريس، حسب التسمية الإغريقية.

طرابلس

نتيجة لقيام مجلس ثلاثي ضمّ ممثّلين عن كلّ من صيدا وصور وأرواد، نشأت مدينة طرابلس (تريبوليس)، ومعناها المدن الثلاث. وجاء إنشاء هذا المجلس في إطار من التحالف الوطني هدفه الحفاظ على الأرض في وجه الغزاة والطامعين. وتشير الدلائل التاريخية إلى أنّ المجلس المذكور لم ينشأ في مدينة قائمة، ممّا يعني أنّ طرابلس لم تكن موجودة قبل قيامه.

ومن غير الواضح ما إذا كان انضمّ ممثّلون لمدن فينيقية أخرى، في أزمنة لاحقة، إلى مجلس طرابلس. لكن بعض الوقائع التاريخية يشير إلى أنّ العديد من هذه المدن ارتضى في بعض المراحل أن يسترشد بمشورة المجلس الثلاثي وقراراته.

وإذ يرجّح بعض المصادر أن يكون المجلس مؤلفاً من ثلاثمئة رجل، يمثل كل مئة منهم مدينته، فإنّ هؤلاء الثلاثمئة يكونون البناة الفعليّين لمدينة طرابلس، إذ كان كل رجل يصطحب معه أفراد عائلته للعيش معه. وأدّى تكاثر هؤلاء إلى بناء المدينة ذات الأحياء الثلاثة، التي كان لكلّ منها قوانينه الخاصة. ويعتقد أنّ الحي الأول كان في محيط ميناء طرابلس، والثاني في السلفتانية، والثالث في البحصاص غرب المدينة. وتمّ اكتشاف آثار لقناة جرّ للمياه من الضنية عبر مجدليا وصولاً إلى الحيّ الثاني.

ومن أقدم الأدلّة على تاريخ طرابلس ومجلس الثلاثي، ما ورد في أواسط القرن الرابع قبل الميلاد، عن اجتماع عقده المجلس لدرس السبل الآيلة إلى مواجهة الفرس والبحث عن طرق لتحقيق الاستقلال.

وقد ازدهرت طرابلس خلال عهد مجلس الشورى، إلاّ أنّ المجلس زال خلال الاحتلال اليوناني، وتحديداً بعد وفاة الاسكندر، ممّا أدّى إلى تراجع أهمية المدينة. وخلال تولّي السلوقيّين للسلطة، جرت معارك عنيفة بين انتيغونس وسولوقس، وعمد الأوّل إلى بناء السفن الحربية لهذه الغاية، وكان لطرابلس دور في هذه المهمّة، كما كانت أخشاب الأرز تُنقل من الجبال اللبنانية عبر مينائها.

وهناك معاملات عديدة لمارك أنطونيوس مع كليوباترا، ومعاملات أخرى لأغسطس ونيرون وتريانوس تتضمّن اسم طرابلس.

وإثر نشأة المسيحيّة، مرّ القديس بطرس بالمدينة في طريقه من صور إلى أنطاكية، فأقام فيها أسقفاً واثني عشر كاهناً. وكان للمسيحية شهداؤها من أبناء المدينة في مرحلة لاحقة.

بعلبك

أظهرت دراسات حديثة أنّ لمدينة بعلبك، ذات الشهرة الرومانية، جذوراً فينيقية. ويُعتقد أنّها كانت مدينة دينية مهمّة، وأنّه كان فيها هيكل فينيقي لا تزال آثار بعض أساساته قائمة. وبعد الفينيقيّين، بنى الرومان أعظم هيكل روماني في لبنان على أرض بعلبك. وهو اليوم من أهم الآثار التي لا تزال قائمة على الأراضي اللبنانية.

عرفت بعلبك باسم آخر «هليوبوليس»، ومعناه مدينة الشمس. والإسم الأول يعود في جذوره إلى أصول سامية فينيقية، وقد يكون تحريفاً لاسم سامي قديم هو «بعل بقاع».

ولأنّ هذه المدينة كانت منذ القديم مدينة دينية، فقد بُني فيها منذ أيام الفينيقيّين معبد ضخم مكرّس للإله الأرامي هدد، ويُعتقد أنّ الهيكل الروماني الضخم بُني على أنقاض هذا الهيكل الذي لم يبقَ له أثر. وكان الإله هدد إله البرق والرعد وشفيع المزارعين، فإذا أبرق وأرعد سقى الزرع، وإذا فاضت المياه هلك الزرع والضرع. وقد رُبطت عبادته بالطقس والشمس، لذا صُوِّر وعلى رأسه تاج وهالة كالشمس. وتحوّل هذا الإله الآرامي إلى إله روماني، هو المشتري Jupiter.

جبيل

تُعتبر مدينة جبيل من أعرق المدن الفينيقية، ومن أقدم المدن المنظمة في العالم. في البدء كانت تُسمّى «جبلة»، وقد ورد اسمها مراراً في التوراة (سفر حزقيال ٢٧:٩). وقد سمّاها الإغريق «بيبلوس»، وهي تحريف لكلمة Bible، ومعناها الكتاب.

لم تُعرف المدينة على مدى تاريخها كقوّة عسكرية واجهت الأعداء والغُزاة، وإنّما بنت شهرتها على تجارتها البحرية التي تفوّق فيها الجبيليّون على سواهم، وكان لهم دور كبير في تسويق تجارة خشب الأرز، الذي كانت جبالهم مكسوّة بغاباته. وعندما بدأ سليمان ببناء هيكل الرب في أورشليم، طلب من حيرام ملك صور أن يبعث إليه بخشب الأرز. وكان للجبيليّين دور كبير في تأمين الخشب لبناء الهيكل.

بيروت

كان لها دور بارز بين شقيقاتها وجاراتها سبق المجد والشهرة اللتين اكتسبتهما في العهد الروماني، ومع مدرسة الحقوق تحديداً. وإذا تفوّقت المدن الفينيقية الأخرى عليها، فلأنّ مرفأها لم يكن مناسباً تماماً للملاحة كما مرافىء المدن الأخرى. فالسفن التي كانت تلتجىء إلى خليج مار جرجس، كما هو معروف اليوم، إذا عصفت بها أنواء البحر، لم تكن تجد في هذا الخليج ملجأً آمناً عندما تكون الرياح عنيفة.

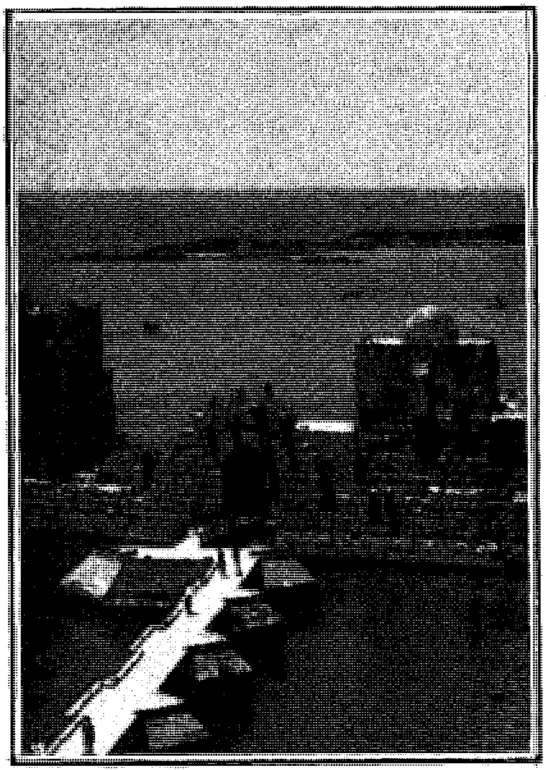
ورغم ذلك، كان لبيروت في بعض المراحل سيطرة على مناطق مجاورة أو بعيدة، فمدينة أوغاريت (رأس شمرا) كانت في مرحلة ما تابعة لبيروت، كما تشير رسالة كتبها ملك بيروت إلى ابنه حاكم أوغاريت، وفق ما ذكره المؤرّخ ڤيرولّو في كتابه «سوريا».

ويختلف المؤرخون حول مصدر اسم بيروت. فبعضهم يرى أنّ الاسم الأصلي هو بيروت، أي الزهرة، فيما ينسبه البعض الآخر إلى ابنة الزهرة وأدونيس بيروبا. لكن المرجّح هو أنّ الاسم يعود إلى بيروت أو باروث، ومعناه بالفينيقية «آبار» لكثرة وجودها في هذه المدينة. كما أنّ المياه كانت تصل أيضاً إلى بيروت عبر قناطر زبيدة الواقعة بين المتنين الشمالي والجنوبي، وما زالت آثارها قائمة حتى اليوم.

صيدون

من أقدم المدن الفينيقية وأهمّها بعد صور. إمتلكت البحر إلى جانب جبيل وصور. وكان لها مرفأ كبير يتّسع لخمسين سفينة. لكن الأمير فخر الدين المعني الثاني أمر بتضييقه لمنع سفن الدولة العثمانية من دخوله.

ذُكر اسم صيدون في الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد، وورد أنّ المسيح زار هذه المدينة أثناء مروره على الشاطىء الفينيقي، حيث كانت له معجزة شفاء المرأة الكنعانية. وقال المؤرخ يوسيفوس إنّ من أبناء كنعان صيدونيوس الذي بنى مدينة سمّاها باسمه. وقد وصفها يشوع بن نون بالمدينة العظيمة. أمّا هوميروس فيتوقف في الألياذة عند مهارة الصيدونيّين في صناعاتهم وبسالة جنودهم وقساوتهم، ويشير إلى أنّ بحّارتهم مارسوا التعدّيات على الطرواديّين خلال حرب طروادة. وتؤكد كتابات تاريخية عديدة أنّ الفينيقيّين كانوا يسمّون أحياناً صيدونيّين بسبب شهرة أهل صيدون ودورهم الكبير السابق لدور أهل صور. كما أنّ صور كانت في بداية عهدها خاضعة للسلطة الصيدونية قبل أن تزدهر وتأخذ في بناء مجدها الخاص.



وكانت صيدون تشكّل مع شقيقتيها صور وأرواد واحدة من المدن الثلاث المكوّنة للمجلس المؤلف

لندوة طرابلس. وكان لها، على غرار شقيقاتها الفينيقيّات إلٰه بعل هو أشمون، إلٰه الشفاء. وقد وجدت خرائب هيكله في العام ١٩٠٠ عند المدخل الشمالي لمدينة صيدا الحالية.

ويشير تاريخ صيدون إلى أنّ أهلها تمكّنوا من تأسيس مملكة آمنة وسط القلاقل التي عاشتها معظم الممالك المجاورة، إلى جانب المهارة الحرفية وركوب البحر، إذ تمكّن الصيدونيّون من بناء مستعمرات عدّة لهم. وتدلّ الكتابات التي أوردتها نقود المملكة أنّ صيدا هي أمّ مدينة هبّو على الساحل الشمالي لأفريقيا ومدينة كيتيوم في جزيرة قبرص. لكن السيادة البحرية الصيدونية تراجعت في ما بعد لمصلحة المجد الذي بنته مدينة صور.

صور

أعظم المدن الفينيقية على الإطلاق، ومن أعرقها تاريخاً وقدماً. شهدت أهم الأحداث التي جرت على أرض فينيقيا، ومن على شاطئها انطلق قدموس ناشراً الحرف الأبجدي. ومنها انبثقت مدينة قرطاجة العظيمة التي بنتها إليسار ابنة صور.

ورد ذكرها في الكتاب المقدّس، بعهديه القديم والجديد. كما ذكرها الشاعر نونوس في ملحمته «الديونيزية» حيث قال بلسان الإلٰه باخوس، ابن الإلٰه زوس: «أيّتها العذراء لن أقطن السماء بعد الآن لحبّي لك، فمثواك أجمل من الأولمب».

وفيما يعتبر كتاب التوراة أنّ مدينة صيدون هي أهمّ المدن الفينيقية وأقدمها، يعتبر الكتّاب الإغريق أنّ صور هي الأهمّ ويدعونها «متروبوليس» أو حاضرة وعاصمة. ويقول بعض المؤرخين أنّ مدينة صيدون هي التي أسّست مدينة صور. لكن آخرين ينفون ذلك، مشيرين إلى اختلاف طقوس العبادة والآلهة بين المدينتين. . .

وتدور حول مدينة صور أساطير إلٰهية عديدة حول إنشائها وأهميّتها وتشييد المعابد فيها، وأهمّها هيكل بعل السماء (بعل شميم أو زفس الأولمبي) وحرم الإلٰه أجنّور ومعبدا عشتروت وملقارت، ومعبد هرقل تاسوس.

تقول الأسطورة التي أوردها الشاعر نونوس في ملحمته إنّ الإله هرقل المرصّع بالنجوم هو الذي أعطى الحياة لأهل صور الذين سكنوا فيها منذ الازل، والذين عمرهم كعمر الكون. إلاّ أنهم كانوا في سبات عميق. فقال لهم هرقل بقلبه المفعم بالحب أن انهضوا من سباتكم وقوموا من الطين إلى الحياة. أمرهم بأن يقطعوا سنديانات الجبل ويصنعوا منها مراكب، وآراهم دلفيناً في البحر ليصنعوا المركب شبيهاً به. فصنعوا المراكب وثقّلوا قعرها بأربعة حجارة متوازنة، واتجهوا إلى البقعة التي عليها صور الآن.

ولمّا وصلوا رأوا صخرتين واحدة في البرّ وأخرى في البحر، وشجرة زيتون عليها عقاب، فقال لهم هرقل أن يقتلوا الطائر ويهرقوا دماءه فتلتحم الصخرتان التحاماً أبديّاً. وهكذا حصل ونشأت صور المدينة البحرية المحصّنة والتي ذاع صيتها وجمالها في الكون.

وبعدما فرغ الإله هرقل من ذلك، قام بإطلاق سهامه على ثلاث عذارى باعثاً في قلوبهن الرغبة والحبّ. فتزاوجت حوريات الماء بأهل الأرض، وتوالد أهالي صور المتحدّرون من الآلهة. وقد تحوّلت الحوريات الثلاث إلى ثلاثة ينابيع مياه تروي المدينة.

وذكرت صور مرّات عدّة بالمديح في أسفار العهد القديم. فقال عنها أشعيا النبي: «تجّار صيدون وعابرو الأمم يملأونها... ذات مجد عظيم في قلب البحار، تتوّج الملوك، تجّارها أمراء ومكتسبوها كرام الأرض».

أمّا النبي حزقيال فيصف صور أيضاً بأبهى الصفات، ويتحدّث عن ازدهار تجارتها وغناها وثرواتها، ويمدح ملكها قائلاً عنه: «هكذا قال السيّد الرب، أنت ممتلىء حكمة وكامل الجمال، كنت في عدن جنة الله، وكان كلّ حجر كريم كساء لك، من الياقوت الأحمر والياقوت الأصفر والماس والزبرجد والجزع واليشب واللازورد والبهرمان والزمرّد... كامل أنت في طرقك من يوم ولدت».

تقسم صور إلى مدينتين، بحرية وبرية. وهما اتّصلتا ببعضهما بالجسر الذي بناه الاسكندر المقدوني أثناء محاصرة المدينة البحرية التي فاقت شهرتها

شهرة المدينة البرّية، على رغم أنّها أحدث منها عهداً. وفي المدينة البحرية تركّز الثقل الاجتماعي والسياسي والعسكري والاقتصادي، وكانت أيضاً المركز الديني والتجاري.

كانت حدود صور واسعة بحيث امتدّت إلى مدينة عكا الفلسطينية التي خضعت لها سياسياً واقتصادياً نحو العام ٣٤٠ ق.م. وقد وسّع الملك حيرام الأول حدود المدينة فسدّ القناة المائية التي كانت تفصل بين الجزيرتين وردمها بالصخور. وكان للمدينة مرفآن، أحدهما دعي صيدون والآخر عُرف بالميناء المصري. وكانا مجهزين بتحصينات لحماية السفن من العواصف ولردّ هجمات الغزاة.

كذلك، بنى الصوريون حول مدينتهم تحصينات منيعة قادرة على مواجهة الغزوات المصرية والأشورية. فقد أُحيطت المدينة بأسوار ضخمة بُنيت في البحر من دون رصيف يسمح للغزاة بتثبيت السلالم عليه. وقد بلغت هذه التحصينات لجهة الشرق ارتفاعات شاهقة، قاربت المئة والخمسين قدماً، فيما كانت هذه التحصينات أقلّ مناعة لجهة الجنوب، ومن هذه الجهة ركّز الاسكندر المقدوني هجماته وخرق المدينة الحصينة.

الفصل الثالث

مرحلة الاحتلالات

بحكم موقعه الجغرافي في قلب العالم القديم، كان على لبنان أن يخضع لمرحلة طويلة من الاحتلالات المتعاقبة على أيدي الشعوب التي قدمت من هنا أو هناك وجعلت مقرّاً لها على أرضه، بعدما أغواها موقعه وحضارة شعبه وخيراته المتنوّعة، لا سيّما غابات الأرز الكثيفة المنتشرة في ربوعه وفوق جباله. وقد تركت هذه الشعوب آثاراً مختلفة لها على الأرض وفي عادات السكّان وتقاليدهم. لكن الأثر الأبرز يبقى في تلك النقوش على صخور نهر الكلب التي تعيد الحكاية نفسها: احتلال فجلاء... ولبنان باقٍ!

المصريّون والحثّيون

بدأت العلاقة بين الفينيقيّين والمصريّين في المجال التجاري منذ عهد الدولة المصرية القديمة. فكان المصريّون يستوردون خشب الأرز ليستخدموه في قبور الفراعنة وصنع المراكب والأثاث. واستوردوا أيضاً الأواني الخزفية والخمور وزيت الزيتون والصموغ التي كان المصريّون يستعملونها في تحنيط الموتى. واستورد الفينيقيّون في المقابل الذهب والمعادن وأوراق البردى. وكانت طرقات نقل البضائع موزّعة بحراً وبرّاً.

وازدهرت العلاقات التجارية المصرية ـ الفينيقية ازدهاراً كبيراً واتخذت طابع المودّة والصداقة أحياناً. ثمّ تطوّرت إلى علاقات حضارية ودينية، وخصوصاً مع مدينتي جبيل وأوغاريت (رأس شمرا). وكان الحكام يتبادلون الهدايا الثمينة.

غير أنّ الوضع تغيّر خلال القرن الأول من الألف الثاني ق.م. مع حلول الدولة المتوسّطة التي قام ملوكها بفتوحات عسكرية شملت فلسطين وجزءاً واسعاً من فينيقيا حتى حدودها الشمالية. واستمرّت هذه السيطرة حتى أواسط الألف الثاني ق.م. وقد استباح الفراعنة خيرات فينيقيا فترة طويلة من الزمن، وكانوا يأخذون أولاد ملوكها رهائن لتربيتهم على الطريقة المصرية لضمان ولائهم.

ففي عهد طحوتمس الثالث (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ ق.م.)، استولى المصريّون على فينيقيا بعد انتصارهم على الهكسوس وحلفائهم في معركة «مجدّو»، وعادوا محمّلين بالغنائم الثمينة والأسرى.

وبعد فترة قصيرة، جدّد طحوتمس الثالث حملته على المنطقة وسيطر عليها تماماً. وعندما حاول بعض المدن الفينيقية الثورة، أخمدها المصريّون بالقوّة. ثمّ حاصروا مدينة أرواد وفتحوها وعاملوا أهلها بقسوة.

يصف نصّ مدوّن على جدران معبد الكرنك في مصر الحملة المصرية على جزيرة أرواد ويعدّد الغنائم:

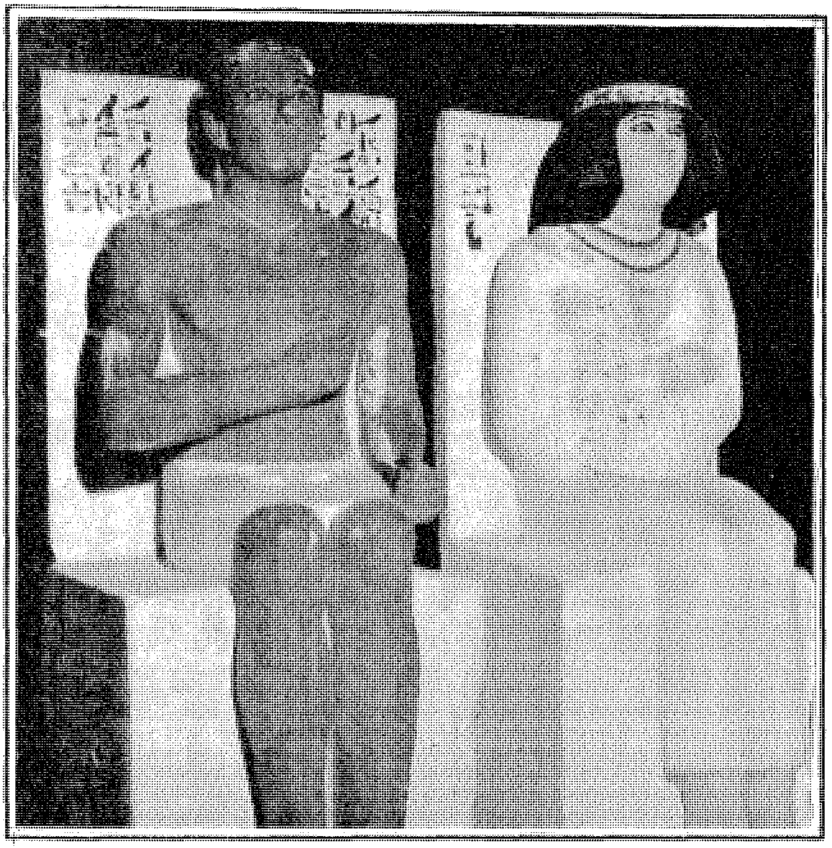
«وهدم جلالته مدينة أرواد بما فيها من مخازن الحبوب وقطع جميع أشجارها. وقد وجد الشاطىء اللبناني الذي تكسوه الجنائن مليئاً بالثمر، خمورهم في خوابيها مبذولة كالماء، وحبوبهم على بيادرهم أوفر من رمل البحر، فقرّت أعين الجيش بوفرة الغنيمة».

أما الغنائم فكانت: «٥١ عبداً بين ذكر وأُنثى، ٣٠ حصاناً، ١٠ صحون مفلطحة من الفضة، بخور وزيت، ٤٧٠ جرّة عسل، ٦٤٢٨ خابية من الخمر، نحاس ورصاص ولازورد وحجر المرو، ٦١٦ رأساً من الماشية الكبيرة و٣٦٣٦ رأساً من الماشية الصغيرة... فكان الجيش يسكر ويتدهّن بالزيت كلّ يوم كأنه في عيد من أعياد مصر».

في هذه المرحلة، برز في شمال البلاد شعب توطّن جبل أمانوس أو اللكام ويسمّى الشعب الحثي. وقد بلغ مبلغاً من القوّة والسؤدد جعله يوجّه أنظاره نحو الجنوب طامعاً في التوسّع العسكري على حساب المصريّين.

وكان الحثيون يتمتّعون بتنظيم عسكري جيّد ويستعملون الخيول كثيراً والمركبات الحربيّة. وقد بدأوا بحملاتهم العسكرية على المصريّين في عهد الملك شبلوليوما، وبعد استيلائهم على مملكة متني في سوريا والتي كانت خارج النفوذ المصري. فشنّوا حملة في شمال لبنان، انطلاقاً من سوريا وبسطوا سيطرتهم على المنطقة الممتدّة حتى مدينة جبيل، بما فيها أوغاريت. وخاضوا في سبيل ذلك معارك عديدة مع الجيش المصري. وهكذا أصبحت فينيقيا مقسّمة بين النفوذين المصري والحثي.

حاول بعض الأمراء الكنعانيّين الاستفادة من هذا الاقتسام للسلطة بين المصريّين والحثيّين، فراحوا يبثّون الدسائس ويحيكون المؤامرات بين الجانبين، أملاً في تحقيق مكاسب خاصة وتوسيع نطاق نفوذهم. ونتيجة لذلك، دبّت الفوضى في الأراضي الكنعانية.



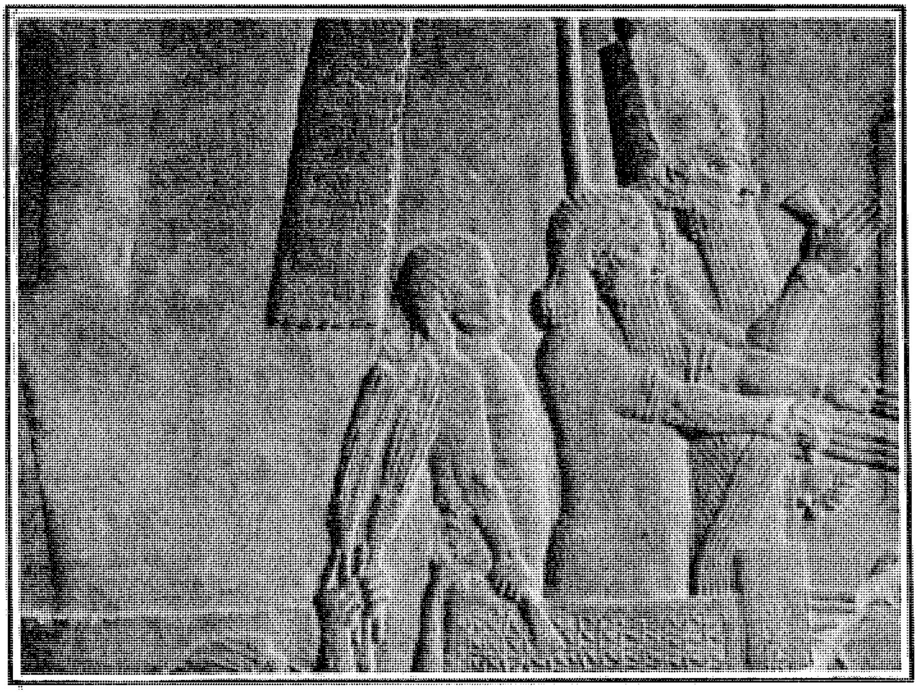
نفرتيتي الفينيقية وزوجها أختاتون

وفي أواخر عهد الأسرة الثامنة عشرة في مصر، تخلّى المصريون عن مناطق سيطرتهم في فينيقيا، فبسط الحثيون نفوذهم عليها. إلاّ أنّ الفرعون ستّي الأول، من الأسرة التاسعة عشرة، تمكّن من استعادة السيطرة على الساحل الفينيقي لفترة معيّنة. وبما أنّ المعارك بين المصريّين والحثيّين لم تصل إلى نتيجة حاسمة لأيّ من الطرفين، فقد عقدا معاهدة «عدم اعتداء» أصبح لبنان بموجبها، كما كان في السابق، مقتسماً بين النفوذين المصري والحثي. واستمرّ هذا التقسيم في عهد الفرعون رعمسيس الثاني الذي أمر بنقش لوحة على صخور نهر الكلب تخلّد ذكرى الوجود المصري في لبنان.

وبعد رعمسيس الثاني، بدأ النفوذ المصري يزول شيئاً فشيئاً عن لبنان، وكذلك النفوذ الحثي، وتمكّن شعب جديد هو الشعب الآرامي من السيطرة على الداخل السوري، فيما تمكّن الفلسطينيون والعبرانيون من فرض نفوذهم على جنوب الساحل الفينيقي. أمّا الساحل الفينيقي الأوسط فقد عرف مرحلة استقلال مميّزة استمرّت نحو ثلاثة قرون (١٢٠٠ ـ ٩٠٠ ق.م.)، نعم خلالها بازدهار في المجالين السياسي والاقتصادي. لكن المدن المستقلة عاشت في تلك المرحلة عزلة سياسية عن المدن الأخرى في الشمال والجنوب، والتي كانت خاضعة للاحتلال. حتى أنّ المدن المستقلّة، وبسبب التنافس التجاري في ما بينها، انعزلت الواحدة عن الأخرى، وراحت كلّ مدينة تهتمّ بشؤونها الخاصة واضعة جانباً التعاون مع جاراتها.

الأشوريون والبابليون

تشير كتابات قديمة إلى أنّ الشعوب البابلية حاولت، منذ انشاء الدولة البابلية، شنّ حملات على فينيقيا. ففي نقوش تركها سرجون الأكادي (حوالي ٢٢٥٠ ق.م.)، يقول انّه ملك «من البحر الأعلى إلى البحر الأدنى»، ويسمّي من ضمن ما ملكه «غابات الأرز وجبال الفضة». وتدلّ غابات الأرز طبعاً إلى جبال لبنان، فيما يُعتقد أنّ جبال الفضة ترمز إلى جبال الأمانوس في تركيا.



أشور بانيبال على عربة النصر

وجاء في نقوش أخرى تركها الملك نارام سن (حوالي ٢١٧٠ ق.م.)، وهو خليفة سرجون الأكاديّ أنّه سيطر على منطقة واسعة جداً، بما فيها «غابات الأرز».

أمّا في العام ١٠٩٤ ق.م.، فقام الملك تغلت فلاصّر الأول بحملة انطلقت من ضفاف الفرات إلى شواطىء فينيقيا. وتمكن من الوصول إلى جزيرة أرواد واحتلالها. ويقول في كتاباته أنّه قام برحلة بحرية من أرواد إلى مدينة سميرا قرب صيدا، وأنّ مدينتي جبيل وصيدا قدّمتا إليه الجزية. لكن هذه الحملة لم تدم طويلاً، وكان هذا الاحتلال احتلالاً وقتياً قصير الأمد، ما لبث أن زال.

أما الحملات العسكرية الواسعة على المنطقة فلم تبدأ فعلاً إلاّ في عهد الملك أشور ناصربال الثاني (٨٨٣ ـ ٨٥٩ ق.م.) الذي بلغت أشور معه ازدهاراً وقوّة عسكرية بالغي الأهمية.

جمع أشور ناصربال جيشه منطلقاً من العراق سالكاً الطريق إلى سوريا، ومن شمالها على طول الخط الساحلي جنوباً إلى فينيقيا. وعندما وصل إلى الساحل الفينيقي لم يلقَ مقاومة تذكر واستسلمت له المدن الفينيقية الواحدة تلو الأخرى على مضض، وقبلت بدفع الجزية للفاتح الجديد، وكانت عبارة عن فضة وقصدير وآنية وثياب مزركشة وقرود وأخشاب الأبنوس والأرز وأنياب بقر البحر.

وبعد أشور ناصربال، تولّى الحكم ابنه شلمناصّر الثالث الذي استهلّ عهده بمواجهة مع تحالف فينيقي ـ آرامي في معركة قرقر، فحقّق نصراً جزئياً لم يمكّنه من احكام سيطرته على المنطقة. وفي العام ٨٤٢ ق.م. شنّ حملة عسكرية أخرى أسفرت عن استسلام المدن الفينيقية كلّها له. وهيمن الأشوريون على المنطقة طيلة قرن من الزمن ضعفت خلاله سيطرتهم شيئاً فشيئاً، فجدّدوا حملاتهم العسكرية على المنطقة وأخضعوا المدن الفينيقية لسلطتهم من جديد، وعاملوا مدينة صيدا بقسوة على رغم استسلامها لهم، فهجرها أهلها بعدما خرّبها الملك أسرحدون وهدم بيوتها وأسوارها.

وبعد تدمير صيدا، سارعت صور إلى تقديم الطاعة للغازي الأشوري بقيادة مليكها بعل. وبدأت العلاقات جيّدة بين أسرحدون وملك صور الذي مُنح قسماً من المنطقة الصيدونية. وعقد الرجلان معاهدة تنظم العلاقات بينهما، وتنصّ على تشكيل مجلس شيوخ ذي صلاحيات واسعة في صور، يكون فيه ممثلون عن أسرحدون، ممّا يعني تأثيراً معيّناً في سياسة المدينة، كما تحدّد المعاهدة شروطاً لرسو السفن الصورية في شواطىء أشور، والمناطق التي يُسمح فيها لبعل بمدّ سلطته. وكانت هذه المناطق تمتد من جبيل في الشمال إلى عكا جنوباً، إضافة إلى بعض العمق في الجبل اللبناني.

وبعد فترة من الوفاق الذي أُرغم عليه ملك صور، استغلّ مجدداً تقرّبه من فرعون مصر آنذاك ترهافا الحبشيّ الأصل، ليثور على الأشوريّين. لكن هؤلاء قمعوا ثورته في مهدها، إلاّ أنّهم لم يتمكنوا من القضاء على صور، كما أنّهم لم يهاجموا جيوش الفرعون المصري.

وفي عهد أشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٥٦ ق.م.) ابن أسرحدون، ثارت صور مرّات عدّة، فقمع ثوراتها أولاً بالهدوء. ولكنها لمّا لم تذعن له، قام بمحاصرتها وقطع الطرق البرّية والبحرية عليها. ويقول أشور بانيبال في كتاباته أنّ ملك صور قدّم إليه ابنته وبنات إخوته مع مهورهن فقبلهن، كما قدّم إليه ابنه فأرجعه إليه.

غير أنّ أشور بانيبال شنّ من جديد حملة أخرى على المدن الفينيقية في العام ٦٦٤ ق.م. بعدها استسلمت إلى الأشوريّين للمرّة الأخيرة بعد فترات من المقاومة والثورات.

وسجّل في نهاية عهد أشور بانيبال قيام صور البرّية بالتحالف مع عكا والثورة على الحكم الأشوري. إلاّ أنّ هذه الثورة أخمدت في سرعة وعنف.

الكلدانيون

بعدما ضعفت دولة الأشوريّين، هاجمتهم قوّة عسكرية جديدة ظهرت في العراق، عرفت بالكلدانيّين، وخرّبت عاصمتهم نينوى سنة ٦١٢ ق.م. ونشأت المملكة الكلدانية بزعامة نابو فلاصّر.

استغلّ المصريون هذه المرحلة الانتقالية بين الدولتين وموالاة معظم المدن الفينيقية لهم، فوجّه الفرعون حملة عسكرية كبيرة لمهاجمة الكلدانيّين، وكان يلاقي النصر تلو النصر، حتى هزمه نبوخذ نصّر في معركة كركميش سنة ٦٠٥ ق.م.

ولم يكتفِ نبوخذ نصّر بهذا الانتصار، بل قرّر متابعة حملاته على المدن الفينيقية لاتمام السيطرة الكاملة عليها لأنّه اعتبر أنّ السيطرة التامّة على الساحل الفينيقي وموالاة المدن الفينيقية له هما شرطان أساسيّان لمواصلة حملته صوب مصر بهدف إخضاعها. وكان يرى أنّ بقاء المدن الفينيقية خارج سيطرته يجعل حربه ضدّ المصريّين غير مضمونة النتائج على الإطلاق.

وبدأ نبوخذ نصّر حربه هذه باحتلال أورشليم التي سقطت في العام ٥٩٧ ق.م. فيما استسلمت مدن فينيقية أخرى راضخة للأمر الواقع، على أمل أن يزول هذا الاحتلال الجديد كما زال سواه قبله.

ألاّ أنّ مدينتي صيدا وصور لم تستسلما للغازي الجديد، وقرّرتا المواجهة بعدما تحالفتا مع مصر ومدن أخرى شرق الأردن، مثل أدوم ومؤاب وعمون. ورغم ذلك، انتصر الكلدانيون وأخضعوا المدن الفينيقية كلّها، باستثناء صور. فأخذ نبوخذ نصّر يعدّ العدّة لهجومه على صور، بدءاً بالمدينة البرّية التي سقطت بيده بعد فترة قصيرة. ثمّ حاصر صور البحرية محاولاً دخولها عبر بناء جسر بحري يربط بين البرّ والجزيرة، ولكنّه لم يفلح

في ذلك طوال الحصار الذي استمرّ ١٣ عاماً (٥٨٥ ـ ٥٧٢ ق.م.) وكان حصاراً لم يشهد التاريخ مثيلاً له.

وفي النهاية، عرض أهالي صور على المحاصرين استسلاماً جزئياً في مقابل رفع الحصار.

> وردت نبوءة سقوط صور البرّية لدى النبي حزقيال الذي قال: «ها أنذا أجلب على صور نبوخذ نصّر ملك بابل من الشمال ملك الملوك بخيل ومركبات وفرسان وجمع وشعب كثير. فيقتل بناتك بالسيف ويبني عليك معاقل ويبني عليك برجاً ويقيم عليك مترسة ويرفع عليك ترساً، ويجعل مجانق على أسوارك ويهدم أبراجك بأدوات حربه، ولكثرة خيله يغطيك غبارها. من صوت الفرسان والعجلات والمركبات تتزلزل أسوارك عند دخوله أبوابك كما تُدخل مدينة مثغورة بحوافر خيله يدوس كل شوارعك، ويقتل شعبك بالسيف فتسقط إلى الأرض أنصاب عزّك وينهبون ثروتك ويغنمون تجارتك ويهدّون أسوارك ويهدمون بيوتك البهيجة، ويضعون حجارتك وخشبك وترابك في وسط المياه، وأبطل قول أغانيك وصوت أعوادك لن يسمع بعد» (حزقيال ٢٦/ ١٠ ـ ١٤).

ويُعتقد أنّ الاتفاق نصّ على التخلّي عن إيتو ـ بعل وبيته مع الاحتفاظ بالنظام الملكي والاستقلال الداخلي، من دون أن تدخل الجيوش الكلدانية إلى صور البحرية.

وأخذ الكلدانيون عدداً كبيراً من أعيان صور ووجهائها رهائن. وتركوا تسجيلاً لهذا النصر نقشين على صخور نهر الكلب. ويظهر نبوخذ نصّر في النقش واقفاً أمام أشجار الأرز وهو يردُّ في يده أسداً. ويقول نبوخذ نصّر إنّه خلّص شعب صور وفينيقيا من كلّ عدوّ بتحريره من الحرب. وإنّه نقل إلى المدن الفينيقية السلام والطمأنينة والسرور. ويروي أنّه خاض حرباً شرسة واجتاز الصخور والوديان، وتمكّن من الوصول إلى غابات الأرز.

ويبدو أنّ الملك نبوخذ نصّر لم يجنِ الشيء الكثير من حصاره لصور، على رغم الحصار الطويل، ونرى ذلك واضحاً في نبوءة حزقيال النبي (٢٩/

١٧)، حيث يقول: «لم تكن له ولا لجيشه أجرة من صور لأجل خدمته التي خدم بها عليها، لذلك، هكذا قال السيّد الرب ها أنذا أبذل أرض مصر لنبوخذ نصّر ملك بابل، فيأخذ ثروتها ويغنم غنيمتها وينهب نهبها، فتكون أجرةً لجيشه».

وبعد فكّ الحصار عن صور، تغيّرت التحالفات كلّها، حين حالف الصوريّون الكلدانيّين في معركتهم ضد المصريّين.

وكما جاء في نبوءة حزقيال، فإنّه لمّا تمكّن الكلدانيّون من الشاطىء الفينيقي وأمنوا جانب صور، وجّهوا أنظارهم صوب مصر، ليحتلّوها، وحصل ذلك بعد خمس سنوات من انتهاء الحصار حول صور البحرية.

ولحقت بصور في الواقع نتيجة هذا الحصار الطويل خسائر اقتصادية جمّة، أبرزها توقف الحركة التجارية للأسطول الصوري الذي كان أهم أسطول تجاري في ذلك العصر. وهذا الوضع أدّى إلى تراجع صور كسيّدة البحار وكمدينة متفوّقة سياسياً واقتصادياً، كما أدّى إلى ضعف صلات صور بمستعمراتها المنتشرة على طول الشواطىء المتوسطية.

❀ ❀ ❀

لم تدم السيطرة على فينيقيا، رغم كل المعارك الشرسة التي جرت، أكثر من ثمانٍ وخمسين سنة. فبعد فكّ الحصار عن صور، ونتيجة اتفاق الحلّ الوسط الذي تمّ التوصّل إليه بين الجانبين، تخلّى الملك إيتو ـ بعل عن العرش، كما ذكرنا، وتسلّم مقاليد الحكم مكانه خلفه بعل، كما يرد في وثيقة لنبوخذ نصّر يصف فيها ملوك ست دول فينيقية، من بينهم ملك صور، ويقول إنّ هؤلاء الملوك خضعوا لسلطانه. وترجع هذه الوثيقة إلى العام ٥٧٠ ق.م. تقريباً.

ويتولّى الملك بعل الحكم طيلة عشر سنوات، وينتهي حكمه بثورة على الحكم الملكي تنتقل بنتيجتها السلطة إلى قضاة يحكمون لمدّة سبع سنين، وهم على التوالي: أنيبعل (حكم شهرين)، شلبس بن عبداي (أكمل السنة)، متان وجرعشترت بن عبدليم (يحكمان معاً ست سنوات من ٥٦١

إلى ٥٥٦). ويطرأ عندها تغيير على نظام الحكم فينتخب ملك، هو بلاتور ليحكم إلى جانب القاضيين.

وبعد انتهاء حكم هؤلاء الثلاثة، الملك والقاضيين، عاد أحد الأعيان الذين أخذهم الكلدانيّون رهائن، ويعتقد أنّه ابن الملك أتور بعل، وتسلّم عرش صور تحت اسم الملك بعل الثاني. وخلف هذا الملك في الحكم ملكان آخران من الأعيان الرهائن. ولا تورد النصوص التاريخية أي ذكر أو أخبار عن هذين الملكين المجهولين الاسم. ثمّ تسلّم الحكم الملك الصوري حيرام الثاني.

وفي عهد هذا الملك سيطر قورش الفارسي على مدينة بابل، عاصمة الكلدانيّين (٥٣٩ ـ ٥٣٨ ق.م.) واستولى على المملكة الكلدانية وأيضاً على المدن التي كانت خاضعة لها، وعلى رأسها المدن الفينيقية.

الفرس

خضعت المدن الفينيقية للمحتلّ الجديد من دون مقاومة تُذكر، ووافق قورش على أن تبقى الجزية التي كانت تدفعها المدن الفينيقية أيام الكلدان هي ذاتها المؤداة له. وفي أحد آثار قورش أنّ بين الملوك الذين قدّموا له الجزية في بابل «جميع ملوك فينيقيا». وكان قورش قد استولى على مدن فينيقيا وقبرص وأخاف مصر التي فضّل ملوكها المسالمة لأنّهم سئموا الحروب، كما أنّه مال إلى اليهود وأمر بعودة المسبيِّين منهم إلى فلسطين وتجديد بناء هيكل سليمان.

وبعد وفاة قورش خلفه ابنه قمبيز الذي استطاع اخضاع مصر، ووجّه أنظاره نحو قرطاجة الفينيقية، وطلب إلى الفينيقيّين الذين آزروه في حملاته السابقة مساعدته بأسطولهم في السيطرة على قرطاجة. إلاّ أنّ الفينيقيّين رفضوا ذلك بقوّة، إذ ليس طبيعياً أن يحاربوا أبناءهم، وأفهموه أنّ هناك قَسَماً متبادلاً يمنعهم من محاربة أبناء قرطاجة، وأنّ الآلهة ستغضب منهم وتلعنهم لو فعلوا. وقد كان الموقف الفينيقي الجريء كفيلاً بدفع قمبيز إلى التخلّي عن مهاجمة قرطاجة، لأنّ الأسطول الذي كان يعتمد عليه في حملاته هو فينيقي بالدرجة الأولى، ولأنّه لم يكن مناسباً إغضاب الفينيقيّين الذي يقفون إلى جانبه في حروبه الكثيرة ويقدّمون إليه خدمات الأسطول.

إزدهرت فينيقيا في عهد فارس، ونشطت تجارتها، وتابع الأسطول الفينيقي خدمته للفرس، فساعد داريوس في افتتاح جزر البحر الأبيض المتوسط المحاذية لشاطىء آسيا الصغرى. وقسّم الملك الفارسي امبراطوريته إلى عشرين ولاية، وكانت ولايته الخامسة هي فينيقيا وسوريا وفلسطين وقبرص، وكانت صيدا عاصمتها، فبنى فيها قصراً وحديقة للوالي، ويستخدمهما الملك إذا ما قرّر زيارة هذه الولاية.

وأمّا الخدمات البحرية التي قدّمها الأسطول الفينيقي لداريوس في معاركه لاخضاع الجزر اليونانية فكانت كبيرة. فقد بعث الملك الفارسي بديموسيدس على رأس مجموعة من الفرس إلى هذه الجزر في محاولة لدرس نقاط الضعف التي يمكنه من خلالها أن يشنّ حربه، فاستعان بسفينتين حربيّتين فينيقيّتين. وعندما اندلعت الحرب في العام ٥٠٢ ق.م. نشبت حركة تمرّد في المدن الأيونية ضد الفرس بدعم من اليونان، وشملت هذه الحركة أيضاً جزيرة قبرص، وكان أهلها من اليونانيّين والفينيقيّين. وإذ مال اليونانيّون إلى أبناء بلادهم محاولين الانقضاض على الحكم الفارسي، تمسّك الفينيقيّون بولائهم للفرس، ولا سيّما في مدينة أماثوس، وشنّ الأسطول الفينيقي حملة عَلى الجزيرة انتهت بعد معارك عنيفة، بتثبيت السيطرة الفارسية.

وشكّل هذا التمرُّد ذريعة لداريوس، فصعَّد حربه على اليونان، وطلب من الأسطول الفينيقي أن ينزل بكل طاقته في المعركة، ففعل الفينيقيّون. لكن الانتصار كان في خط اليونانيّين، وعاد الجيش الفارسي مهزوماً فيما فقد الفينيقيّون طليعة أسطولهم البحري عند جبل آثوس. وقد استدعى ذلك أشهراً من العمل المتواصل، بناء على إلحاح الفرس، لاعادة بناء الأسطول وتجهيزه للجولة المقبلة. ولم يستطع الفرس خلال هذه المعارك سوى أن يحافظوا على الجزر التي كانت تشهد حركات تمرُّد، ولم يتمكّنوا من بسط سلطتهم إلى ما أبعد من ذلك.

وعاد الفينيقيّون الذين استرجعوا قوّتهم البحرية للاضطلاع بالدور المطلوب منهم، فجمعوا نحو ٦٠٠ سفينة للانقضاض على معقل أريستوكوراس، قائد التمرّد الأيوني، وهو مدينة ميلتوس. واندلعت معارك عنيفة قبالة جزيرة لاد المقابلة لميلتوس، فانتصر الفينيقيّون ودخلوا المدينة وفرضوا سيطرتهم على الجزر القريبة منها. لكن اليونانيّين صمّموا على الثأر وتمكّنوا من ذلك في معركة ماراتون في أيلول (سبتمبر) ٤٩٠ ق.م. ومات داريوس من دون أن يتمكّن من النيل من اليونان. وبعده، قام ابنه احشويرش ثمّ ارتحششتا بمحاولات يائسة ضدّ الإغريق بمساعدة الفينيقيّين.

وبعد وفاة أرتحششتا الأول، شهدت بلاد فارس موجة من تغيّر

الملوك، فضعف نفوذها على الولايات، وواجهت ثورات عنيفة في مصر. أمّا الفينيقيّون فراحوا يعيدون حساباتهم بعد فترة طويلة من موالاتهم للفرس. وفي العام ٣٦٠ ق.م. تحالف ستراتون ملك صيدون مع اليونانيِّين، ممّا أثار غضب الفرس، فهاجم أرتحشَشتا الثالث المدينة على رأس جيش جرّار. خاف ملك صيدون وخرج للإستسلام مع ٥٠٠ من أعيان المدينة، لكن الفرس غدروا بالجميع وقتلوهم. ولم يجد أهالي المدينة أمامهم سوى الاستسلام للمصير المجهول أو الموت بكرامة. فأضرموا النار في المدينة التي دخلها الفرس بعدما تحوّلت إلى رماد. وسبي من تبقّى من أهلها على قيد الحياة إلى بابل. وانتهت بذلك زعامة صيدون على المدن الفينيقية.

اليونان

إستمرّت سيطرة الفرس على فينيقيا حتى هزيمتهم على يد الاسكندر المقدوني في معركة ايسوس سنة ٣٣٣ ق.م. ودخل الاسكندر المدن الفينيقية التي فتحت أبوابها أمامه، باستثناء مدينة صور البحرية التي رفضت الاستسلام. فحاصرها الاسكندر على مدى سبعة أشهر، وشرع بردم البحر لبناء جسر يصل إلى الجزيرة غير آبه للخسائر التي كان يمنى بها جيشه أثناء العملية التي استخدم فيها حجارة المنازل التي هدمها في صور البرّية. واقتطع الأخشاب من الغابات المحيطة.

وتصدّى الصوريون بشراسة للحصار وبناء الجسر، فكانوا يرشقون العمّال بالنبال والحجارة، وأرسلوا الغوّاصين لعرقلة أعمال البناء، ثمّ صمّموا مراكب نار صغيرة محمّلة بالزفت والكبريت وراحوا يقذفونها على العمّال وأدوات البناء الخشبيّة.

لكن، وبعد أن فقدت صور كلّ أمل في مساعدة المدن الفينيقية الأخرى التي وضعت أسطولها في تصرّف الفاتح المقدوني، استسلمت في أواسط تموز ٣٣٢ ق.م. ليصبح الاسكندر أوّل غازٍ يهزم هذه المدينة في تاريخها. وخسرت صور نحو ثمانية آلاف رجل سقطوا في المعركة، في حين صلب المهاجمون ألفي رجل على الشاطىء المقابل، وباعوا ٣٠ ألف نسمة في سوق النخاسة. ودخل الاسكندر المدينة وقدّم الذبائح للإله ملكارت في هيكله.

وبعد موت الاسكندر المبكر، انقسمت أمبراطوريته الواسعة بين قوّاده، فكانت فينيقيا من نصيب سلوقس الأوّل. ثمّ انتقلت إلى سلطة أنتيغونوس حاكم آسيا الصغرى. وراحت السيطرة عليها تنتقل من حاكم إلى آخر، ووقعت بين ناري قوّتين متحاربتين: البطالسة في الجنوب والسلوقيّين في الشمال.

ساعد هذا الوضع بعض المدن الفينيقية التي تمتّعت ببعض الاستقلال الذاتي، كمدينة صيدا التي تزعّمت المدن الأخرى وراحت تصكّ نقوداً باسمها. وبرز من ملوكها خلال تلك المرحلة تبنيت وأشمنعزر الثاني.

وعرفت المدن الفينيقية ازدهاراً تجارياً مهمّاً، حيث كانت السلع المختلفة تخزّن فيها، ثمّ تصدّر إلى مختلف أنحاء العالم اليوناني. وكانت القوافل التجارية تنطلق من المدن الفينيقية في اتجاه الشمال والشرق، نحو اللاذقية وحمص، أو في اتجاه الجنوب، نحو فلسطين ومصر.

وقلّد الفينيقيّون النمط الإغريقي في العمران، فبنوا عليه المسارح والملاعب والحمّامات العامة. كما تعاطوا اللغة اليونانية إلى جانب الآرامية.

الرومان

في إطار توسّعهم العسكري، سيطر الرومان على الحوض الشرقي للمتوسّط بكامله، ودخلت جيوشهم لبنان سنة ٦٤ ق.م. بقيادة بومبيوس، وأصبح لبنان ضمن ما يسمّى بالإقليم السوري، بالإضافة إلى سوريا وفلسطين.

وبسبب الاهتمام الذي أبداه الرومان تجاه الإقليم السوري، وخصوصاً الجزء الساحلي منه، لم يعاملوا لبنان كما لو كان بلداً محتلاً، وإنّما منحوه امتيازات خاصة تمتّعت بها المدن البحرية، مثل طرابلس وبيروت وأرواد وصيدا وصور. ولكن هذه الامتيازات لم تلحظ الشأن السياسي بحيث لم تؤدّ هذه المدن أيّ دور مهمّ في هذا المجال. وفقد ملوك المدن الفينيقية صفتهم الملكية وأصبحوا إمّا ولاة وإمّا قضاة.

وازداد شأن المدن الفينيقية أهميّة في عهد يوليوس قيصر الذي زار المنطقة سنة ٤٧ ق.م. وبعد مقتله بفترة قصيرة، انقسمت الامبراطورية الرومانية إلى قسمين، ونال مارك انطونيو القسم الشرقي منها، فألغى بعض امتيازات المدن، باستثناء مدينتي صيدا وصور. ونتيجة لعلاقته الغرامية مع كليوباترا، ملكة مصر، منحها سهل البقاع والساحل الممتدّ من النهر الكبير حتى حدود مصر، باستثناء صيدا وصور اللتين احتفظتا باستقلالهما.

وفي بداية القرن الثاني ق.م. عمد الأمبراطور سبتيموس سفيروس إلى تقسيم الإقليم السوري إلى ولايتين، سوريا الداخليّة وسوريا الفينيقية. والأخيرة عرفت توسّعاً مهمّاً في مساحتها الجغرافية امتدّ ليشمل مدينتي تدمر وحماه. وجعلت مدينة صور عاصمة لهذه الولاية ومركز مجلسها الاتحادي. ولم تلبث صور أن رفعت إلى مرتبة مستعمرة رومانية، وهذا يعني اعتبار

أهلها رعايا رومان. وحصل على هذه الميزة أيضاً كلّ من صيدا وجبيل. وسبق لأغسطس أن منح الحقوق نفسها لمدينتي بيروت وبعلبك (هليوبوليس).

هذه الحقوق سمحت لأبناء المدن المذكورة بإعفائهم من ضرائب الخراج والجزية والمكوس، وسمحت لهم برفع دعاويهم إلى ديوان الأمبراطور في روما.

وجعل سفيروس من مدينة صور مقرّاً للكتيبة الثالثة في الجيش الروماني وسمّيت المدينة «صور العاصمة مستعمرة سبتيموس سفيروس».

ومع انتقال السلطة في المنطقة إلى الدولة البيزنطية، جرت بعض التعديلات على التقسيم الإداري للولايات والأقاليم، فقام الأمبراطور تيودوسيوس الثاني بفصل فينيقيا الشرقية، أو اللبنانية، عن فينيقيا البحرية، فأصبحت مستقلّة عنها. وكانت فينيقيا اللبنانية تضمّ عدداً من المدن المهمّة، أبرزها بعلبك ودمشق وتدمر، وعاصمتها حمص. أمّا فينيقيا البحرية فكانت عاصمتها صور، وضمّت مدناً مهمّة مثل صيدون وعكا وبيروت وجبيل والبترون وطرابلس وعرقة وأرواد.

بلغ عدد سكّان الإقليم السوري بناء على الإحصاءات التي أمر أغسطس قيصر بإجرائها قبيل ميلاد المسيح، نحو سبعة ملايين نسمة، ممّا يدلّ على أن المنطقة كانت تشهد في تلك الفترة اكتظاظاً سببه الرئيسي الأمن والاستقرار اللذان كانت تنعم المنطقة بهما.

وكان معظم سكّان لبنان يعيشون في المدن الساحلية حيث تتوافر موارد الرزق وسبل العيش، والبعض القليل منهم كان يعيش في الجبال القريبة من الشاطىء وعلى ارتفاع متوسّط بعيداً عن برد الشتاء وصقيعه وثلوجه.

وبسبب ازدياد السكّان في المدن البحريّة، وخصوصاً في الصغيرة منها كصور وأرواد، عمد الناس إلى بناء عمارات ومساكن ذات طبقات متعدّدة لاختصار مساحة البناء أفقياً والاستفادة من العلو وعدد الوحدات السكنية. واعتمد سكّان الحزيرة الصغيرة على مياه الآبار التي تملأها الأمطار لتأمين

حاجتهم من الماء للاستعمالات كافة، وكانوا يحصلون أيضاً على الماء العذب من نبع بحري يقع قرب الجزيرة.

إنعكس «السلم الروماني» إيجاباً على الوضع الاقتصادي في لبنان بشكل عام. والفضل الكبير في ذلك يعود إلى أباطرة كبار حكموا روما في بداية عزّها، وبنيت بإدارتهم وتوجيهاتهم إحدى أكبر الأمبراطوريّات في تاريخ البشرية.

وشهدت فينيقيا حركة اقتصادية مزدهرة، زاد في اندفاعها انصراف المدن الفينيقية عن السياسة والشؤون الأمنية التي تولّى الرومان أمرها. وقد أكّد الفينيقيّون مرّة أخرى فعاليّتهم في المجال الاقتصادي وقدرتهم على التفوّق على جميع منافسيهم في هذا المجال. وأصبحت مدنهم ومرافئهم من أكثر النقاط نشاطاً في كلّ أنحاء الأمبراطوريّة، فازدهرت تجارتهم التي كانت تعتمد على عنصرين: النتاج الزراعي والنتاج الصناعي. فازدهرت زراعة الكرمة والزيتون والقنّب والكتان. كما نشطت صناعة السفن والأسلحة والحلى والأدوية والعقاقير والحرير، وغيرها من الصناعات التي لاقت رواجاً في مختلف أرجاء الأمبراطورية.

وإزاء ازدياد الإنتاج الصناعي وتزايد الاقبال عليه، كان لا بُدّ للفينيقيّين من فتح مكاتب تجارية لهم لتسهيل عمليّات التصدير وصفقات البيع والشراء، لأنّهم كانوا يمارسون أيضاً تجارة الترانزيت وتجارة إعادة التصدير، فيستوردون سلعاً معيّنة من دول معيّنة ثمّ يعيدون بيعها إلى دول أخرى محقّقين أرباحاً مهمّة. كما كانوا يستوردون المواد الخام التي تفتقر إليها بلادهم ويصنعونها ثمّ يبيعونها إلى الخارج. وقد أدار المكاتب التجارية تجّار فينيقيّون، وأكثر المكاتب كان في المدن الأوروبية المهمّة، خصوصاً وأنّ الفينيقيّين ركّزوا تجارتهم على السوق الأوروبية حيث كان الطلب متزايداً على البضاعة الفينيقية، وحيث كان مستوى المعيشة مرتفعاً.

وارتفاع مستوى المعيشة في أوروبا، وفي روما خصوصاً، دفع بالمئات من الفينيقيّين إلى السفر إليها، من ممارسي التجارة والعديد من المهن الأخرى، للعمل فيها بهدف الكسب السريع والوفير. وانتشر هؤلاء في العديد

من المدن الأوروبية التابعة للأمبراطورية. وركّز التجّار سكنهم وعملهم في المرافىء. وأبرز المدن التي استوطنوها بوتيولي (بوتزيولي حالياً) حيث نشأت جالية صوريّة كبيرة غنيّة أغرقت المدينة بالمنتجات الصورية والفينيقية. وقد وجدت في المدينة كتابات للفينيقيّين تعود إلى عهد الأمبراطور تراجان.

كذلك سكنت جالية صوريّة أخرى في روما، وقد عُثِرَ في المدينة على كتابة أُخرى هي عبارة عن كلمات تعبّد للإله هدد الفينيقي. وهذه الكتابات بعضها باللاتينيّة وبعضها الآخر بالإغريقيّة. ووجدت آثار وكتابات أخرى تدل على وجود جاليات فينيقية في نابولي وفي بعض مدن الإغريق والمقدونيّين البحرية والجزر اليونانية التي كانت تشكّل جزءاً من الأمبراطورية.

ولم تكتف الجاليات الفينيقية بالانتشار في الموانىء، بل وسّعت وجودها ليشمل العديد من المدن الداخلية، حيث مارست التجارة البريّة، فحلّت الجاليات في البندقية وتريستا وأكيليا (إيطاليا)، وفي مسّينا (صقليّة)، وفي قرطبة (إسبانيا)، وفي ليون وباريس وبوردو (بلاد الغال أو فرنسا حاليّاً)، وفي توف (لوكسمبورغ)، وفي كولونيا (ألمانيا)، وفي بعض مدن روسيّا الجنوبية.

ونعمت صور بفوائد عديدة نتجت عن «السلم الروماني»، وكانت تحظى بعطف من قبل العديد من الأباطرة، حتى أنّه أطلق عليها اسم «كلاوديا بولس» تيمّناً بالأمبراطور كلاوديوس (٤١ ـ ٥٤ م) الذي كان معجباً بالمدينة وبشعبها. كما استفادت صور تجارياً من الطريق التي شقّها نيرون بين مصر وأنطاكيا، مروراً بصور.

وفي عهد الأمبراطور فسبسيان (٦٩ ـ ٧٩م) أصبحت صور مركزاً لسكّ النقود التي كانت تتداول في كافة المناطق التابعة للإقليم السوري، وكانت النقود الصورية تحمل أحياناً على أحد وجهيها صورة الأمبراطور، وعلى الوجه الآخر صورة للإله ملكارت أو رمزاً له، كما في عهد الأمبراطور تراجان.

أمّا مدينة بيروت فقد ساعدها موقعها على الشاطىء الشرقي للمتوسّط

على لعب دور اقتصادي مهمّ في مختلف العهود التي شهدها لبنان، لا سيّما في العهد الروماني.

فالرومان عرفوا أهميّة هذه المدينة بعد دخولهم إليها، ففتحوا الطرق التي تربطها بمدن أخرى على الساحل وفي الداخل. وجرّوا إليها المياه من الجبال المجاورة، فاكتملت فيها كلّ متطلّبات العيش المعروفة في ذلك الزمان.

وفي المجال الصناعي، اشتهرت بيروت بمنسوجاتها المختلفة المصنوعة من الصوف أو الكتّان أو الحرير، وكانت تُباع في معظم أسواق الأمبراطورية الرومانية، حتى قيل إنّ بيروت أصبحت مركزاً للاتجار بالحرير، وكانت المنسوجات تصبغ باللون الأرجواني وبألوان أخرى، وتُباع بأسعار مرتفعة.

وللانتاج الزراعي دور مهمّ في الصناعة البيروتية، فقد انتشرت فيها المعاصر لعصر الزيتون المقطوف من أراضيها وإنتاج الزيت الفاخر، وكانت كروم العنب فيها تدخل في صناعة النبيذ المميّز Berytia Vina.

وازدهرت بيروت كمركز للنشاط التجاري في المنطقة، فكان التجّار يقصدونها من كلّ أنحاء المنطقة لشراء منتجاتها المتنوّعة وبيعها في الأسواق الخارجية، ونشطت تجارة المعادن، لا سيّما الحديد والنحاس؛ فكانا يستخرجان من أراضي لبنان. وقد أطلق المصريّون القدامى على الحديد تسمية «با ان بَرت»، أي «معدن بيروت». وفي هذا المجال، يقول الرحالة العربي ابن بطوطة الذي أتى لبنان بعد الفتح العربي أنّ مدينة بيروت «هي صغيرة حسنة الأسواق... وتُجلب منها إلى الديار المصرية الفواكه والحديد».

الأوضاع الفكرية في العهد الروماني

عرف لبنان خلال العهد الروماني ازدهاراً ملحوظاً في مختلف المجالات الفكرية. وبرز بين أبنائه عدد لا بأس به من الأشخاص الذين تركوا بصمات لهم واضحة في حقلي العلم والأدب لم يقوَ الزمان على محوها. والوجه الأبرز للنشاط الفكري في البلاد تمثّل بالمؤلفات التي كانت

تصدر، وتتناول العلوم على اختلافها والأدب والفلسفة، وبالمدارس الجديدة التي تمّ إنشاؤها، وكان أبرزها على الإطلاق مدرسة الحقوق في بيروت.

في العلوم

إعتبر المؤرّخ سترابو في ما ذكره عن فينيقيا في العهد الروماني، أنّ أبناء صيدون كانوا «فلاسفة في الفلك والحساب». ولم يقلَّ الصوريّون شأناً عنهم في هذا المجال. ومن الذين برعوا في علم الفلك والجغرافيا مارينوس الصوري.

وحافظ الفينيقيّون في تلك المرحلة على شهرتهم وبراعتهم في هندسة البناء، وكان هيكل بعلبك «المعجزة» الأبرز التي شهدتها فينيقيا خلال تلك المرحلة من تاريخها. وهناك الكثيرون من علماء الآثار والمنقّبون يعتقدون أنّ هندسة الهيكل كانت من ابتكار فينيقي، وأنّ بناءه تمّ بأيدي الفينيقيّين أيضاً.

في الأدب والفلسفة

عرفت المدن الفينيقيّة العديد من الأدباء والشعراء الذين جاءت على ذكر بعضهم القليل مراجع تاريخية عديدة.

ففي الأدب القصصي الميثولوجي، برز اسم فيلو الجبيلي (٦٤ ـ ١٦١ م). وقد عالج في قصصه موضوع خلق العالم وتاريخ الدين الفينيقي الذي استند فيه على أديان العالم القديم، كالديانتين المصرية والبابلية. كما اعتمد في هذا الموضوع أيضاً على كاتب فينيقي سبقه في الزمن هو سنكن ياتون Sanchuniaton. وهذا الكاتب عاش في القرن السادس ق.م. ولا نعلم عنه الشيء الكثير.

وبرز الفينيقيّون في تلك الفترة أيضاً بالخطابة وإلقاء المحاضرات الجوّالة التي كانت تتناول مواضيع فلسفية مختلفة. ومن أبرز الخطباء الفينيقيّين في العهد الروماني رجل صوري يُدعى مكسيموس، وكان يلقي محاضراته التي اتّسمت بالبلاغة التي طغت على المضمون بين روما وأثينا. وهناك أيضاً ليبانوس من أنطاكية، وكان سوريّاً من أصل فينيقي. ومحاضراته كانت تدلّ على تعلّقه الشديد بالحضارة الهلينية.

ومن خطباء صور السفسطائيّين كان هناك أيضاً أدريانوس الذي كان يعلّم البلاغة في كلّ من روما وأثينا.

وفي مجال الفلسفة، ظهر في فينيقيا رجال كبار فاقوا أدباءها وشعراءها وخطباءها في العطاء والأهميّة. وأشهر هؤلاء فرفوريوس الصوري الذي وُلد في صور سنة ٢٣٣ م وتوفّي في روما سنة ٣٠٥. إسمه الأصلي هو ملكوس، لكنه اتّخذ اسمه الآخر، والذي يعني مرتدي الأرجوان، تعبيراً عن محبّته لبلاده ومسقط رأسه صور. أقام في روما واهتمّ بفلسفة أفلوطين وسلك نهجه في بعض ما وضعه من كتب، وجمع مقالات أستاذه في مجموعات سمّاها «التاسوعيّات». ألّف نحو ٧٧ كتاباً تناولت الفلسفة والبلاغة والحساب والموسيقى والهندسة، وهاجم أيضاً المسيحية في بعض كتبه جاعلاً من المسيحيّين أعداء له ومتمسّكاً بوثنيّته.

ومن بين تلاميذ فرفوريوس برز الفيلسوف يمبليخوس (٢٥٠ ـ ٣٢٥ م) الذي ولد في عنجر وأسّس مدرسة للفلسفة في بلدة تقع على ضفاف نهر العاصي. وقد اهتمّ في فلسفته بالنواحي اللاهوتية، واختلف مع معلّمه في بعض النواحي المتعلّقة بقدرة الحيوان على الإدراك.

يُذكر أنّ معظم المفكّرين الفينيقيّين استخدموا في كتاباتهم وخطبهم اللغة اللاتينية، فيما استخدمت قلّة منهم اللغة الآرامية، لغة السيّد المسيح، والتي انتشرت لاحقاً في سوريا ولبنان بعدما اعتنق الفينيقيّون الدين المسيحي.

بيروت أمّ الشرائع

أبدى الرومان اهتماماً خاصاً ببيروت منذ عهد أغسطس قيصر الذي منحها اسم ابنته. وكانوا قد أنشأوا في روما مدرسة تُعْنى بتدريس مادّة الحقوق. وهذه المادّة ازدادت أهميّتها لدى الرومان بعد الفتوحات الكبيرة التي قاموا بها واتّساع رقعة أمبراطوريّتهم إلى مناطق بعيدة عن السلطة المركزيّة في روما. فكان لا بُدّ من سنّ شرائع تتناسب وحكم الشعوب المختلفة التي انضوت تحت جناحي النسر الروماني، من غرب أوروبا حتى الشرق الأدنى.

وكان الرومان قد وضعوا قانوناً مدوّناً على اثنتي عشرة لوحة في عهد الجمهورية، وعاشت الدولة في ظلّه. وبعد توسّع روما والتغيّرات التي طرأت على الوضعين الاجتماعي والسياسي، فرض على الرومان وضع قوانين جديدة لمراعاة الأوضاع الجديدة ولإزالة الظلم الذي لحق بعامة الشعب بسبب القانون القديم، انطلاقاً من المبدأ الذي أطلقه الأمبراطور تراجان والذي يقول: «أن يفلت مذنب أفضل من أن يعاقب بريء». وتمّ تكليف عدد من العلماء في مجال الحقوق جمع القوانين المتعدّدة في قانون موحّد. وأنجح عمل في هذا المجال تمّ في عهد الأمبراطور يوستنيانوس، فعرف القانون الجديد باسمه وأُطلق عليه لاحقاً اسم «القانون الروماني». ولم يخضع هذا القانون لأيّ تعديل إلاّ بعد أن نشأت المسيحيّة وأصبحت دين الدولة الرسمي.

واهتمام الرومان بالقوانين والشرائع أوجب عليهم فتح مدارس لتعليم مادّة الحقوق، فبنيت مدرسة أولى مهمّة في روما، ومدرسة ثانية لا تقلّ أهميّة عنها في بيروت. وهذا ما جعل من المدينة الفينيقية أهمّ مركز ثقافي في شرق الأمبراطورية. ويعتقد أنّ هذه المدرسة بنيت في عهد الأمبراطور سبتيموس سفيروس في بداية القرن الثالث الميلادي.

جمعت مدرسة بيروت عدداً كبيراً من الطلاّب الذين جاؤوا إليها من مختلف المناطق المجاورة، وحتى البعيدة، ليدرسوا الحقوق التي تخوّلهم العمل في دوائر الدولة. ولم تلبث أن توسّعت شيئاً فشيئاً مع ازدياد عدد الطلبة، بعدما كانت غرفة صغيرة بالقرب من كاتدرائية مار جرجس المارونية التي لا تزال قائمة إلى اليوم بالقرب من ساحة الشهداء. ثمّ أصبحت أهمّ مدرسة للحقوق في الأمبراطورية بفضل الرجال الكبار الذين تخرّجوا منها، ففاقت بشهرتها مدارس أثينا والاسكندرية، وحتى روما. وغدت بذلك أبرز مرجع قانوني في الأمبراطورية جمعاء. فلا غرو أن تلقّب بيروت بـ«أم الشرائع ومرضعتها»، وهذا اللقب منحه الأمبراطور يوستنيانوس،

ومن الأساتذة الكبار الذين درسوا في مدرسة بيروت هناك إميليوس وغايوس وبابينيانوس وأولبيانوس وأنطوليوس، وآخرون غيرهم. وبعض

هؤلاء شارك في وضع القوانين الجديدة للدولة في عهد الأمبراطور هادريان. كما وضع معظمهم مؤلّفات مهمّة في مجال الحقوق، لا تزال حتى اليوم تعتبر مراجع في القانون. وأبرز هؤلاء بابينيانوس وأولبيانوس.

❀ ❀ ❀

حافظت مدرسة الحقوق في بيروت على مستوى مرتفع لطلاّبها، بحيث أنّها كانت تفرض على كلّ تلميذ يريد الانضمام إليها، أن يتلقّى دروساً في علم اللغة، وأن يتقن الإغريقيّة واللاتينيّة. وكانت الدروس تُعطى على مدى خمسة أيام، وتكون هناك عطلة أسبوعية يومي السبت والأحد. وقد ضمّت المدرسة طلاّباً كانوا يأتون من مختلف المدن الفينيقية، ومن أنطاكيا وآسيا الصغرى وإيدسا والاسكندرية وغزّة، وغيرها.

وبعد نحو ثلاثة قرون من إنشائها، تحوّلت مدرسة بيروت جامعة كبيرة ضمّت إلى جانب الحقوق، معهداً للآداب وآخر للفلسفة. وقد تخرّج منها عدد مهمّ من التلامذة النوابغ، أمثال الأسقف القديس غريغوريوس العجائبي، والبطريرك القديس غريغوريوس النازيانسي، وزكريّا أسقف ميتيلين، وسفيروس بطريرك أنطاكية اليعقوبي، وغيرهم.

وبلغت مدرسة بيروت منزلة عالية عند القياصرة والمثقفين، وقد منحها أباطرة روما امتيازاً فخريّاً بأن جعلوا منها مدرسة الدولة، وهو مركز لم تبلغه حتى مدرسة روما، وسُمّي أساتذة المدرسة بالأساتذة المسكونيِّين.

وفي العام ٥٥١ تعرّضت بيروت لزلزال عنيف دمّر معظم أنحاء المدينة، بما فيها مدرسة الحقوق. وقتل في المدينة نحو ثلاثين ألف شخص، ومن بقي حيّاً فرّ هارباً إلى مناطق أخرى، كصيدا التي التجأ إليها الناجون من أساتذة المدرسة، وراحوا يعطون دروساً فيها ريثما يُعاد بناء مدينة بيروت. لكن حريقاً هائلاً شبّ في المدينة فقضى على كلّ أمل في إعادة مدرسة الحقوق إلى الحياة مرّة أخرى.

نهاية الأمبراطورية الرومانية

بعد تقسيم الأمبراطورية إلى قسمين، شرقي وغربي، بدأ القسم الغربي بالتدهور الاقتصادي تدريجاً، وسيطر الفقر والعوز على الناس مع استمرار تسليط سيف الضرائب فوق رقابهم.

أمّا القسم الشرقي فقد حافظ على قوّته الاقتصادية والحضارية. وعرفت بيزنطية أوج عزّها في عهد الأمبراطور قسطنطين. ورغم تعرّضها لخطر البرابرة والهون، فإنّها حافظت على استقلالها بفضل مناعة أسوارها.

وخلال النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي، عرفت الأمبراطورية الغربية قدوم موجات من الشعوب الجرمانية التي كانت تدخل الأراضي الرومانية هرباً من الهون. ولم يلبث الجرمان أن هاجموا روما سنة ٤٧٦، وسيطروا عليها بعدما خلعوا آخر أمبراطور روماني رومولوس أوغسطول الذي كان في العاشرة من عمره. وهكذا، زالت الأمبراطورية الرومانية الغربية من الوجود.

وبعد سقوط روما، تعرّضت الدولة البيزنطية لمخاطر عديدة، داخلية وخارجية، كان أبرزها ثورة داخلية واجهت الأمبراطور يوستنيانوس في أواسط القرن السادس، لكنّه قضى عليها.

وفي النصف الأول من القرن السابع، اصطدم البيزنطيّون بالفرس الذين احتلّوا القدس سنة ٦١٤، واستطاع الأمبراطور هيراكليوس بعد حملات عسكرية متتالية طردهم من المدينة المقدّسة واستعاد الصليب المقدّس الذي سلبه الفرس.

وخلال القرن السابع أيضاً، بدأت غزوات العرب فسيطروا على سوريا ومصر بعد انتصارهم على البيزنطيّين في معركة اليرموك. واستمرّت الدولة في حال من الفوضى، وراحت تتعرّض لحملات من العثمانيّين والسلجوقيّين ابتداءً من القرن الحادي عشر، فخسرت آسيا الصغرى.

وسنة ١٤٥٣، وبعدما قويت شوكة العثمانيّين، هاجموا مدينة القسطنطينية بقيادة السلطان محمد الثاني فسقطت في السنة نفسها. وانتهت بسقوطها مرحلة حضارية مهمّة من تاريخ العالم.

الفصل الرابع

المسيحية في لبنان

بعد نحو ستين عاماً على قدوم الرومان إلى الشرق وسيطرتهم على لبنان وسوريا وفلسطين، كان العالم يستعدّ، من غير معرفة منه، لاستقبال حدث عظيم لم تعرف البشرية مثيلاً له. فحوالي السنة السادسة ق.م. ولد طفل صغير في مذود حقير في بلدة صغيرة تُدعى بيت لحم، وهي من أعمال اليهودية في فلسطين. وبذلك تمّ الحدث الذي طالما انتظره اليهود ووُعدوا به عبر أنبيائهم، وهو مجيء المسيح ليحقّق الخلاص لبني إسرائيل.

وعندما بلغ السيّد المسيح الثلاثين، بدأ بالتبشير برسالته التي تدعو البشر إلى المحبّة وترتكز على غفران الخطايا للوصول إلى الملكوت السماويّ. وراح المسيح يطوف القرى والمناطق واعظاً معلّماً، وجمع حوله اثني عشر تلميذاً كانوا يتبعونه في كلّ تنقّلاته التي شملت معظم أنحاء فلسطين، وتخطّتها شمالاً إلى مدينتي صور وصيدا في جنوب لبنان، حيث دعا المسيح إلى التخلّي عن عبادة الأوثان وإلى الإيمان بإله واحد.

وقد ورد ذكر مجيء السيّد المسيح إلى صيدا وصور في الأناجيل. ففي إنجيل مرقس، الفصل الثالث، جاء خبر الزيارة كما يلي: «فانصرف يسوع إلى البحر يصحبه تلاميذه، وتبعه جمع كبير من الجليل، وجمع كبير من اليهودية، ومن أورشليم وآدوم وعبر الأردن ونواحي صور وصيدا، وقد سمعوا بما يصنع فجاؤوا إليه...».

وكان السيّد المسيح حيثما حلّ يشفي المرضى، من عميان وصمّ وبكم، ويقيم المقعدين والمخلّعين، ويطرد الشياطين ويقيم الموتى من القبور.

وعندما وجد اليهود أنّ رسالة المسيح لا تنطبق مع تطلّعاتهم والدور

السياسي الذي كانوا يرسمونه له؛ وبعدما أعلن أنّه ابن الله وأنّ مجيئه إلى العالم هو لخلاص البشر أجمعين، لا اليهود وحدهم، تآمر عليه الكهنة والفريسيّون اليهود ليهلكوه، بعدما أيقنوا أنّ تعاليمه ستؤدّي بهم إلى خسارة مناصبهم وسلطتهم. وانتهى الأمر إلى ما هو مرسوم للمسيح من قبل مجيئه إلى العالم، فصُلب في عيد الفصح على جبل الجلجلة، وهو في الثالثة والثلاثين. ومات وقُبر، لكنّه قام في اليوم الثالث متغلّباً على الموت، ثمّ صعد إلى السماء بعدما أوصى تلاميذه بأن يذهبوا ويبشّروا العالم كلّه بإنجيل الخلاص.

الميلاد

وفي ذلك الزمان، أمر القيصر أغسطس بإحصاء جميع أهل المعمور. وجرى هذا الإحصاء الأوّل إذ كان كيرينيوس حاكماً في سورية. فذهب جميع الناس ليكتتب كلّ واحد في مدينته. وصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة الناصرة، إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تُدعى بيت لحم، فقد كان من بيت داود وذرّيته، ليكتتب ومريم خطيبته وكانت حاملاً. وبينا هما فيها حان وقت ولادتها، فولدت ابنها البكر، فقمّطته وأضجعته في مذود لأنه لم يكن لهما موضع في الفندق.

إنجيل لوقا ٢: ١ ـ ٧.

عمل رُسل المسيح بوصيّته، فراحوا يبشّرون بتعاليمه وبملكوت السماوات. ويومئذٍ، كان عدد أتباع المسيحية لا يتجاوز المئة والعشرين مؤمناً. وكان كهنة اليهود والرومان يعتقدون أنّ دعوة المسيح قد انتهت مع موته، فيما رفض معظمهم الاقرار بقيامته. إلاّ أنّ المسيحية انتشرت بسرعة لم يكن أحد يتصوّرها، ولا سيّما في لبنان، من صور فصيدا، ثمّ بيروت ومناطق لبنانية أخرى. وأصبحت صور المركز المسيحيّ الأول في لبنان حيث قامت جالية مسيحية من أبناء المدينة، ومن مسيحيّي أورشليم الذين هربوا من إسرائيل إلى المدينة بعد استشهاد إسطفانوس وازدياد وطأة مضايقة اليهود لهم واضطهادهم.

ثمّ خرج يسوع من هناك وذهب إلى نواحي صور وصيدا. وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك البلاد تصيح: «رحماك سيّدي! يا ابن داود إنّ ابنتي يتخبّطها الشيطان تخبّطاً شديداً». فلم يجبها بكلمة، فدنا تلاميذه يتوسّلون إليه فقالوا: «أجب طلبها واصرفها، فإنّها تتبعنا بصياحها». فأجاب: «لم أُرسل إلاّ إلى الخراف الضالّة من آل إسرائيل». ولكنها وصلت إليه فسجدت له وقالت: «أغثني سيّدي!» فأجابها: «لا يحسن أن يؤخذ خبز البنين فيُلقى إلى جراء الكلاب». فقالت: «رحماك سيّدي! حتى جراء الكلاب تأكل من الفتات الذي يتساقط عن موائد أصحابها». فأجابها يسوع: «ما أعظم إيمانك أيّتها المرأة، فليكن لك ما تريدين». فشُفيت ابنتها من ساعتها.

إنجيل متى ١٥: ٢١ ـ ٢٨.

وفي العام ٥٧، زار القديس بولس صور فوجد فيها كنيسة أنشأها سكّان المدينة، وهي تُعتبر من أقدم الكنائس التي تمّ إنشاؤها منذ نشأة المسيحية. وانتقل بولس مع من تبعوه من المؤمنين إلى مرفأ المدينة حيث أُقيمت صلاة جماعية. وقد ورد ذلك في أعمال الرسل من الكتاب المقدّس ـ العهد الجديد ـ كما يلي: «ولمّا قضينا الأيام وخرجنا وسرنا وهم يشيّعوننا بأجمعهم مع النساء والأولاد إلى خارج المدينة، فجثونا على الشاطىء وصلّينا. ثمّ ودّع بعضنا بعضاً وركبنا السفينة، وعادوا هم إلى بيوتهم» (٢١: ٥ ـ ٦).

وفي أواخر القرن الثاني الميلادي، أُنشئت مطرانية في صور بعدما أصبح عدد أفراد الجالية المسيحية فيها كبيراً. وتوسّعت المطرانية حتى أصبحت أربع عشرة أسقفية في الجوار تابعة لها.

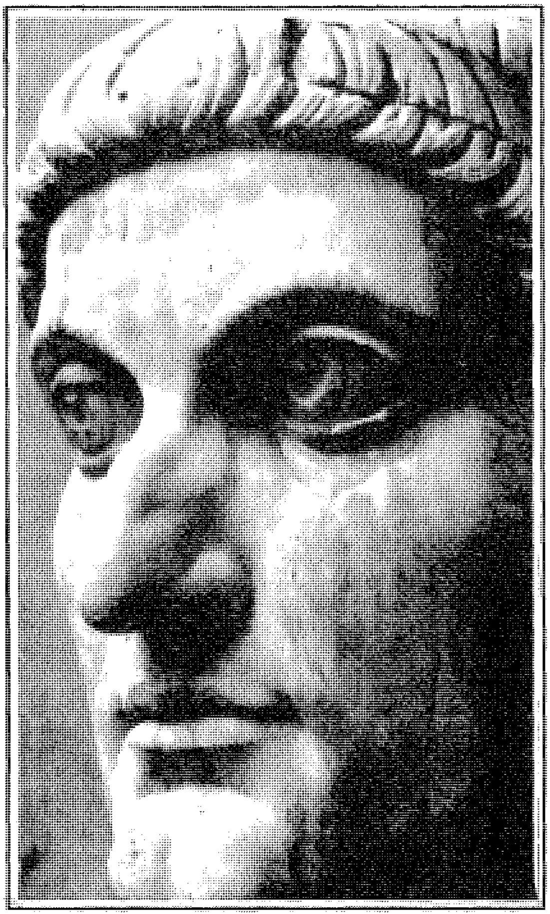
وخلال مرحلة الاضطهاد الذي تعرّض له المسيحيّون في أنحاء الأمبراطورية كلّها، عانت صور بعض ألوان العذاب، وخصوصاً في شخص أحد آباء الكنيسة البارزين أوريغون الذي عُذّب وكُبّلت يداه بالحديد وسُجن. وعندما خفّت وطأة اضطهاد المسيحيّين، أُخلي سبيله. لكن آثار التعذيب الذي قاساه جعلت أيامه المتبقيّة قليلة، فمات شهيداً سنة ٢٥٣، ودُفن في كنيسة صور التي سَلِمَت من براثن الوثنية.

غير أنّ الاضطهاد تجدّد خلال عهد ديوكلتيان، وشهدت الأمبراطورية من جديد مرحلة من أبشع أعمال العنف والإرهاب والتعذيب بحقّ المسيحيِّين. ولم تسلم صور من أعمال العنف بسبب الاختلافات التي شهدتها بين المسيحيِّين فيها وبقيّة أهلها الذين كانوا ما زالوا على دين ملكارت وعشتروت وغيرهما من آلهة الوثنية. ونتج عن هذا الاضطهاد تدمير كنيسة المدينة نحو العام ٣٠٣، وسقوط العديد من أبنائها شهداء، وفي مقدّمتهم أسقف صور تيرانيوس الذي أُلقي في البحر بعد تكبيل يديه ورجليه بالقيود.

وفي العام ٣١٣، خلف الأمبراطور قسطنطين سلفه مكسيميان بعد انتصاره على جميع الذين نافسوه على العرش، وأصدر «براءة ميلانو» التي سمحت بحرّية ممارسة العقائد الدينية، بما فيها المسيحية، فأعادت صور بناء كنيستها على أنقاض الكنيسة المهدومة بإشراف مطران المدينة باولينوس. وكانت هذه الكنيسة الكاتدرائية من أهم وأكبر الكنائس التي تمّ تشييدها في فينيقيا. وهكذا، زال شبح الخوف الذي كان يتهدّد دائماً المسيحيِّين ويمنعهم من ممارسة شعائرهم الدينية في العلن.

وفي العام ٣٣٥، عقد مجمع كنسيّ في صور للنظر في بعض الخلافات. وقد تميّزت جلسات المجمع بالشغب والفوضى، ممّا استدعى تدخّل الجنود الرومان المولجين بالمحافظة على أمن المجمع، وذلك لمنع أعمال العنف بين مؤيّدي العقيدتين المسيحيّتين اللتين انقسم المسيحيّون حولهما. وقد تزعّم الأولى الأسقف آريوس والثانية أسقف الاسكندرية أثناسيوس. وبما أنّ حضور المجمع كانوا في معظمهم من مؤيّدي الأوّل، فقد انتهى المجمع إلى الحكم على الثاني بالهرطقة، فأُبعد عن منصبه وحكم عليه بالنفي. لكنّ هذا الحكم نُقِض لاحقاً واعتُبِر لاغياً لأنّه لا يتماشى مع التعاليم المسيحية الحقّة.

ولأبناء صور المسيحيِّين فضل في نشر الدين المسيحي في مناطق بعيدة كان سكّانها ما يزالون وثنيِّين. ففي العام ٣٣٠، استطاع الراهب الصوري فرومنتيوس إدخال المسيحية إلى بلاد الحبشة التي عيّنه أثناسيوس مطراناً عليها.



الأمبراطور قسطنطين الكبير

صيدا: عرفت صيدا المسيحية منذ عهد المسيح، وقد نشأت فيها جالية كانت صغيرة في البداية، ثمّ بدأت تكبر مع الوقت. وقد زار القديس بولس المدينة، خلال القرن الميلادي الأوّل، في طريق عودته إلى روما، ووجد فيها كنيسة وجالية مسيحية.

ولكن صيدا لم تصبح مركزاً أسقفياً إلاّ منذ بداية القرن الرابع. وقد حضر أسقفها تيودوروس المجمع الكنسي المسكوني الذي عُقد في نيقيا سنة ٣٢٥، وشارك في وضع قانون الإيمان المعروف بـ«الإيمان النيقاوي».

وفي مرحلة لاحقة، بُنِيَت في صيدا كنيسة لطائفة الروم الكاثوليك سُمّيت «سيّدة المنطرة». وفي الاعتقاد الشعبي أنّ المكان الذي أُنشئت عليه الكنيسة هو المكان نفسه الذي انتظرت فيه السيّدة العذراء، أمّ يسوع، ابنها عند قدومه إلى صيدا.

بيروت: لم تتأخّر مدينة بيروت عن اللحاق بجارتيها الجنوبيّتين، صيدا وصور، في اعتناق المسيحية. فتعاليم الرسل التي وصلت إليها كانت أقوى تأثيراً على سكّانها من العنف والارهاب الرومانيّين. وأصبحت مركزاً أسقفيّاً،

كما صيدا، في بداية القرن الرابع. وهذه المدينة زارها أيضاً القديس بولس أثناء أسفاره التبشيرية، كما زارها القديس بطرس. ومن الطبيعي أن يبشّر القدّيسان بالدين المسيحي في المدينة وأن يدعوا أهلها إلى اعتناقه ونبذ عبادة الأوثان. ويذكر بضع المؤرّخين أنّ القديس بطرس أقام على بيروت أسقفاً يُدعى كوارتوس، وقد ورد ذكره في رسالة القديس بولس إلى أهل روما (١٦ : ٢٣).

وبعدما كانت كنيسة بيروت تابعة لمطرانية صور، استقلّت عنها في القرن الخامس وألحقت بها كنائس جبيل والبترون وطرابلس وعرقة وطرسوس.

وتعرّض مسيحيّو بيروت للاضطهاد في زمن الأمبراطورين ديوكلتيان ومكسيميان، واستشهد العديد من أبنائها ومن طلاّب مدرسة الحقوق فيها الذين تخلّوا عن ديانتهم الوثنية واعتنقوا المسيحية. ومن هؤلاء يذكر المؤرّخ أوزيبيوس بامفيلوس الذي أصبح أسقفاً في قيسارية، وأبفيانوس؛ وهما ينتميان إلى عائلتين وثنيّتين ثريّتين، وقد سُجِنا وعُذّبا قبل أن يُقْتلا.

وأدّى الاضطهاد أيضاً إلى تدمير كامل لكنائس بيروت، وإلى حرق الكتب المسيحية وطرد المسيحيِّين من وظائف الدولة والجيش. وكانت وحشيّة مكسيميان وفظائعه تفوق أعمال سلفه. ففي عهده، كان المسيحيّون الذين يرفضون العودة عن إيمانهم يموتون أبشع الميتات: بين أنياب الوحوش المفترسة، على الصليب، حرقاً أو غرقاً، وكانت تُبْتر أعضاء البعض قبل أن يواجهوا الموت.

وسط هذه الاضطهادات، كان سكّان بيروت ينقسمون إلى فئتين: المسيحيّون والوثنيّون. ولم تصبح بيروت مسيحية تماماً إلاّ في أواسط القرن الرابع بعد الزلزال الذي دمّرها سنة ٣٤٩.

وتنصّر بيروت يعود الفضل الكبير فيه إلى أحد شهداء المسيحية القدّيسين، جورجيوس أو مار جرجس. فهذا القديس الذي استشهد خلال الاضطهاد الكبير سنة ٣٠٣، تُحاك حوله رواية، أو أسطورة، غير ثابتة تاريخيّاً. وجاء في الرواية أنّ جورجيوس قتل التنّين في خليج بيروت المُسمّى

ويروي المؤرّخ أوزيبيوس بعض ما كان يُقام في هيكل أفقا من ممارسات وثنيّة مخالفة تماماً لأبسط مبادىء الدين المسيحي:

«لم يكن هذا الهيكل في وسط مدينة بل كان في غابة نائية عن العمران بعيدة عن الطرق التي يسلكها الناس، في مكان اسمه افقا على قمّة من قمم لبنان. وكان مكرّساً لعبادة شيطان رجيم يُعرف بالزهرة (فينوس). كان هذا الهيكل بؤرة فساد وشر يقيم فيه أشرار نذروا نفوسهم للدعارة والبغاء. في هذا المعبد كان الإنسان يفقد كل احترام لقدسية الإنسان وقدسية طبيعته الجنسية، فكان يقدّم جسده ذبيحة على مذبح الدعارة ليستميل رضا الشيطان، هنا كانوا يتجرون بالنساء ويستبيحون كل رذيلة وفساد».

تاريخ لبنان ـ فيليب حتي.

اليوم على اسمه، واستطاع انقاذ ابنة الملك من الموت. وإكراماً له، أقام له الملك كنيسة مهمّة في المدينة. وقد خُلّدت هذه الرواية بالرسم الذي يصوّر القديس على حصانه وهو يطعن التنّين برمحه.

إنّ غير الثابت في هذه الرواية هو أنّ البعض يزعم أنّها حدثت في بيروت، والبعض الآخر في فلسطين، قرب يافا. وآخرون يدّعون أنّها وقعت في مدينة نيقوميديا. كما أنّ دور التنّين في الرواية يثير الاستغراب.

ومن الروايات غير المؤكّدة أيضاً أنّ القديسة بربارة استشهدت في بيروت، وكُرّمت ابتداء من القرن السابع، وقد بُنيت لها كنيسة في بيروت ظلّت قائمة حتى القرن الخامس عشر.

وعندما اعتنق الأمبراطور قسطنطين المسيحية، أمر بهدم هياكل الوثنيّين الذين كانوا ما يزالون يمارسون شعائرهم الدينية فيها، ومن بينها هيكل أفقا في لبنان.

وخلال القرن الرابع بدأت المسيحية تنتشر في كلّ انحاء لبنان. ومع الوقت، سيصبح لبنان ملجأ للمضطهدين من كلّ المناطق المجاورة،

وخصوصاً بعد البدع التي قسّمت المسيحيِّين إلى أقسام مختلفة متنازعة. وعندما سيطر أصحاب مذهب «المونوفيزية»، أو «اليعاقبة»، على السلطة الدينية في سوريا الشمالية، بتأييد من السلطات المدنية، راحوا يضطهدون من يخالفونهم مذهبهم من المسيحيِّين. ومن بينهم القديس مارون ورهبانه الذين كانوا مستقرّين بالقرب من نهر العاصي. ولقد لجأ هؤلاء إلى المناطق الجبلية الشمالية في لبنان حيث استقرّوا. ومع الزمن، كبرت طائفتهم ولعبت، وما تزال، دوراً مصيرياً بارزاً في تاريخ لبنان.

الفصل الخامس

الحضارة الفينيقية

الأبجدية والأدب

قد لا يكون الفينيقيّون أوّل شعب استعمل نظاماً كتابيّاً للتعبير عن أفكاره وللتعاطي في شؤون حياتية واجتماعية وثقافية وتجارية مختلفة. إلاّ أنّهم بالفعل أوّل من استعمل حروفاً هجائية في الكتابة بالمعنى الحقيقي للكلمة. وقبل ذلك، كانوا يعتمدون الكتابة المسمارية.

ويشير المؤرّخ اليوناني هيرودوتس إلى أنّ فضل اختراع الأبجدية الفينيقية يعود إلى الصوري قدموس الذي نشر اختراعه في المدن التي حلّ فيها أثناء أسفاره في بلاد اليونان بحثاً عن شقيقته المفقودة أوروبا. وأبجدية قدموس كانت تقتصر على ثمانية عشر حرفاً، وقد زاد عليها أربعة أحرف الإغريقي بالاميدوس لتصبح اثنين وعشرين حرفاً.

وهذا الاختراع الذي يُعْتبر من أهم إنجازات الحضارة الفينيقية قد يكون ارتكز على كتابات الشعوب الأخرى التي سبقته (وخصوصاً الكتابة الهيروغليفية بعد تطويرها على أيدي المصريِّين)، إلاّ أنّه خرج نهائيّاً من دائرة التعبير بالرسوم والأشكال، ليصبح تعبيراً عن عدد النبرات الصوتية التي ينطق بها الناس.

والحرف الأوّل في الأبجديّة هو «ألف» ويعني الثور بالفينيقيّة. وصورة رأس الثور تدلّ على هذا الحرف. والحرف الثاني «ب» يرمز إلى البيت، ويليه الحرف «ج» وهو يرمز إلى الجمل، والحرف «ميم» يرمز إلى الماء باللغة الفينيقية.

ويشير بعض المؤرّخين إلى أنّ ترتيب الأحرف الأبجدية وضعه عمّال فينيقيّون كانوا يعملون في صحراء سيناء مع المصريِّين. وقد تبنّاه الفينيقيّون وزادوا عليه بعض الأحرف ليصبح عددها ٢٢ حرفاً.

وينسب البعض الآخر من المؤرّخين الأبجدية إلى الجبيليّين الذين كانوا يكتبون بخط أُفقي من اليمين إلى اليسار. وكانوا يحفرون كتاباتهم على ألواح من الآجر والطين ثمّ تُشوى في النار لكي تصبح صلبة.

ساهمت الأبجدية الفينيقية في فتح آفاق جديدة أمام أصحابها. فعلى الصعيد الداخلي، تطوّرت الكتابة وأصبح التعليم واكتساب الثقافة أكثر سهولة، فزالت شيئاً فشيئاً الامتيازات التي كان يحظى بها الكتبة لأنّ التعلّم أصبح في متناول الجميع. وفي مجال التجارة، أصبحت المعاملات أقلّ تعقيداً. وبعدما علّم الفينيقيّون أبجديّتهم للشعوب المجاورة، صار في الامكان قيام تبادل فكري وثقافي أكبر أهميّة وفعاليّة.

لكن خضوع فينيقيا للاحتلالات المتعاقبة، قلّص من انتشار أبجديّتها لحساب الإغريق والرومان من بعدهم. ولم تلبث هذه الأبجدية أن تعرّضت لتعديلات متلاحقة من قبل عدد من الشعوب التي تعاقبت على السيطرة على بلاد الفينيقيّين، ففقدت هويّتها الأساسية.

لم يكتف الفينيقيّون باختراع الأبجديّة، فبرعوا باستعمالها في حقل الأدب، شعراً ونثراً، إلاّ أنّ الزمان محا معظم آثارهم في هذا المجال، ولم يصلنا منها سوى بعض الملاحم والأساطير المشوّهة التي تمّ اكتشافها في مدينة رأس شمرا (أوغاريت)، وهي ذات ارتباط وثيق بالمعتقدات الدينية والصراع بين الآلهة الفينيقية. وأبرزها «ملحمة البعل وعناة». ومن أبرز الأساطير «أدونيس وعشتروت» و«عربا (أوروبا) وقدموس» و«أسطورة الأرجوان» وغيرها. وترك الفينيقيّون أيضاً آثاراً نثرية تناولت أبحاثاً علمية مختلفة.

أسطورة كارت ملك صيدون

في أسطورة كارت ملك صيدون حكاية ملك عادل أصاب بلاده وباء فقضى على الكثيرين من أهلها، ومات أخوته جميعاً وهربت زوجته، وكان من دون وريث لعرشه واسمه، ولكثرة تضرّعه إلى الآلهة أشفق عليه إيل، وأمره بأنْ يجهّز جيشاً كبيراً لغزو مدينة أدوم. وهناك سيجد له عروساً تُدعى حوريّة، وهي ابنة الملك فابل وجمالها يضاهي جمال عناة وعشتروت.

وقبل البدء بحملته العسكرية، زار كارت معبد أشيرة ونذر لها هدية من الذهب والفضة إذا ما حصل على حوريّة زوجة له. وضرب حصاراً على أدوم، وعندما عرض عليه الملك فابل الصلح، أصرّ على أن تكون حوريّة له. ورغم معارضة شعب فابل، تمّ زفاف كارت وحوريّة. وخلال سنوات، رزقا بعدد من الأطفال. لكن كارت نسي نذره للإلهة أشيرة فقرّرت الانتقام منه. فمرض ملك صيدون، ثمّ شفي بعد فترة من الزمن لأنّ الإله إيل أشفق عليه. وعندما عاد لمزاولة عمله كملك، دخل عليه ابنه «يَصَبْ» وطالبه بالتخلّي عن الحكم بسبب مرضه. فغضب كارت وراح يلعن ابنه. . .

عند هذا الحدّ، تتوقّف الأسطورة لأنّه لم يُعثر على الألواح المكمّلة لها.



إحدى آلهات أوغاريت

الديانة

عبد الفينيقيّون عدداً من الآلهة، كان كلّ منها شفيعاً لشأن من شؤون الحياة المختلفة.

وهناك تسميتان أساسيّتان للآلهة عند الفينيقيّين، الأولى «بَعَاليم» ومفردها بعل، والثانية «ألونيم» ومفردها إيل. وقد يُسمّى الإله أيضاً «ملك» مثل ملكارت، إله مدينة صور، أو «أدون» ومعناها السيّد، كالإله أدونيس.

وبما أنّ المُدن الفينيقية كانت متعدّدة ومنفصلة عن بعضها سياسيّاً، فقد كانت لكلّ مدينة آلهتها الخاصة بها. وفي الوقت نفسه، كان هناك إلٰهان رئيسيّان عمّت عبادتهما المدن الفينيقية كلّها هما إله السماء، وكان بمنزلة الأب، وإلٰهة الأرض، وهي الإلهة الأم. وأحياناً، كان هناك إله ابن شاب يرمز إلى النبات الذي ينبت في الأرض الأم. وهذا الإله يموت في كلّ عام ليعود فيبعث حياً في العام الذي يلي. وهذه العقيدة تُرجمت حقيقة رائعة في الديانة المسيحية بموت المسيح وقيامته التي غلبت الموت.

أمّا أهم الآلهة عند الفينيقيّين فهي:

إيل: وكان يرمز بهذا الإسم إلى كبير الآلهة، وكان البعض يدعوه «الإلٰه ـ الآب»، فهو أبو الآلهة التي انحدرت منه جميعها. ويرجّح أنّ مقامه كان في منطقة أفقا. وكان الفينيقيّون يعتبرونه طاعناً في السنّ. أمّا زوجته فكانت تُدعى أشيرا (أثيرا).

بعل: وهو إلٰه الجبال والعواصف والصواعق، ويرتبط اسمه أيضاً بالمطر الذي يمثّل الخير بالنسبة إلى الفينيقيّين، فيما ترمز العواصف إلى الأمور السيّئة. وكانت عبادته منتشرة في كلّ من صور وأرواد وصيدون ومرقد (بيت مري)، وعُرف الإلٰه بعل أيضاً باسم هَدَدْ (أَدَدْ).

عَلِيَّان: هو ابن الإله بعل، وكان شفيع المطر والغلال والينابيع والبحر. وفي أحيان كثيرة كان يُدعى باسم أبيه، لكنه يلي الإله إيل مرتبة ومقاماً وقيادة، على رغم فتوّته.

الداغون: اهتمّ بأمور المياه والمطر وفاقت شهرته شهرة أبيه الإله إيل. لكنّه خسر هذه الشهرة لاحقاً لمصلحة أخوته.

مَوْتْ: هو شقيق عليّان، وكان في البداية يهتمّ بأمور الحصاد والأرض، ثمّ أصبح عدوّاً لشقيقه وصار يمثّل إله الجحيم. ولم يكن له من لقاء مع شقيقه لأنّه عندما يكون الثاني على وجه الأرض يكون الأوّل تحتها، أو في الجحيم، والتنافس بينهما يمثّل تعاقب فصول السنة وتغيّر أحوال الطبيعة بين فصل وآخر.

أدون (أدونيس): وهو إله شاب يمثّل الخصب وتجدّد الطبيعة في فصل الربيع. تركّزت عبادته في مدينة جبيل وفي أفقا. إسمه يعني «السيّد»، وكان يُسمّى أيضاً تموز. كان الجبيليّون يقيمون له احتفالاً سنويّاً يبدأ بموته وينتهي بعد أيّام بقيامته. وقد استمرّت عبادته مع زوجته عشتروت حتى مجيء الرومان.

عشتروت: زوجة أدونيس وإلهة الحبّ والجمال والخصب. وهي أشهر وأهمّ إلهة عبدها الفينيقيّون، وعبدتها شعوب أخرى تحت أسماء مختلفة. ففي قرطاجة عُبَدت تحت اسم «تانيت»، وفي بلاد ما بين النهرين سُمّيت عشتار، وسمّاها الإغريق «أَسْتَرَات». وكان الفينيقيّون يحتفلون بعيدها خلال شهر أيلول الذي كرّسوه لها كلّ عام. وفي المعابد العديدة التي بُنيت لها، كان يتمّ ما يُسمّى «البغاء المقدّس» حيث كان عدد من الفتيات العذارى يبذلن عذريّتهن لهذه الإلهة كتعبير عن الإبقاء على الحياة وديمومة النسل.

الطقوس الدينية والأعياد: كانت الاحتفالات الدينية تُقام في المعابد المختلفة برئاسة رئيس الكهنة. وفي بعض المرّات، كان الفينيقيّون يقدّمون إلى الآلهة ذبائح بشريّة من الأطفال. وهذه عادة كانت منتشرة لدى الشعوب السامية، كالأموريّين مثلاً. وكان إحراق الأطفال الرضّع يتمّ إذا تعرّضت

المدينة لخطر ما، أو عند تدشين مشروع عمراني كبير.

وكانت تقدمة الضحايا تتمّ على أيدي الأمّهات اللواتي كنّ يسلّمن أطفالهن إلى تمثال مفتوح اليدين يمثّل الإله، وجوفه يتأجّج بالنار، فيتدحرج الطفل إلى جوفه فيما يرتفع صراخ الكهنة والشعب المحتشد لكي يطغى على صراخ الطفل المرسل إلى حتفه، فلا تسمعه والدته. ويرجّح أنّ الفينيقيّين تخلّوا عن هذه العادة خلال القرن السادس ق.م.

وفي قرطاجة، كان يُنتخب شاب كلّ سنة بالقرعة ليُقدّم ذبيحة إلى آلهة المدينة. وفي الحالات الصعبة، كان الوالدان يضحّيان بابنهما الوحيد، وهي أعظم تضحية عند القرطاجيّين.

أمّا الأعياد فكانت تُقام في المعابد وتستمرّ أياماً. والعيد الأهمّ كان ذكرى الإله أدونيس، في أواخر حزيران، ومباشرة بعد الحصاد.

> وصف المؤرّخ والرحّالة السوري لوشيان الاحتفالات بذكرى أدونيس كما يلي:
> «كلّ سنة عند إحياء ذكرى هذه المأساة يقرعون صدورهم وينوحون ويقومون بطقوس سرّية ورموز تعبّدية في جميع القرى والدساكر. وإذا ما فرغوا من البكاء والنواح قدّموا الذبائح لأدونيس على أنه إله قد مات. ثمّ لا يلبثون طويلاً أن يعيدوا ذكرى قيامته من الموت، كما يدّعون، رافعين شبهاً له مطوفين به. ثمّ أنّهم يحلقون شعر رؤوسهم، تماماً كما يفعل المصريون عند موت إلههم أبيس. وإذا رفضت النساء أن يحلقن شعور رؤوسهن، عليهن أن يخضعن لقصاص، وهو الوقوف النهار بكامله إلى جانب الطرقات عارضات أجسادهن لمن يدفع ثمنها».

وفي صور، كان سكّان المدينة يحيون عيد الإله ملكارت. وكان الاحتفال يبدأ باحراق نموذج للإله رمزاً للتقادم والأضاحي التي كانت تقدّم للنار، وللأسطورة التي تقول أنّ ملكارت مات حرقاً بعدما انتهى من بناء صور.

ودرج الصوريّون أيضاً على الاحتفال بعيد الإله اليوناني هرقل، فيلبس

الناس الكتان الأبيض ويحلق الكهنة رؤوسهم ويضرمون ناراً في المعبد، هي بديل لتمثال الإلٰه، وتبقى مشتعلة طيلة أيام الاحتفال.

الحياة بعد الموت: لم يكترث الفينيقيّون في البداية لهذه المسألة، وكانوا ينظرون إلى مسألة الثواب والعقاب على أنّها أمر يتقرّر خلال حياة الإنسان الأرضية، بناء على سلوكه الاجتماعي، وتصرّفاته مع الآخرين، ومقدار التزامه بواجباته الدينية. فمن نال خيرات الدنيا كان يحظى برضى الآلهة، ومن حُرم منها كان يتعرّض لعقابها.

وقد تكون فكرة الحياة الثانية عند الفينيقيّين تعود إلى الفترة التي بدأوا خلالها يتعاطون مع جيرانهم المصريّين والعبرانيّين. فراحوا يهتمّون بقبور موتاهم وبتحنيط أجسادهم. واهتمّوا أيضاً ببناء المقابر التي جعلوها في أماكن عالية وأحاطوها بمظاهر الاحترام، باعتبارها «بيوت الأبديّة»، وحرصوا على حمايتها من عبث اللصوص.

الهياكل

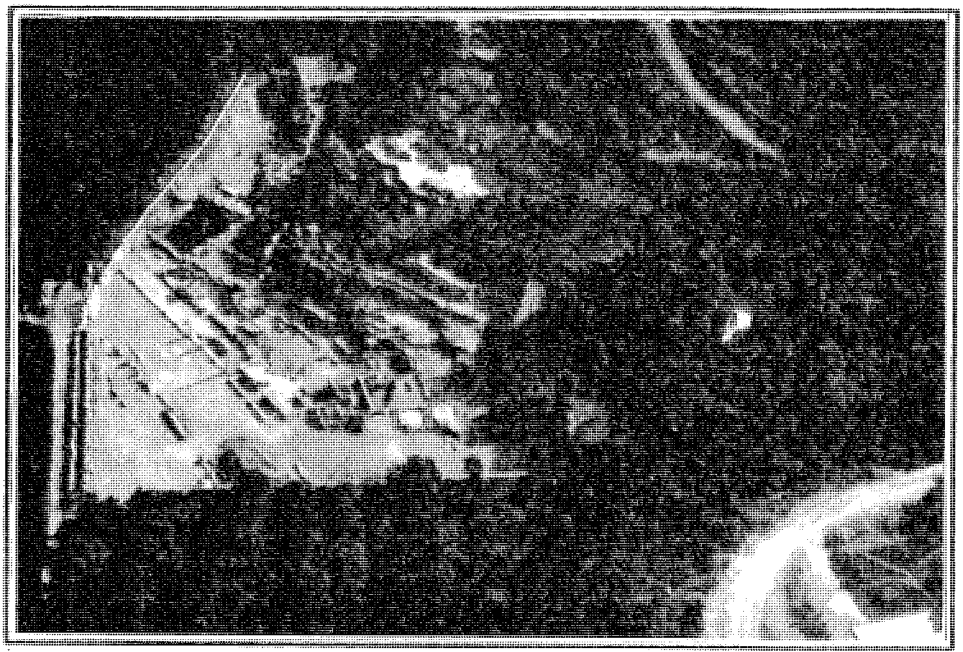
بنى الفينيقيّون هياكلهم في أماكن بعيدة عن المدن، وخصوصاً على المرتفعات وغرسوا حولها الأشجار. وقد اختاروا الأماكن المرتفعة، كالجبال والتلال، لكي تكون مسكناً لائقاً لآلهتهم، ومكاناً يسمح بأداء الصلوات والابتهالات إلى الإله في أجواء خاشعة. فالهيكل يشكّل نقطة اتصال مباشرة بين الناس والآلهة.

وقد عُثر على أقدم الهياكل التي بناها الفينيقيّون في كلّ من أريحا ومجدو، وهي تعود إلى الألف الثالث ق.م. وفي كلّ من أوغاريت (رأس شمرا) وجبيل توجد هياكل أكثر حداثة.

وفي كلّ هيكل كان يُقام مذبح تُقرّب عليه التقادم، وعمود مقدّس يرمز إلى إله الهيكل، وبعض هذه العواميد يشبه المسلّة، ويرتفع عن الأرض بنحو عشرة أقدام. وبالقرب من العمود كان يُقام نصب عمودي من الحجر، أو يُستعاض عنه بشجرة ترمز إلى الخلود. وقد يكون اللبنانيّون في العصور الحديثة قد توارثوا هذه العادة، حيث درجت العادة على أن تكون هناك شجرة صنوبر أو سنديان ضخمة في باحات الكنائس والأديرة.

ووُجدت في بعض الهياكل أوانٍ وكؤوس مزيّنة برسوم، كان الكهنة يستخدمونها للزيت أو للخمر. وتشير الموجودات التي عُثر عليها في الهياكل إلى أنّ الفينيقيّين كانوا يستخدمون البخور في احتفالاتهم الدينية.

وإن كان الفينيقيّون لم يصنعوا الأصنام التي تمثّل آلهتهم، فإنّهم قد صنعوا تماثيل صغيرة من البرونز أو الخشب أو الخزف، تمثّل الإله بعل وهو قابض على الصاعقة بيده. ومثلّث التماثيل أيضاً آلهة أخرى. أمّا الإلهات فقد ظهرن بشكل نساء عاريات، وبعض التماثيل يُظهر الإلهة وقد وضعت يديها على ثدييها دليلاً على دورها في منح الغذاء. وهذه التماثيل كانت تُحفظ في البيوت لكي يتبارك بها العابد ويسعى إلى التقرّب منها وطلب رضاها في كلّ وقت.



معبد أشمون قرب صيدا

وفي غرف معيّنة سفليّة من الهيكل، كان الكهنة يمارسون العرافة ويقدّمون المشورة إلى كلّ سائل في أيّ أمر يجهله، وخصوصاً إذا كان يتعلق بالمستقبل. ولم يكن باستطاعة الناس دخول الهيكل إلاّ بعد غسل الأقدام. فالنظافة الجسديّة شرط للتمكّن من أداء الصلاة.

أمّا الاحتفالات الدينية فكان أبرزها رتبتان: الأولى تقدّم لأنثى الآلهة وتُسمّى «النضح»، حيث ينضح الكهنة أمام آلهتهم الخمر والزيت والحليب. وتُسمّى الرتبة الثانية «التضحية» وتقدّم للإله الذكر. وكانت التضحية تشمل ذبائح مختلفة تتنوّع بحسب مقام الإله. ومن الذبائح الفدّان، العجل، الغزال، الكبش، والخروف. وأحياناً، تقتصر التقدمة على أنواع مختلفة من الحبوب.

وكان الكهنة ينيرون الهيكل بشكل متواصل بشعلة يوقدها كاهن حليق الرأس.

الاقتصاد الفينيقي

الزراعة

ترتكز الزراعة عند الفينيقيّين على أسس ثلاثة: الانتاج الزراعي، الغابات، وصيد الأسماك وتربية الحيوانات الداجنة:

١ ـ **الإنتاج الزراعي**: إنّ الزراعة تشكّل عملاً دائماً للإنسان الفينيقي. ولذلك، فهو يعتمد على قوّته البدنية في زراعة الأرض وحراثتها، قبل استقدام المحراث من بلاد ما بين النهرين وبعده. فطبيعة الأرض الجبلية الوعرة وانتشار الصخور بكثرة يزيدان من صعوبة هذه المهنة. وفي غالب الأحيان، كان الإنتاج ضئيلاً، على رغم أنّ الفينيقيّين لم يتركوا ساحة صالحة للزراعة إلاّ واستغلّوها لكي يحصلوا على أكبر كميّة يمكن أن تنتجها أرضهم. وسهروا على عدم انجراف التربة خلال مواسم الأمطار.

إهتمّ الفينيقيّون بزراعة الخضار على أنواعها والحبوب (وخصوصاً القمح) والزيتون والكرمة والفاكهة.

٢ ـ **الغابات**: كان لبنان قبل خمسة آلاف سنة غابة خضراء وكانت تكسو جباله أشجار الأرز والسنديان والشربين والصنوبر وغيرها. أمّا المناطق التي تحيط به فكانت شبه صحراوية. وهذا الأمر دفع بالشعوب المحيطة بلبنان، من قريبة وبعيدة، إلى التطلّع نحو غاباته الغنية بالأخشاب، وخصوصاً ما هو ثمين منها كالأرز. فمنهم من غزا لبنان وقطع من أشجاره ما أراد، ومنهم من جاء لبنان شارياً. فراح الفينيقيّون يقطعون أشجار غاباتهم ليبيعوها ويحقّقوا أرباحاً مهمّة. وكان فراعنة مصر أوّل من اشتروا الأخشاب من مدينة جبيل. كما طلب ملك العبرانيّين سليمان الحكيم الأخشاب من ملك صور أحيرام لبناء الهيكل في أورشليم.

أمّا شعوب بلاد ما بين النهرين وفارس فقد قطعت الأخشاب من غابات لبنان بعدما سيطرت عليه وبنت قصورها الفخمة.

وإلى جانب إفادة الفينيقيّين من بيع الأخشاب، كانوا يستخدمونها في بناء سفنهم ومراكبهم التي مخروا بها البحر ووصلوا إلى شواطىء بعيدة جدّاً عن شواطئهم.

٣ ـ تربية الدواجن وصيد الأسماك: إهتمّ الفينيقيّون بتربية الحيوانات الداجنة للاستفادة من حليبها وجلدها ولحمها وقرونها، واستخدموا الثيران والحمير في حراثة الأرض. وكانوا صيادي أسماك بارعين، خصوصاً أنّهم يعيشون على شاطىء البحر الذي يؤمّن لهم مصدر رزق مهمّاً.

الصناعة

برع الفينيقيّون في صناعاتهم المختلفة، ولا سيّما الصوريّين، حتى قال فيهم المؤرّخ البريطاني رولنسن G. Rawlinson إنّهم تفوّقوا على شعوب العالم أجمع في ما ابتكرته عقولهم وصنعته أيديهم، وأثبتوا أنّ الشهرة لا تؤخذ بالسيف فقط، ولكن بالتفوّق في الصناعة والتجارة أيضاً.

ولم يكتف الفينيقيّون بالابتكار، بل كانوا يتكيّفون مع ما تصنعه أيدي جيرانهم فيقتبسونه ويطوّرونه. ومكانة الصنّاع الفينيقيّين جعلتهم يتبوأون مركزاً وسطاً في المجتمع الفينيقي، وكانوا يرثون مهنة آبائهم وينضوون في نقابات تنظّم أعمالهم وتحفظ حقوقهم.

الصباغ الأرجواني

في زمن الفينيقيّين، كانت تنتشر على طول الشاطىء الممتدّ من أواسط فلسطين جنوباً حتى بعض سواحل اليونان في أوروبا كمّيات كبيرة من أصداف «الموركس». وهذه الأصداف تحوي حيوانات صغيرة تفرز سائلاً أصفر اللون يستحيل إلى بنفسجي بعد تعرّضه لأشعّة الشمس.

أمّا الفترة التي اكتشف فيها هذا الصباغ فهي غير واضحة تماماً،

والبعض يزعم أنّ وسيلة اكتشافه تمّت استناداً إلى أسطورة الأرجوان التي ورد ذكرها في مكان سابق من هذا الكتاب.

راج استخدام سائل الموركس في صباغ الأقمشة في كل من صور وبيروت. ولعلّ الأولى تفوّقت على جارتها في هذه الصناعة.

وكانت صناعة الصباغ الأرجواني تتمّ في مصانع خاصة خارج المدن الثلاث وبعيداً عن النطاق السكني، لأنّ الرائحة التي كانت تنبعث من الأصداف كانت كريهة. وقد أقام الفينيقيّون ستاراً كثيفاً من الكتمان على الطريقة التي كانوا يعدّون فيها الصباغ، وجعلوا الأمر سرّاً، لكي يتخلّصوا من المنافسة التي كان بعض المدن في اليونان يمارسها في مجال صباغ الأقمشة. ولقد تمكّنوا من ذلك وتفوّقوا بوضوح على منافسيهم الإغريق. فلقد استخدموا حوامض خاصة ساعدتهم في تحضير ألوان أرجوانية مختلفة وفي تنويع إنتاجهم.

إستخدم الفينيقيّون الصباغ الأرجواني في صباغ الأقمشة الفاخرة، كالحرير الصيني، وكانت تُباع بأثمان مرتفعة. لذلك، كان ارتداء الأرجوان وقفاً على الملك وكبار الكهنة والأشراف والأغنياء. وكان مجرّد ارتدائه يعبّر عن المكانة الرفيعة لصاحبه. واقترن اسمه بالكبار حتى صار يُسمّى لباس الملوك.

نقل الفينيقيّون إنجازهم هذا إلى مستعمراتهم كافة وباعوا الأرجوان من الشعوب الأخرى بأثمان باهظة لا يقوى عليها إلاّ أصحاب الثروات الطائلة.

> في الحفريّات الأخيرة التي جرت في وسط مدينة بيروت، عُثر في الجهّة الجنوبية - الشرقية من أوتيل الهيلتون على مصنع للصباغ الأرجواني وكمّيات هائلة من صدف الموركس. كما وجدت مجموعة أحواض صغيرة للصباغ، إضافة إلى بئر عميق لإتلاف بقايا الموركس ذات الرائحة الكريهة.

الزجاج

من المرجّح، على رغم التناقض بين المؤرّخين، أنّ الفينيقيّين ليسوا مخترعي الزجاج، وإنّما اقتبسوا صناعته عن المصريّين الذين تشتهر شواطئهم بنوعية رمالها الممتازة. لكنّ شهرة الفينيقيّين في هذا المجال هي في أنّهم جعلوه شفافاً بعدما كان صفيقاً، وأخرجوه بألوان عديدة. وبرعوا في صناعته حتى أصبح بين أيديهم فنّاً قائماً بذاته، تبرع مخيّلتهم في ترجمته أشكالاً فنّية مختلفة، يجمع ما بينها الذوق والإحساس المرهف والموهبة الخلاّقة. وساعدهم في تطوير هذه الصناعة نقاوة الرمل الذي فرشه البحر على طول الشاطىء الفينيقي.

أبرز من تفنّن في صنع الزجاج كانوا أبناء صيدون وصور الذين لوّنوا الزجاج بالأحمر والأزرق والأصفر، وغيرها من الألوان التي أكسبت مصنوعاتهم مزيداً من الرونق والجمال.

في البداية، صنعت الأيدي الفينيقية القناني والكؤوس والقوارير الصغيرة، وألواح الزجاج الملوّنة وغير الملوّنة والتي كانت تستخدم في نوافذ المنازل وفي تزيين المعابد والكنائس بعد نشأة المسيحية.

ثمّ صنعوا الأواني المختلفة، أحجاماً وأشكالاً وزخرفة. كما صنعوا الأباريق والمرايا. وممّا يؤكّد براعتهم أنّهم بلغوا حدّ تطعيم الحلى، من خواتم وعقود وأساور وغيرها، بحجارة زجاجية ملوّنة أو بيضاء تشبه بعض الأحجار الكريمة وتحلّ محلّها. وكانوا يحفرونها لتتّخذ الشكل المطلوب. وبعض ما صنعته الأيدي الفينيقية، وخصوصاً الصورية، من التحف الزجاجية ما يزال محفوظاً في بعض متاحف فرنسا وإيطاليا، وهو يؤكّد على المستوى الرفيع الذي عرفته الصناعة الفينيقية في هذا المجال.

الخزف

عرف الفينيقيّون صناعة الخزف كغيرهم من شعوب العالم القديم، ولكنّهم كانوا أكثر براعة من سواهم. وقد بلغت هذه الصناعة أوجها في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد. فهم كانوا تجاراً، وتجارة الخزف تعود

بأرباح وفيرة. لذلك، لم يهتمّوا كثيراً بالعنصر الفنّي في إنتاج الخزف، بل حرصوا على إنتاج كمّيات كبيرة بأسعار شعبية لكي يغزوا الأسواق ويتخلّصوا من المنافسة التي كانوا يتعرّضون لها في هذا المجال.

وكان للدولاب فضل كبير في تطوّر صناعة الخزف لديهم، فهو قد ساعدهم في تحسين أشكال الأواني والأباريق التي كانوا يصنعونها وجعلها أكثر تناسقاً. وهذا الأمر مكّنهم من التغلّب على الصناعة المماثلة لجيرانهم والمصريّين والقبارصة.

وبعد الآنية المختلفة، صنع الفينيقيّون تماثيل خزفية الأحجام وباعوها في الأسواق. ثمّ صنعوا النواويس التي حفظت بعد مئات من السنين أوانٍ خزفية مختلفة كانت توضع مع الميت في ناووسه.

الصناعة المعدنية

إحتاج الفينيقيّون إلى المعادن في صناعة الأسلحة والأواني المنزلية والنقود والتماثيل وأدوات الزراعة والحلى وغيرها. فعالجوا المعادن التي كانت معروفة في زمنهم، كالنحاس والحديد والقصدير، وصنعوا البرونز عبر مزج النحاس بالقصدير، وعرفوا الفولاذ أيضاً. واستوردوا النحاس والقصدير من آسيا وأوروبا.

أمّا المعادن الثمينة، كالذهب والفضة، والتي لا وجود لها في أرضهم، فقد استقدموها عن طريق المقايضة مع الشعوب التي كانوا يتعاطون معها في التجارة.

ومن الآثار التي تركها الفينيقيّون في هذا المجال آنية نحاسية وبرونزية مختلفة وبعض الحلى والنقود الفضية. وهي تدلّ على المهارة التي تمتّع بها الفينيقيّون في صناعة المعادن.

السفن

تطلّع الفينيقيّون دائماً ناحية البحر باعتباره طريق الاتصال الأفضل مع الشعوب الأخرى، خصوصاً أنّ حدودهم الداخلية الشرقية تقف فيها الجبال

حواجز طبيعية تعوق إلى حدّ ما عملية السفر باتجاه الشرق والتواصل مع الشعوب التي تستوطن المناطق الداخلية من العالم القديم.

وبما أنّ الجبال اللبنانية كانت تكسوها الغابات، فقد وجد الفينيقيّون فيها مصدراً لتأمين الأخشاب لصناعة السفن. وطوّروا صناعتهم مع الوقت حتى تمكّنوا من بناء مراكب كبيرة.

في البداية، اقتصرت السفن على النوع المخصّص للتجارة. ولكن، بعد خضوع المدن الفينيقية لاحتلالات شعوب غازية متعاقبة، راح الفينيقيّون يصنعون المراكب الحربية بناء على طلب المحتلّين، كالفرس والمصريِّين وغيرهم. ولم يتوقّفوا عند هذا الحدّ، بل عمدوا إلى تعليم هذه الصناعة لجيرانهم من الأصدقاء.

كانت السفينة التجارية مرفوعة المقدّمة والمؤخّرة، وفي المقدمة رأس حصان مصنوع من الخشب. وكان طول بعضها يصل إلى عشرين متراً، وهي تتحرّك بواسطة شراع كبير أو أكثر. ويدير السفينة ملاّح موقعه في المقدّمة. ويقوم صفّان من المجذّفين بدفع السفينة إلى الأمام. وكان وسط السفينة عريضاً لكي تتّسع لكميّة أكبر من البضائع. وقد ترك المصريّون رسوماً عديدة تمثّل سفناً فينيقية، ويعود تاريخها إلى أواسط الألف الثاني قبل الميلاد.

أمّا السفينة الحربية فكانت أطول من التجارية ومقدّمتها مصمّمة للتصادم مع سفينة أخرى، وهي تتّسع لنحو ثلاثين رجلاً وحمولة كبيرة.

وكانت السفن الفينيقية تتألّف من طبقات عدّة قد تصل إلى ست. واستطاع الفينيقيّون بناء أسطول بحريّ قويّ غدا محطّ أنظار الشعوب القريبة والبعيدة، حتى أنّ الرومان اقتبسوا عن القرطاجيِّين طريقة بناء سفنهم الحربية، وخصوصاً الشراع. وأصبح الفينيقيّون بذلك أسياد البحر وأمراءه.

❀ ❀ ❀

برع الفينيقيّون في صناعات أخرى مختلفة، فعرفوا الحياكة والغزل. وكان الصوف المادّة الأولى التي استخدموها في صناعة الملابس الشتويّة. وفي مرحلة متأخرة، استوردوا القطن من مصر بعدما كان أهلها قد جلبوه من

الهند التي تُعتبر موطنه الأصلي. وعرفوا الكتّان الذي كان معروفاً في مصر وسوريا.

أمّا الحرير فقد جيء به من الشرق الأقصى، وصنع الفينيقيّون من خيوطه الملبوسات الحريرية التي صبغوها باللون الأرجواني، وباعوها بأسعار مرتفعة إلى الملوك والأمراء مرصّعة بالجواهر والفضّة.

وأجاد الفينيقيّون أيضاً صناعة الأسلحة والمجوهرات والعطور التي كانوا يستخرجونها من زهور بلادهم.

التجارة

مارس الفينيقيّون التجارة وجعلوا منها مورد رزقهم الأوّل، لأنّ موارد الزراعة والصناعة لم تكن كافية لتأمين حاجات الشعب وتثبيت الركائز الاقتصادية لكلّ مدينة. وقد بدأوا تجارتهم مع الشعوب المجاورة والقريبة نسبيّاً من الساحل الفينيقي في مرحلة أولى. وبعدما تمكّنوا من البحر وبرعوا في الملاحة، وسّعوا نطاق تجارتهم لتشمل شعوباً بعيدة في أفريقيا وأوروبا.

وإلى جانب البحر، لم يهمل الفينيقيّون الطرق البريّة، فاتّصلوا مع الشعوب المجاورة شمالاً وجنوباً وشرقاً وأقاموا معها علاقات تجارية نشطة.

التجارة البحريّة

إعتمد الفينيقيّون على التجارة البحريّة لأنّ البحر الواسع كان يفتح أمامهم الأبواب للوصول إلى بلاد عديدة وبعيدة وتبادل السلع المختلفة مع شعوبها، ولأنّ مجال التجارة البرّية كان ضيّقاً بالمقارنة مع البحر.

والتجارة الفينيقية كانت تعتمد على إنشاء الجاليات والمخازن على أراضي الدول والجزر التي تعاطوا معها التجارة لتموين الأسواق بالسلع التي قد تنفد بسبب الإقبال عليها، ولتلافي تعرّضها للمنافسة من البضائع الإغريقية. وقد تركّز اهتمام الفينيقيّين على أسواق طرسوس وكيليكيا في آسيا الصغرى، وعلى جزيرة قبرص المجاورة للساحل الفينيقي. ثمّ انطلقوا نحو المناطق القريبة من السيطرة التجارية للإغريق، فغزوا أسواق جزيرتي رودس

وكريت. ووصلت المراكب الفينيقية إلى بعض شواطىء البحر الأسود، لكن أية جاليات لم تستقرّ في تلك المنطقة.

وفي خطّ معاكس، اتجه الفينيقيّون نحو مصر في الجنوب. إلاّ أنّ مجال توسّعهم الضيّق هناك بسبب السيطرة المصرية على الأسواق، جعلهم يكتفون بإنشاء بعض المستودعات في ممفيس والتي وضعت تحت إشراف جالية فينيقية صورية لا بأس بعدد أفرادها. ويجب أن نذكر هنا أنّ التجارة البحرية الفينيقية قامت في البداية على أكتاف الصوريِّين.

وبعد فترة، وسّع الصوريّون نطاق تجارتهم فوصلوا إلى الحوض الغربي للمتوسّط، لا سيّما بعد قيام مدينة قرطاجة، وتركوا المجال للصيدونيّين لكي ينافسوا الإغريق في الحوض الشرقي.

في قرطاجة، انطلق الفينيقيّون نحو جزيرتي مالطة وصقلية، وتوسّعوا على الساحل التونسي. وكانوا، حيث يصلون، ينشئون المرافىء. ثمّ وسّعوا تجارتهم فشملت جزر سردينيا والباليار. وبعدها، انتقلوا إلى إسبانيا وركّزوا جالية لهم في مدينة ترشيش التي كانوا هم مؤسّسيها. ثمّ وصلوا إلى سواحل فرنسا الجنوبية. وبعد رحلتهم التي أوصلتهم إلى الجزر البريطانية وإيرلندا، أقاموا علاقات تجارية مع شعوب هذه المنطقة.

وبعد دورانهم حول أفريقيا أنشأ الفينيقيّون علاقات تجارية مع شعوب عدد من المناطق فيها، حيث يكثر الذهب والمزروعات غير المعروفة على الساحل الفينيقي وفي حوض المتوسّط.

وقبل أن يتواجه القرطاجيّون والرومان في الحروب البونية، كان التجّار الفينيقيّون يبيعون سلعاً مختلفة في عدد من المدن الإيطالية.

التجارة البرّية

قبل تطلّعهم نحو البحر، وجّه الفينيقيّون أنظارهم باتجه الشعوب والدول المحيطة بهم والتي تفصلهم عنها حدود برّية، لأنّ الوصول إليها والتفاعل معها في مختلف المجالات كانا أيسر نسبيّاً من مغامراتهم البحرية

بغضّ النظر عن نجاحها. فاتّصلوا بالعبرانيّين جنوباً وبشعوب بلاد ما بين النهرين شرقاً، وتمكّنوا من الوصول إلى الصين مروراً بالهند. وقد سلكوا نحو هذه الدول طرقات ساحلية وداخلية.

وبما أنّ القوافل البرّية كانت معرّضة دائماً في ذلك الزمان لهجمات اللصوص وقطّاع الطرق، فقد أقام الفينيقيّون علاقات ودّية مع شعوب المناطق التي تعاطوا معها التجارة، واستطاعوا إنشاء محطّات تجارية أقامت فيها جاليات فينيقية. وهذا ما ساعد القوافل على درء خطر الهجمات عليها لدى مرورها في مناطق غير آهلة بالسكّان.

باع الفينيقيّون أخشاب الأرز والسنديان، وكان المصريّون أبرز من اشترى الأخشاب وأدخلوها في أثاث منازلهم وفي زينة هياكلهم. وفي المقابل، أخذوا من المصريّين القطن والكتّان والذهب والنحاس والحجارة الكريمة. كما أرسلوا أخشابهم إلى العبرانيّين الذين بنوا بها هيكل أورشليم.

واستوردوا النحاس من قبرص بالإضافة إلى منتجات زراعية مختلفة كالكرمة والزيتون. وجاؤوا من سوريا بالمواشي واستفادوا من بيع لحومها وجلودها وصوفها. واشتروا الحبوب من فلسطين.

وتعامل الفينيقيّون في أفريقيا مع الحبشة والسودان، بالإضافة إلى مصر. فاستوردوا من الأولى الذهب والعاج والحجارة الكريمة وريش النعام وخشب الأبنوس؛ وجاؤوا بالأبنوس والعاج من السودان أيضاً.

وإلى إسبانيا، حملوا الزيت واستبدلوه بالذهب والفضة والحديد والقصدير والرصاص. واشتروا المعادن والخيول والحجارة الكريمة من أرمينيا وجبال القوقاز، وحملوا الأواني النحاسية إلى بريطانيا وإيرلندا واستبدلوها بالقصدير.

ووصل الفينيقيّون في تجارتهم إلى الهند التي حملوا منها سلعاً ثمينة كالحرير. ولم يوفّروا منافسيهم في مجال التجارة، أي الإغريق، فوصلوا بتجارتهم إلى بلادهم حيث باعوا واشتروا سلعاً مختلفة. وقد اقتبس الإغريق أسماء سلع عديدة عن الفينيقيّين.

وكان الفينيقيّون كغيرهم من الشعوب يتعاملون بمبدأ المقايضة، فيحصلون مثلاً على المواد الغذائية والمعادن وغيرها في مقابل الأخشاب والقماش الأرجواني وغيرها. ثمّ اعتمدوا النقود بعد اختراعها ورواجها ممّا سهّل عليهم ممارسة مهنتهم التي برعوا فيها حتى عمّ الازدهار مختلف المدن الفينيقية ونعم أهاليها بالبحبوحة والغنى. ومع الغنى، ازدادت سفنهم وتوسّعت أساطيلهم، وخصوصاً الأسطول الصوري، ممّا جعل من صور زعيمة المدن الفينيقية، و«مليكة البحار وتاجرة الأمم».

هكذا غزت فينيقيا العالم تجاريّاً وحضاريّاً، إذ لم يكتف الفينيقيّون بالتبادل التجاري مع الشعوب، بل تجاوزوا ذلك إلى التفاعل الحضاري معها وجعلوا منه أساساً مهمّاً في تقدّم المجتمعات والشعوب القديمة اقتصاديّاً وإنسانيّاً وحضاريّاً.

الفنون

فن العمارة

إقتصر فنّ العمارة عند الفينيقيّين على الهياكل والمقابر، دون غيرها من الأبنية السكنية. وبسبب تعرّض المدن الفينيقية على مرّ الأزمنة للدمار بفعل الزلازل أو المحتلّين، فإنّ ما وصلنا من الآثار العمرانية الفينيقية هو من الهياكل التي كانت تُقام خارج المدن على أماكن مرتفعة وبعيدة عن الأحياء السكنية، بالإضافة إلى ما تمّ اكتشافه في بعض المدن الساحلية كصور، وما تمّ اكتشافه حديثاً تحت أنقاض مدينة بيروت.

تميّزت الهياكل الفينيقية بضخامتها، ممّا فرض بناءها على أساسات صلبة في الصخر. واستخدمت الحجارة ذات الأحجام الكبيرة بعد صقلها لتسهيل رفعها مداميك عالية، بالإضافة إلى أخشاب الغابات وخصوصاً الأرز.

وقبل أن يتأثروا بالتصاميم التي كان المصريّون يعتمدونها، كان الفينيقيّون يركّزون على البساطة، فالهيكل كان عبارة عن غرفة مستطيلة ومنفذها باب واسع، ومرتفع. وأحياناً، كانوا يقيمون طابقاً سفليّاً يضمّ غرفاً مخصّصة للكهنة والمنجّمين.

ولأنّ الهياكل كانت تُقام عادة في أماكن مرتفعة ومطلّة على المدن، فإنّ تجهيزها بأدراج كان أمراً ضروريّاً لتسهيل وصول المتعبّدين للصلاة والمشاركة في الاحتفالات الدينية. ومعبد الإله أشمون خير مثال على ذلك.

وكان الهيكل يُسقف بألواح الخشب، وفي وسطه تُقام بركة تعلو في وسطها صخرة، وعليها يرتفع بيت الإله الذي يشكّل ركناً أساسيّاً من أركان الهيكل الثلاثة، إلى جانب المذبح وعرش الإله. وكان تمثال الإله يوضع في

بيت مخصّص له هو «بيت الإلٰه»، فيما يخصّص المذبح للتقادم والأضاحي، من حيوانية وبشرية. أمّا عرش الإلٰه فكانت تُنقش عليه صورة الإلٰه وأمامه يقف الملك خاشعاً.

ومن النماذج المهمّة على فن العمارة عند الفينيقيّين هيكل الملك سليمان الذي ورد ذكره في العديد من أسفار الكتاب المقدّس ـ العهد القديم ـ، وفيه ذكر لأخشاب الأرز التي كانت تستورد من لبنان لبناء الهيكل، ولدور البنّائين الفينيقيّين في إنجاز هذا العمل الذي غدا موضع إعجاب الجميع ممّن شاهدوه وجالوا في أرجائه.

المقابر

إنّ اعتقاد الفينيقيّين بالحياة الثانية جعلهم يدفنون مع موتاهم لوازم مختلفة، بعضها ثمين، ليتصرّفوا بها في تلك الحياة. وهذا الأمر كان لا بُدّ أن يعرّض المقابر لغزو اللصوص الطامعين بما قد يعثرون عليه من جواهر وأدوات ثمينة مدفونة مع الميت. لذلك، سعى الفينيقيّون إلى حفر القبور بعيداً عن متناول العابثين، فكانوا يدفنون موتاهم في حفر عميقة. إلاّ أنّهم تخلّوا عن الحفر العميق في مرحلة لاحقة.

وقبل وضع الميت في الحفرة، كانت جثته توضع في جرّة فخارية كبيرة الحجم مفتوحة من جهّة واحدة، وتوضع مع الجثة مقتنياته ولوازم مختلفة للحياة الثانية. وبعد ذلك، تُقفل الجرّة وتودع في القبر الحفرة. وأحياناً، كانت الجرّة النعش تستعمل لأكثر من مرّة، فتفرغ من بقايا الميّت لتستقبل جسد ميت آخر.

ولم تقتصر مقابر الفينيقيّين على الحفر، بل اتخذت أشكالاً مختلفة، من أبرزها:

أ ـ أقاموا مقابر على شكل كهوف، وهي ذات فتحة واحدة يُدخل منها الميت إلى القبر حيث يُسجى وحوله مقتنياته المختلفة. ثمّ تُقفل المقبرة بحجر كبير مستدير الشكل. ويبدو أنّ هذا النوع من المقابر كان مستخدماً عند بعض الشعوب المجاورة، وخصوصاً العبرانيّين. وقد وجد بعض القبور من هذا النوع بالقرب من مدينتي صيدا وصور.

ب ـ المقابر المحفورة في الصخور، وهي عبارة عن آبار يبلغ عمقها بضعة أمتار. ويبدأ القبر بدهليز طويل يؤدّي إلى حجرة هي بمثابة القبر، وفيها يوضع جسد الميت على أرض القبر المغطاة بالرمل أو بالحجارة. وأحياناً، قد يكون القبر متعدّد الدهاليز والحجرات، بحيث تخصّص كلّ حجرة لميت واحد. وقد وُجد هذا النوع من المقابر في مدينتي جبيل وصيدا. وبعدما اقتبس الفينيقيّون عادة دفن الميت في ناووس حجري، دُرجت هذه العادة لدى ملوك المدن، ولا سيّما ملوك صيدا.

ج ـ إعتمد سكّان مدينة أوغاريت نوعاً من القبور مميّزاً، هو عبارة عن طبقة محفورة في أسفل المنزل تشبه القبو أحياناً. وكانت توضع بلاطة عند مدخل القبر حيث تُقام الذبائح التي تُقدّم إلى الآلهة. ويمكن الوصول إلى القبر عبر دهليز عند مدخل البيت. وكان أهل البيت يجمعون عظام موتاهم في زاوية من زوايا القبر لكي يكون مؤهلاً لاستيعاب جثّة أيّ فرد من أفراد العائلة بعد أن توافيه المنية.

النحت

برع الفينيقيّون، الذين عبدوا في البداية آلهة مزيّفة، في نحت تماثيل مختلفة الأحجام والأشكال تمثّل آلهتهم المتعدّدة، واستخدموا مختلف المواد المعروفة في ذلك الزمان والتي كانت تشكّل العنصر المادّي للنحت، كالحجارة الكلسيّة والرخام، بالإضافة إلى المعادن كالذهب والفضّة والبرونز. كما اهتمّوا بنحت العاج والطين. وقد حفظت يد الزمان بعض التماثيل الفينيقية الموجودة حاليّاً في متحف بيروت، وإن يكن التشويه قد أصاب بعضها.

واهتمّ الفينيقيّون أيضاً بنحت قواعد الأعمدة في الهياكل والقصور وتزيينها بنقوش دائرية مختلفة. ولا يزال بعض هذه الأعمدة قائماً حتى اليوم بين آثار مدينة صيدا.

وبرعوا أيضاً في النقش والزخرفة، وأهمّ آثارهم في هذا المجال كان زخرفة قصر آحاب العبراني في السامرة. فقد زيّنوه بنقوش رائعة كان العاج

مادّتها الرئيسيّة. وكانوا قد تعلّموا النقش في العاج من جيرانهم المصريّين. وقد دُعي القصر الذي كانت سيّدته أميرة من صور تُدعى إيزابل «بيت العاج». وأثاث القصر الذي عُثر عليه بنتيجة الحفريّات كان أيضاً مطعّماً بالعاج والذهب. ومن أعمالهم في هذا الحقل أيضاً تزيين قصر عبرانيّ آخر وُجد في منطقة مجدّو، ويعود تاريخه إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

وفي مجال آخر، نقش الفينيقيّون النواويس الحجرية أو المصنوعة من معدن أو خشب أو طين، وزيّنوها برسوم تمثّل بعض الحيوانات والطيور وبمقاطع من الكتابة الهيروغليفية. ونقشوا أيضاً أوانٍ مختلفة وطعّموها بالمعادن الثمينة، وصنعوا الأسلحة المزخرفة.

ونحت الفينيقيّون الأنصاب التي جعلوها في معابدهم وهياكلهم، متأثّرين في ذلك بالفن المصري. وأبرز الأنصاب التي لا تزال موجودة حتى اليوم نصب جبيل الذي تبدو فيه الإلهة عشتروت في زيّ الآلهة المصرية تتقبّل التقادم من ملك المدينة يَهْوْ مِلك. وأحياناً، كانت الأنصاب بسيطة وخالية من النقوش لتوفير الوقت والمال.

الموسيقى والرقص

إرتكزت الطقوس الدينية الوثنية عند الفينيقيّين على الغناء والرقص، كالعديد من الشعوب الأخرى التي عاصرتهم. وهذا الأمر دفعهم إلى تعلّم هذين الفنّين وإتقانهما جيّداً حتى ارتفعوا بالموسيقى إلى درجات عالية من الرقيّ، ممّا جعل فنّهم هذا ينتشر في حوض المتوسّط حيث تكاثر الطلب على المغنّين والمغنّيات من أبناء وبنات المدن الفينيقية.

في البداية، أخذوا الكثير من عناصر الموسيقى عن الشعوب التي كانت تستوطن الشرق الأدنى، ثمّ استقلّوا بعملهم واتّخذوا هويّة فنّية خاصة بهم. وبعدما كان الغناء يقتصر على المعابد والاحتفالات الدينية، غدا أمراً شعبيّاً في الاحتفالات الخاصة والأعراس وغيرها.

وقد يعود إليهم الفضل في ابتكار أو تطوير بعض الآلات الموسيقيّة التي ظهرت في عصرهم، كالعود Lute الذي لم تعرفه مصر الفراعنة إلاّ بعد فتوحات طحوتمس الثالث.

ومن الآلات الأخرى التي عرفها الفينيقيّون واستخدموها الناي والدربكة. وبدا تأثيرهم الموسيقيّ على جيرانهم واضحاً في الألحان التي وضعها داود النبي لمزاميره والتي ساهمت في إدخال الموسيقى والغناء إلى الحياة الدينية لدى العبرانيّين. أمّا الإغريق فلم يتورّعوا عن اقتباس العديد من الألحان الفينيقية وإدخالها في تراثهم الموسيقي. كما أنّهم أبقوا على التسميات التي أطلقت على الآلات الموسيقية التي أخذوها عن الفينيقيّين.

أمّا الرقص، وهو رفيق الموسيقى إلى جانب الغناء، فقد استحوذ على اهتمام الفينيقيّين إلى درجة أنّهم جعلوا من بين آلهتهم المتعدّدة إلٰهاً للرقص، وهو «بعل مرقد». وبرعوا في الرقص الذي أصبح عنصراً أساسيّاً في احتفالاتهم الدينية، وخصوصاً العيد السنوي للإلٰه أدونيس حيث كانت الرقصات ترافق الموسيقى والغناء وتتمّ على إيقاعات الآلات الحادّة، كالخناجر والسيوف، التي كان يتنافس بها الراقصون.

وكان عيد قطاف العنب فرصة أخرى تجمع هواة الرقص للتعبير عن الفرح بمواسم الخير التي تعطيها الأرض والأيدي التي تزرع بالمحبّة والعطاء أحشاءها.

وتؤكّد المراجع التاريخية أنّ رقصة الدبكة اللبنانية المعروفة اليوم تعود في الزمن إلى أيّام الفينيقيّين، وقواعدها الأساسيّة التي وضعوها لا تزال معتمدة كما كانت تقريباً. وهي تُقسم إلى ثلاث مراحل:

ـ المرحلة الأولى، وفيها الرقص المنفرد، وهي تشكّل بداية الرقصة.

ـ المرحلة الثانية، وهي تمثّل الدبكة الحقيقية حيث ينقسم الشبّان والشابات في حلقات راقصة منفصلة.

ـ المرحلة الثالثة، وقد تمّ التخلّي عنها في مرحلة لاحقة، فهي للراقصات المحترفات اللواتي يقمن بالرقص في احتفالات غير دينية. ويتّسم رقصهنّ بالخلاعة والإباحية.

وفي الكتاب المقدس ـ العهد القديم ـ ورد في سفر صموئيل الثاني كيف أنّ داود النبي رقص أمام تابوت العهد مقتبساً عن الفينيقيّين طقساً دينيّاً

راقصاً يدور حول تأليه الخصب. وورد في الكتاب المقدس ـ العهد القديم ـ أيضاً أن القاضي شمشون الجبار أدّى رقصة أمام الفلسطينيّين مستوحاة من الرقصات التي كانت معروفة في المدن الفينيقية.

❀ ❀ ❀

يمكن اختصار الفنون التي مارسها الفينيقيّون بأنها كانت خليطاً من فنون الشعوب التي عاصرتهم، وقد أضافوا إليها عصارة أحاسيسهم وذوقهم وإبداعهم فأخرجوها في أبهى حلّة، في البناء والنحت والنقش والزخرفة والأواني الثمينة المرصعة بالأحجار الكريمة، والأقمشة الأرجوانية المزيّنة. ويضاف إلى ذلك فضلهم في نشر الموسيقى والرقص والغناء، وهي كلّها فنون، فردية كانت أو مجتمعة، تدل على الإبداع الفينيقي وعلى دوره في نشر هذه الناحية الحضارية التي كان يفتقر إليها العالم القديم والتي أغناه بها الفينيقيّون ذوقاً وجمالاً ورقيّاً جعلته يقبل عليها بلهفة ويتبنّاها ويدخلها في تقاليده اليومية، الاجتماعية والدينية.

> ... فمضى داود وأصعد تابوت الله بفرح من بيت عوبيد أدوم إلى مدينة داود. ولمّا خطا حاملو تابوت الربّ ستّ خطوات، ذبح ثوراً وعجلاً مسمّناً. وكان داود يرقص ويدور على نفسه بكلّ قوّته أمام الربّ، وكان دواد متمنطقاً بأفود من كتّان. وأصعد داود وكلّ بيت إسرائيل تابوت الربّ بالهتاف وصوت البوق. ولمّا دخل تابوت الربّ مدينة داود، أطلّت ميكال ابنة شاول من النافذة، ورأت الملك داود يطفر ويرقص أمام الرب، فازدرته في قلبها...
>
> ـ العهد القديم ـ سفر صموئيل الثاني.

العلوم

فرضت حياة الفينيقيّين التجارية والاجتماعية عليهم خوض مجالات علمية مختلفة؛ فالمشاكل الصحيّة والأمراض وجّهتهم نحو دراسة الطب والصيدلة. والتجارة دفعتهم إلى علم الحساب لتسهيل معاملاتهم التجارية مع الشعوب المختلفة. والملاحة البحرية استلزمت منهم دراسة معمّقة لعلم الجغرافيا والفلك. أمّا الرياضيّات فكانت الباب الذي ولجوا منه إلى عالم الهندسة بوجوهه المختلفة.

الطب والصيدلة

ضاهى الطب الفينيقي نظيره في مصر براعة وشهرة. وقد جعل الإله أشمون شفيعاً للمرضى في مدينة صيدون، وكان يُرمز إليه بأفعى ترمز إلى الصحة والحياة الطويلة. وأُقيمت أمام معبده بركة مملوءة بماء مقدّسة كان المرضى يستحمّون فيها أملاً في الشفاء.

لكن الطبّ الفينيقي ارتكز في البداية على بعض الشعوذات، انطلاقاً من الاعتقاد بأنّ الأمراض ناتجة عن قوى غير طبيعية شريرة. فكانت لكهنة معبد أشمون الفرصة لممارسة بعض أنواع السحر على المرضى على اعتبار أنّهم يتحلّون بقوى غير طبيعية قادرة على طرد الشرّ الذي يسبّب الأمراض.

إلاّ أنّ الخبرة أكّدت للفينيقيّين أنّ المعالجات التي يقوم بها الكهنة لا تؤدّي إلى أيّ نتيجة فعّالة، فاتّجهوا نحو دراسة الأسباب التي تنتج عنها الأمراض. فراقبوا الحشرات، وخصوصاً الذباب، وعرفوا مضارّها وعلاقتها بتفشّي الأمراض والعدوى. وكانوا يلجأون إلى إله الذباب «بعل زبوب» لينجّيهم من أذى هذه الحشرة. ثمّ عرفوا العلاقة التي للجرذان في انتشار

مرض الطاعون القاتل، فسعوا إلى مكافحتها عبر تقديم تماثيل مصغّرة لها إلى الآلهة لتكفّ عنهم أذاها.

وبعدما اتّجهوا إلى دراسة الطبّ بمختلف وجوهه، لم يعد الكاهن هو الطبيب بالضرورة. وبدأ العمل في الصيدلة، وتركيب الأدوية التي جعل كلّ منها مناسباً لحالة مرضيّة معيّنة. وبرعوا أيضاً في الطبّ البيطري، وقد عالجوا العديد من الأمراض التي كانت تُصاب بها مواشيهم وجيادهم وغيرها.

الجغرافيا

إنّ أبرز من عملوا في الجغرافيا بطريقة علمية لدى الفينيقيِّين كان مارينوس الصوري الذي وضع خريطة العالم القديم مستنداً في معلوماته على ما كان ينقله البحّارة الصوريّون والرحّالة من أخبار عن العالم الذي كانوا يشاهدونه في أسفارهم، والتي جهلها معظم الشعوب آنذاك.

وكان مارينوس متأكّداً من أنّ الأرض كرويّة، وكان يأمل في تحقيق خريطة للعالم كلّه. وقد حقّق له هذه الأمنية تلميذه اليوناني بطليموس. والإيمان بكرويّة الأرض جعل مارينوس يستنبط خطوط الطول وخطوط العرض التي استفاد منها بطليموس أيضاً في تحديد الأماكن على الخريطة. وخطوط الطول والعرض ما زالت حتى اليوم ركناً أساسيّاً في علم الجغرافيا الحديثة.

وقد يكون مارينوس قد ارتكب بعض الأخطاء في رسم خريطته، إلاّ أنّ مؤلّفه «تصحيح الجغرافيا» الذي لم يبق أيّ أثر منه ساعد بطليموس كثيراً في وضع الأسس التي ترتكز عليها الجغرافيا المعاصرة. وكان لمارينوس كذلك دور في الأبحاث التي أجراها الباحث الجغرافي العربي المسعودي الذي كان له فضل كبير في تسليط الأضواء على أهميّة مارينوس الصوري الذي كان مهملاً.

الحساب والرياضيات

كان الفينيقيّون بارعين في العلوم الحسابيّة كونهم تجّاراً يبيعون

ويشترون. وكانت عمليّات الحساب في البيع والشراء أكثر صعوبة في زمن التعامل بالمقايضة، وقبل البدء باستعمال النقود.

أمّا في الرياضيّات فبرز كلّ من إقليدس وفيثاغور اللذين لعبا دوراً مهمّاً في الهندسة، والقواعد الهندسيّة التي وضعاها ما تزال ركناً أساسيّاً في علم الرياضيّات المعاصرة.

❀ ❀ ❀

وفي مجالات علميّة أخرى، اهتمّ الفينيقيّون بعلم الفلك للإستفادة منه في ملاحتهم البحرية، فاكتشفوا النجم القطبي بعد مراقبته لفترة، وقد أطلق عليه الإغريق تسمية «النجمة الفينيقيّة» للدلالة على أنّ الفينيقيِّين هم مكتشوفه. وتمكّنوا أيضاً من اكتشاف كوكبتي «الدبّ الأكبر» و«الدبّ الأصغر». وهكذا، أصبحوا أسياد البحار وهدوا الإغريق إلى ما اكتشفوه.

ولم تقتصر فوائد الملاحة البحرية على علم الفلك فحسب، بل كانت الرحلات البحرية مناسبة لإجراء أبحاث مختلفة في علمي الحيوان والنبات وغيرهما.

ويُروى عن العالم الصوري موخوس أنّه أوّل من نادى بما يُعرف بالنظرية الذرّية.

الفصل السادس

الرحلات والمستعمرات

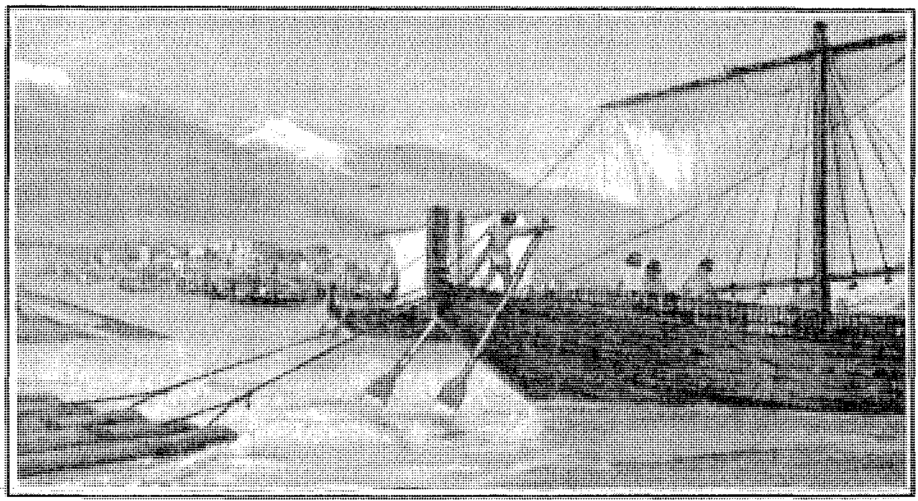
عندما بدأ الفينيقيّون بمغامراتهم البحرية، لم يتجرأوا على الابتعاد كثيراً عن الشاطىء، وكانت رحلاتهم قصيرة وتقتصر على التنقّل بين مدينة وأخرى من الساحل الفينيقي حيث انتشرت المرافىء بمعدّل مرفأ في كلّ مدينة. وقد أكسبتهم هذه الرحلات خبرة لا بأس بها، فتخلّوا عن حذرهم وراحوا يتطلّعون نحو المدن البعيدة المنتشرة على شواطىء بعيدة يدفعهم حبّ المغامرة وسعيهم إلى توسيع نطاق تجارتهم.

وبدأت الرحلات قاصدة الجزر الأقرب إلى الساحل، فحطّ البحّارة رحالهم في جزيرة أرواد، ثمّ في قبرص ومالطة وكريت. وساعدهم الأرخبيل اليوناني فانتشروا في بعض جزره، وخصوصاً في جزيرة رودس.

وبعد اليونان، تحوّل الفينيقيّون جنوباً، فوصلوا إلى سواحل مصر، ومن بعدها إلى ليبيا. وتوالت الرحلات نحو الساحل الأفريقي الشمالي، فكانت هجرة أليسار، بنت صور، إلى تونس حيث بنت مدينة قرطاجة العظيمة. ومن قرطاجة، وصل الفينيقيّون إلى جزيرتي صقلية وسردينيا. وتطلّعوا شمالاً، فحلّوا في مناطق عديدة هي اليوم في فرنسا وإسبانيا وغيرهما.

وأصبح الفينيقيّون والبحر أصدقاء، فبدأوا ينظّمون رحلات استكشافية حول العالم، مرّة بطلب من ملك ما غريب ولحسابه، ومرّة بمبادرة خاصة هدفها حبّ الاستطلاع والتعرّف إلى شعوب جديدة وفتح أسواق جديدة للمنتجات الفينيقية.

ومن أوائل الرحلات التي قاموا بها رحلة بطلب من الفرعون المصري «نخاو». ويقول المؤرّخ هيرودوتس أنّ هذه الرحلة تمّت في مطلع القرن



مرفأ تجاري فينيقي

السادس قبل الميلاد، وقد غطّى نفقاتها الفرعون المصري. والانطلاقة كانت من على شواطىء مصر المطلّة على البحر الأحمر (وهذا دليل على وجود قناة مائية في ذلك الوقت، كانت تفصل بين مصر الأفريقية وسيناء، وهي التي تقوم عليها اليوم قناة السويس) باتجاه جنوب الكرة الأرضية. ووصلت السفن إلى رأس الرجاء الصالح سابقة البرتغاليّين إلى ذلك الموقع بمئات السنين.

وخلال الرحلة، توقّف الفينيقيّون أكثر من مرّة للاستراحة وللتزوّد بالمؤن. وتابعوا الإبحار في المحيط الأطلسي حتى وصلوا إلى مدخل البحر الأبيض المتوسّط عند الموقع المعروف حالياً بجبل طارق والذي كان يعرف في زمنهم بأعمدة هرقل. ومن هناك، تابعت السفن طريقها شرقاً حتى وصلت إلى مصر.

ويروي هيرودوتس أنّه أثناء تلك الرحلة، تعرّضت المراكب لعاصفة، فانفصلت إحداها عن الموكب وشردت نحو الغرب حتى وصلت إلى القارة الأميركية قبل أن يكتشفها كريستوف كولومبوس بنحو ألفي سنة. ورسا المركب على الشاطىء الشرقي للبرازيل. وقد استغرقت هذه الرحلة ثلاث سنوات.

رحلة حنون

حنون بحّار قرطاجي، ورحلته تمّت بطلب من مجلس شيوخ قرطاجة، وكانت تكراراً للرحلة السابقة حول أفريقيا، إلاّ أنّ وجهتها كانت معاكسة. فقد انطلقت من المدينة باتجاه الغرب، وعبرت السفن مضيق أعمدة هرقل واتّجهت جنوباً نحو رأس الرجاء الصالح. وكان الهدف تحقيق دورة كاملة حول القارة الأفريقية. إلاّ أنّ خضوع مصر للفرس جعل متعذّراً على الرحلة أن تبلغ غايتها، فعاد حنون وبحّارته من حيث أتوا، وقدّم تقريراً إلى مجلس الشيوخ تضمّن تفاصيل الرحلة. لكنّه بقي سرّياً ولم تتسرّب منه إلاّ معلومات ضئيلة في ذلك الزمان. وحفظ التقرير في قرطاجة، وقد اكتشفه أحد المؤرّخين في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد، علماً أنّ الرحلة تمّت خلال النصف الثاني من القرن السادس قبل المنيلاد، واستغرقت أكثر من ثلاث سنوات.

ويروي تقرير حنون مشاهداته أثناء الرحلة، فيتحدّث عن أحد الجبال البركانية الذي شوهد في أفريقيا ووصف الحمم التي كانت تتفجّر منه بـ«جداول نارية». ويشير إلى الرعب الذي تملّكه ورفاقه لدى رؤيتهم هذا المشهد والذي جعلهم يغادرون المكان بسرعة، وقد ظلّوا يشاهدون ألسنة النار ترتفع من الجبل خلال أربع ليالٍ. وذكر أنّ هذا الجبل كان يُعرف آنذاك بـ«مركبة الآلهة».

وفي بداية القرن الرابع قبل الميلاد، نظّمت قرطاجة رحلة استكشافية ثانية بقيادة هميلكو، أو هملكون. وهذه الرحلة وصلت إلى الجزر البريطانية عبر مضيق جبل طارق واستغرقت نحو أربعة أشهر. وقد بنى الفينيقيّون هيكلاً للإله ملكارت في مدينتين بريطانيّتين لا تزال آثارهما موجودة حتى اليوم.

ويبدو أنّ الفينيقيّين كانوا أوّل من اكتشف جزر الكناري بالإضافة إلى جزر الأسور وماديرا. وفي النصف الأوّل من القرن العشرين، تمّ اكتشاف كتابات فينيقية تؤكّد وجود مناجم فينيقية بالقرب من منطقة بلتيمور التابعة حاليّاً للولايات المتحدة الأميركية.

قرطاجة

ما كاد الفينيقيّون ينتهون من تحويل البحر المتوسّط إلى واحة مستعمرات حضارية لهم، حتى قرّروا تتويج عملهم ببناء لؤلؤة مستعمراتهم على الشاطىء التونسي، وهي قرطاجة. وتقول الأسطورة أنّ ملك صور، ويُدعى متّان، أوصى أن يكون العرش بعد موته لابنه بيغماليون وابنته أليسار معاً، فيحكمان سويّاً. وكانت أليسار زوجة أسرباس أو زيكار بعل، وهو رئيس الكهنة وكاهن ملكارت الذي يتمتّع بمقام هو الأرفع في المملكة بعد الملك. كما أنّه كان يمتلك ثروة هائلة لطالما اشتهى أعيان صور أن يكون لهم مثلها.

وعندما توفي الملك متّان، وانتقلت السلطة إلى ولديه، اجتاحت بيغماليون موجة من الحسد والطمع، وبدأ يخطّط للاستئثار بالسلطة والمال، فعمد إلى قتل صهره. وجاء في بعض المراجع أنّ بيغماليون دعا صهره إلى مشاركته رحلة صيد. وفي وسط الغابة طعنه بسهم ورمى جثته في إحدى الحفر، وادعى للمرافقين أنّه سقط فيها خطأً.

تلقّت أليسار الطعنة بكثير من رباطة الجأش، وقد علمت حقيقة ما جرى بين شقيقها وزوجها الذي كان في الوقت ذاته عمّها، وأيقنت أنّ الضربة المقبلة ستكون موجّهة إليها في الصميم للقضاء تماماً على دورها وسلبها ما لها من سلطة وثروة. وقرّرت اتخاذ خطوة إنقاذية جبّارة، سجّل التاريخ لاحقاً أنّها من الخطوات المجيدة في تاريخ فينيقيا. فقد جمعت أليسار ما أمكنها من ثروة زوجها، وقرّبت إليها مجموعة من المؤيّدين الذين كانت لهم مآخذ على أسلوب شقيقها في الحكم، وجهّزت هذا الفريق لخطوة الهرب من البلاد.

وإنجاحاً للخطوة، أوحت أليسار لشقيقها بأنّها ترغب في الإنتقال إلى قصره والإقامة في ضيافته. ففرح بذلك لظنّه أنّها ستجلب إليه تركة زوجها الكبيرة من الأموال وستخضع له حاكماً فردياً للمملكة. وبعث إليها بالسفن والرجال لينقلوها إلى قصره، لكنّ أليسار التي تمتلك ذكاء مميّزاً تسلّلت بالأموال إلى هذه السفن فيما حمل الرجال أكياساً كانت أليسار قد أمرت رجالها بتعبئتها رملاً.

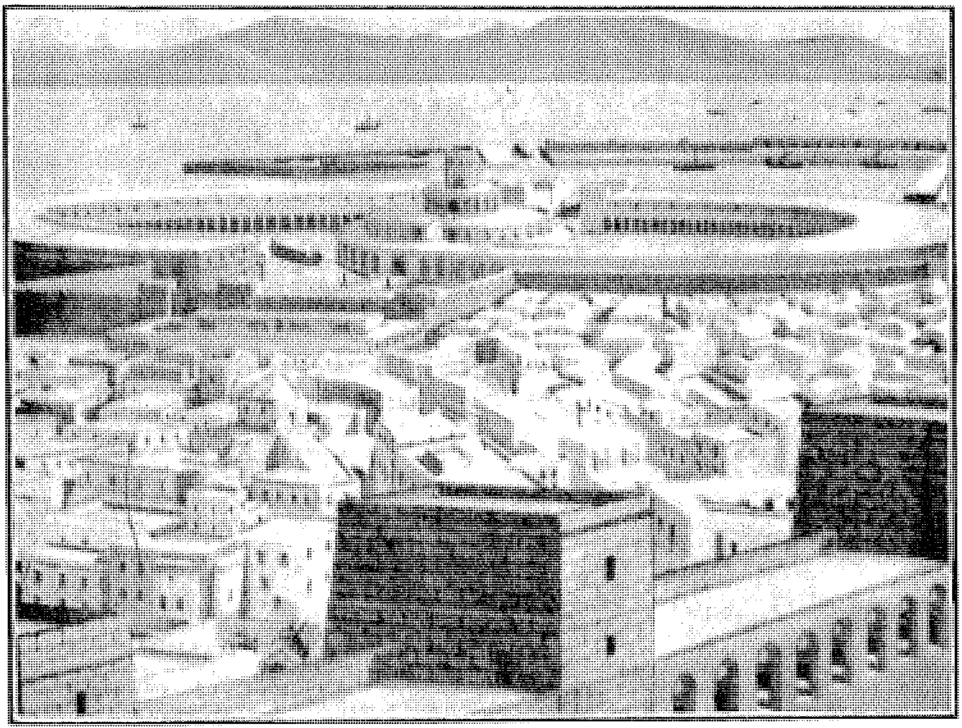
ومع اشتداد الظلام، أطلقت أليسار إشارة الانطلاق نحو أرض أخرى

خارج حدود الوطن. فأقلعت السفن بالثروة المحمّلة فيها والرجال المخلصين الذين سيكونون في ما بعد نواة مملكة جديدة على الشاطىء الشمالي لأفريقيا. ويقول المؤرّخ سرفيوس أنّ أليسار ضمّت إلى أسطولها الهارب من صور مجموعة من السفن التي كانت محمّلة بالأموال، استعداداً للسفر إلى بلاد غنيّة بالحنطة وشراء منتوجاتها.

ومضت السفن في طريقها، ولدى بلوغها عرض البحر، ألقى الرجال منها أكياس الرمل وتابعوا الإبحار حتى وصلوا إلى شاطىء قبرص. ويقول بعض المؤرّخين أنّ كاهن هكيل جوبيتر انضمّ إلى المجموعة المبحرة. وعمدت أليسار إلى احتجاز ثمانين عذراء قرّرن تقديم بكارتهن قبل الزواج وفقاً للعادات التي كانت متّبعة، لأنّ فينوس، إلهة الحب والخصب ستعوّضهن لاحقاً هذه التضحية بأن تكون لهنّ عوناً في المحافظة لاحقاً على العفّة. وفي ما بعد، أصبحت هؤلاء العذارى أمّهات الأجيال التي ولدت في قرطاجة.

وإذ قرّر بيغماليون اللحاق بشقيقته والانتقام منها للحيلة التي لجأت إليها، راحت والدته تثنيه عن هذا العمل، وكذلك الآلهة التي يُقال إنّها هدّدته باللعنة إذا ما فعل.

وواصلت أليسار رحلتها، وحطّت رحال رجالها عند شاطىء تونس التي كان يحكمها ملك ذو هيبة ووقار. فتوجّهت إليه ابنة صور المهاجرة واستأذنته استغلال بقعة محدّدة المساحة لتقيم فيها وأعيانها المتعبين من سفر البحر والغربة عن الوطن. فوافق الملك على ذلك، شرط ألاّ تتعدّى هذه البقعة مساحة جلد ثور. ولعلّ الجمال الأخّاذ الذي تمتّعت به أليسار هو مادة الإغراء الأساسية التي دفعت بالملك إلى هذه الموافقة. وقبلت الضيفة بهذا الشرط، ولم يكن أمامها حلٌّ آخر. وبعد تفكير عميق، لمع في ذهنها مخرج من المأزق الذي يتضمّنه شرط الملك، فأوعزت إلى رجالها بتقطيع جلد الثور خيوطاً رفيعاً جداً ولكن طويلة بحيث تمّ نشوها في أرجاء واسعة من ذلك الشاطىء. دهش الملك لذكاء أليسار وسكت على حيلتها، وبالتالي سمح لقرطاجة بأن تولد عملياً. وقد تقاطرت إلى المملكة الجديدة جموع من أهل الشاطىء الأفريقي ورحّبت بالقادمين من الشرق، وبدأت رحلة التفاعل والاندماج معهم. وكان ذلك في العام ٨١٤ ق.م.



قرطاجة

ولم تمض فترة طويلة حتى بدأ الملك يتودّد إلى أليسار، وجمع عدداً من أنصارها وأسرّ لهم برغبته في الزواج منها. وقد نقل هؤلاء الرغبة إلى قائدتهم بأسلوب غير مباشر لعلمهم أنّها وفيّة لذكرى زوجها، وقد أقسمت على ألاّ تتزوّج بعد وفاته، وكان هذا موقف أليسار بالفعل.

وأمام الحائط المسدود الذي بلغته طلبت من أنصارها مهلة ثلاثة أشهر للإجابة على الطلب. وخلال هذه الفترة بنت محرقة من الحطب، واعتلت قمّتها، وأشعلت فيها النيران، وماتت شهيدة وفائها الزوجي الخالد. لكنّها بقيت رمز قرطاجة وإلٰهتها الكبرى على امتداد الأجيال التي ازدهرت فيها، حتى أفول نجمها على أيدي الرومان.

وأخذت قرطاجة تزدهر في اطّراد، واتّسعت تجارتها بحيث نافست

صور الأم ومدن فينيقيا قاطبة بعد أقلّ من مئة عام على تأسيسها. وساهم في ذلك انهزام صور أمام الأشوريِّين الذين اكتسحوا فينيقيا بأسرها. ولم يبقَ من هيبة صور على ابنتها الأفريقية سوى القليل من الإرتباطات، وأبرزها أنّ النقود القرطاجية بقيت تحمل عبارة «صور أم قرطاجة» حتى زوالها في العام ١٤٦ ق.م. ويشير المؤرّخون إلى أنّ عشرة في المئة من واردات قرطاجة التجارية وغنائم الحروب كانت تُرسل إلى هيكل ملكارت الذي كان القرطاجيّون يسافرون إلى صور سنويّاً للمشاركة في عيده. لكنّ هذه النسبة أخذت بالتراجع مع ازدهار التجارة القرطاجية، حتى أنّ القرطاجيِّين اعتقدوا أنّ هذا التقتير أدّى إلى غضب الآلهة عليهم ممّا تُرجِم هزيمة أمام جيش أغاتوكلس بين عامي ٣١٠ و٣٠٦ ق.م. وقد تعمّد القرطاجيّون أن يشركوا مدينتهم الأم صور في اتفاقيّتهم الثانية مع الرومان.

لكنّ الإنتصار الروماني في شبه الجزيرة دفع بهذا الشعب إلى الخروج نحو آفاق جديدة حاملاً معه أفكاره ومعتقداته. فكان العالم القديم هو المدى الأرحب الذي سيتلقى موجات فتوح القادمين الجدد. وبذلك واجهت قرطاجة وطأة الحرب بعد فترة هدوء دامت قرابة سبعة أجيال، وراحت تعاند روما وتغالبها في عقر دارها. وهذه البلاد الصغيرة استطاعت أن تصبح أمبراطورية واسعة وتخوض مع روما ثلاثة حروب عُرفت بالحروب البونية أو «الفونية»، واستمرّت على ثلاث مراحل سجالاً بين الفريقين إلى أن انتهت بمعركة زاما سنة ٢٠١ ق.م. فدمّر الرومان قرطاجة تدميراً نهائياً وحرثوا أرضها وأتمّوا سيطرتهم على بعض أجزاء أفريقيا الشمالية.

الفصل السابع

الفتح العربي

الفتح العربي

بعد انتشار الدين الإسلامي في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية، قرّر المسلمون في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق الاتجاه نحو بلاد جديدة لنشر دينهم. وتمكّنوا من احتلال مختلف المناطق الأردنية والفلسطينية والسورية. ثمّ انتصروا على البيزنطيّين في معركة اليرموك (٦٣٦ م - ١٤ هـ)، ووصلت جيوشهم بذلك إلى لبنان، حيث تولّى فتح مناطقه ثلاثة هم: أبو عبيدة الجراح، يزيد بن أبي سفيان بمعاونة أخيه معاوية، وخالد بن الوليد.

فتح البقاع

دخل الجيش الإسلامي بقيادة أبي عبيدة الجراح إلى البقاع وحاصر مدينة بعلبك حيث كانت قوّة من البيزنطيّين قد تمركزت. واستمرّ الحصار حتى استسلام البيزنطيّين بعد مقاومة عنيفة. وفرض العرب على البيزنطيّين ضريبة تشمل ألفي أوقية من الذهب ومثلها من الفضة، وألفي ثوب من الديباج، وخمسة آلاف سيف، بالإضافة إلى تسليم أسلحتهم وعدد من الرهائن لضمان تسليم المال المفروض عليهم.

واشترط أهل بعلبك في المقابل أن لا يدخل عسكر المسلمين إلى المدينة، وأن يُرفع الحصار عن مقاتليهم. فوافق أبو عبيدة على ذلك، ووضع حاكماً عربيّاً على المدينة.

فتح المدن الساحلية

هاجم يزيد بن أبي سفيان، بمعاونة أخيه معاوية المدن اللبنانية الساحلية، فاستولى على بيروت سنة ٦٣٥ م، ثمّ على كلّ من صيدا وصور وجبيل وعرقة في السنة التالية.

أمّا طرابلس فقد خشي المسلمون في البداية أمرها، نظراً لمناعتها وحماية الأسطول البيزنطي لها. إلاّ أنّ معاوية ضرب الحصار حولها سنة ٦٣٥ م، واستمرّ نحو عشر سنوات لتستسلم المدينة في نهاية الأمر.

ومنذ فتح بيروت، أصبحت تابعة لولاية يزيد بن أبي سفيان، ثمّ لمعاوية والي الشام بعد وفاة يزيد. وأصبحت تُعرف بساحل دمشق، وجعلت ميناءها الطبيعي. واهتمّ بها معاوية، فراح يرسل إليها الناس للسكن فيها وإعمارها والدفاع عنها. وقد أسهمت بيروت، كغيرها من المدن الساحلية، في الغزوات البحرية التي شنّها المسلمون على جزر المتوسط.

جبل لبنان

لم تشر الروايات التاريخية إلى اقتحام العرب لمناطق الجبل إلاّ تلك الروايات التي وردت عن خالد بن الوليد وفيها أنّه أرسل سريّة من البقاع إلى بيروت فقضى عليها الروم في عين ميسنون. وممّا يزيد في تأكيد عدم اقتحام العرب للجبل أنّ الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة عندما بلغه خبر طاعون عمواس وفتكه بالمسلمين ينصحه بقصد الجبال لأنّه أنزل جنوده في الوهاد والمنخفضات.

يُذكر أنّ معاوية كان أوّل خليفة حاول أن يخضع سكّان الجبل النصارى ولكنّه لم يفلح، وأعاد الكرة ولم يفلح أيضاً. كذلك فإنّ الخلفاء الذين أتوا بعده لم يتمكّنوا من إخضاع الجبل. وسكّان الجبل، وبحسب الروايات التاريخية، كانوا من الوثنيّين الذين اهتدوا إلى الدين المسيحي على أيدي بعض الرهبان الموارنة القادمين من سوريا. وقد انضمّ إليهم في ما بعد الجراجمة ـ المردة، وهؤلاء قوم عُرفوا بالجراجمة نسبة إلى مدينة الجرجومة في جبل اللكام.

الجراجمة ـ المردة

إنّ الجراجمة ـ المردة كانوا مقيمين في سوريا منذ مئات السنين قبل حملاتهم المشهورة ضد الأمويّين في القرن السابع للميلاد. وهكذا كان هؤلاء

سوريّين آراميّين لغة وموطناً على الأقل منذ بضع مئات من السنين قبل القرن السابع للميلاد. واسم «مردة» باللغة الفارسية يعني الرجل الشجاع والبطل الصنديد، واسمهم السرياني «جراجمة» يعني كذلك الرجال الأشدّاء.

وكان هؤلاء يستقيمون للولاة العرب مرّة، ثمّ يميلون عنهم مرّة أُخرى فيكاتبون البيزنطيّين ويمالئونهم. لذا، عرفوا بالمردة لكثرة تمرّدهم على العرب والبيزنطيّين (الروم) على حدّ سواء.

بدأت العلاقات الأولى بين الجراجمة والمسلمين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، فاتخدهم المسلمون عيوناً لهم ومسالح ترصد الدروب عند جبل اللكام على الحدود المتاخمة للدولة البيزنطية، ورفعوا عنهم الجزية وسمحوا لهم بالحصول على نصيبهم من الغنائم إذا حضروا معهم الحرب.

إلاّ أنّ الجراجمة انقلبوا في عهد معاوية فأظهروا العداء للمسلمين وشاركوا البيزنطيّين في حملتهم البحرية التي استهدفت سواحل الشام في سنة ٦٦٩ م. وقد ذكرتهم المصادر اليونانية القديمة باسم المردة، وفي ذلك أيضاً تأكيد على أنّ الجراجمة والمردة شعب واحد.

بدأ الجراجمة بالتسلّل إلى سورية من مناطقهم الوعرة الخصيبة في جبل اللكام وجبال طورس. وفي عام ٦٦٦ م. اتخذت الغزوات البسيطة التي كان الجراجمة يشنّونها على سوريا شبه حرب اجتياح. فقد كان قوادهم من الروم، وكانت فرق عسكرية من الروم تشدّ أزرهم، كما كانت قطع من الأسطول تساندهم في البحر. وقد أوصلهم زحفهم إلى قلب لبنان فاحتلوا النقاط الاستراتيجية فيه حتى مشارف فلسطين.

وفي هذه الفترة كان العالم الإسلامي يعاني أزمة داخلية خطيرة، فلم يعبأ بما كان يجري في لبنان. إذ كانت الحرب قائمة بين معاوية وعلي بن أبي طالب حول الخلافة. وقد رأى معاوية أنّه من الحكمة أن يدفع جزية للروم مقابل أن يمتنع هؤلاء عن مساعدة المردة، العدو الداخلي الجديد.

وأخذ الجراجمة يندمجون بسكّان الجبل من الموارنة، وقويت شوكتهم حتى استطاعوا في العام ٦٧٧ م شنّ حملة كبيرة على العرب، بمساندة

الروم، فأحكموا التلاحم بين موارنة لبنان وموارنة سوريا. وأخذوا يشنّون الغارات على الأمويّين حتى تمكّنوا من احكام سيطرتهم على منطقة واسعة تمتدّ من جبل اللكام حتى القدس.

ولم يلبث أن انقلب الوضع في مرحلة لاحقة إلى تعاون وتحالف بين الجراجمة ـ المردة والأمويّين، وكان من أسباب ذلك الانقلاب توسّع الخلاف المذهبي بين الموارنة والكنيسة البيزنطية واستقلالهم عنها، فيما أبدى الأمويّون تسامحاً دينيّاً بدأ مع معاوية واستمرّ بعده مع ابنه يزيد.

في العصر العباسي

لم يعامل العبّاسيون اللبنانيّين معاملة حسنة، فثاروا في وجههم مرّتين: الأولى سنة ٧٥٣ م، وعُرفت بثورة المقدّم الياس في البقاع. والثانية سنة ٧٥٩ م، وعُرفت بثورة المنيطرة. وقد أخمد العبّاسيون هاتين الثورتين بقسوة وعنف. وتمادوا في اضطهاد المسيحيّين وقتلوا كثيرين منهم. ويُروى أنّ رجلاً يُدعى جعونة قال للخليفة المنصور: «الله أعدل من أن يجمعك علينا والطاعون». فأمر المنصور بقتله على الفور.

في المقابل، شجّع العبّاسيون القبائل العربية على الاستيطان في الجبال اللبنانية، والحلول مكان الجماعات التي تركت المنطقة هرباً من الظلم والاضطهاد. فجاء التنّوخيون والأرسلانيون وانتشروا في بعض مناطق الجبل. وجاءت بعدهم جماعات من بني عاملة والقيسيّين واليمنيّين والبحتريّين وغيرهم، واستوطنت مناطق مختلفة من الساحل والجبل.

وبعد أقلّ من مئة عام على نشأة الدولة العبّاسية، دبّ الفساد والانقسام في أرجائها، فأخذت الولايات تستقلّ عن بغداد، واستطاع بعضها مدّ نفوذه إلى بعض مناطق لبنان.

ففي عهد الدولة الطولونية، احتلّ أحمد بن طولون بيروت وجعل منها ميناءً بحريّاً ومركزاً لأسطوله. وفي هذه المرحلة، اجتاحت جماعات من القرامطة ـ وهم فرقة كبيرة من الشيعة الإسماعيلية ـ بعض المناطق اللبنانية، واتصلوا بالتنّوخيّين في وادي التيم. فجرّد الطولونيون عليهم حملة عسكرية، والتقى الجانبان في وادي القرن فانتصر القرامطة وحلفائهم التنّوخيون. وأسّس القرامطة بعض القرى في لبنان وأقاموا فيها، وكانت الأولى عين داره، وتبعتها العبادية وعبيه والمختارة ودير كوشه وزكريت والمتن وغيرها.

وبعد انهيار الدولة الطولونية في مصر، قامت على أنقاضها الدولة الإخشيدية التي لم يكن لها تأثير يُذكر على الأوضاع في لبنان حيث بقي حكم الجبل وبيروت بأيدي التنوخيِّين.

ثمّ قامت دولة الفاطميِّين في مصر (٩٠٩ م - ١١٧١ م) وسيطرت على طول الساحل اللبناني وبعض المناطق الداخلية. واستغلّ البيزنطيون الأوضاع فسيطروا على مدينة أنطاكية، ثمّ احتلّوا بيروت سنة ٩٧٦ م. وانقسم اللبنانيّون بين مؤيّد للفاطميِّين ومؤيّد للبيزنطيِّين. وقام بحّار من صور يُدعى علاّقة بالثورة على الفاطميِّين مستعيناً بالبيزنطيِّين الذين قدّموا له معونات عسكرية. فأعلن استقلال المدينة وراح يسك النقود باسمه. لكنّ الفاطميِّين هاجموا صور بحراً وتمكّنوا من اقتحامها ونهبها وحرقها، ثمّ اقتادوا الأمير علاّقة إلى مصر حيث صلبوه حتى الموت.

ولمّا بدأت الفوضى تعمّ جسم الدولة الفاطمية، بدأ قوم من الأتراك، يُعرفون بالسلاجقة، بالسيطرة على العراق واستقلّوا بالحكم عن بغداد. فأصبح الشرق منقسماً إلى قسمين: عربي يسيطر عليه الفاطميون، وتركي يسيطر عليه السلاجقة. وامتدّ النفوذ السلجوقي حتى منطقة البقاع.

هذا الوضع أفسح في المجال أمام العديد من الطامحين، أو القادة المحليِّين لإنشاء إمارات محليّة في صور، وطرابلس، وبعض مناطق الشام كدمشق، وحلب، وكذلك في فلسطين. لكن أبرز تلك الإمارات كانت إمارة بني عمّار في طرابلس.

إمارة بني عمّار

أسّسها أبو طالب عبد الله بن محمد بن عمّار، وكان قاضياً لدى الدولة الفاطمية، وانتقلت الإمارة بعد وفاته إلى ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن علي. وإليه يعود الفضل في توسّع هذه الإمارة إلى جبيل في الجنوب، بعد السياسة المتوازنة التي انتهجها تجاه الفاطميِّين والسلاجقة. وبعد وفاته تسلّم الإمارة أخوه فخر الملك، وحاول الحفاظ على استقلال المدينة في وجه الصليبيِّين. لكنّه فشل، فسقطت المدينة في أيديهم في حزيران ١١٠٩ م.

إمارة بني عقيل

تأسّست هذه الإمارة في مرحلة متزامنة مع تأسيس إمارة بني عمّار في طرابلس وكان مؤسّسها القاضي ابن عقيل. وحاول الفاطميّون استرجاع هذه المدينة، فوجّهوا إليها جيوشهم بقيادة بدر الجمالي الذي حاصرها، فطلب ابن عقيل النجدة من الأتراك الذين وجّهوا حملة قوامها أحد عشر ألف جندي حاصروا مدينة صيدا التي كانت تحت نفوذ الفاطميّين. وأدّى ذلك إلى نوع من التوازن بين الجانبين، الفاطمي والتركي، اللذين رفعا الحصار عن صور وصيدا.

واستطاع ابن عقيل أن يثبّت دعائم حكمه في صور، ساعياً في الوقت نفسه إلى عدم مقاطعة الفاطميّين بشكل تام، إذ حافظ على حدود مقبولة من الاتصالات بهم.

لكنّ الأمر لم يدم طويلاً، فالسياسة التي اتبعها أولاد ابن عَقيل تجاه السلاجقة، وخضوعهم لهم، دفعت الفاطميّين إلى مهاجمة صور سنة ٤٨١ هـ. فتمكّنوا منها، وتابعوا زحفهم باتجاه صيدا، وجبيل فاحتلوهما. وعمد الفاطميون إلى تعيين حاكم فاطمي على صور، التي حاولت الخروج على إرادتهم، والثورة عليهم. ولم يستقم الأمر إلاّ بعد تدخّل الجيش الفاطمي، وفرض جزية كبيرة على المدينة، وتعيين حاكم جديد، لم يلبث هو الآخر أن ثار عليهم سنة ٤٩٠ هـ. فأرسلوا قوّات كبيرة تهاجمها، وتعبث فيها فساداً وتخريباً، وتُركت للسيف والنهب. ولم يرحل الفاطميون عنها إلاّ بعد مجيء الصليبيّين.

الفصل الثامن

بين
الصليبيين والمماليك

الصليبيون

أسباب الحملات الصليبية

الحروب الصليبيّة هي حملات عسكريّة شنّها الغرب الأوروبي على منطقة الشرق الأوسط، ابتداءً من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ولغاية أواخر القرن الثالث عشر الميلادي. وهذه الحروب التي امتدّت على مدى قرنين من الزمن، جرت على مراحل متقطّعة، وفي حملات تفصل بين الواحدة والأخرى مدّة من الزمن كانت تطول أو تقصر بحسب الظروف السياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة في البلدان التي شاركت في هذه الحملات.

الهف المعلن كان استرداد الأراضي المقدّسة، وخصوصاً القدس، من أيدي السلاجقة والفاطميّين.

وقد سمّيت هذه الحملات بالصليبيّة لأن الجنود الذي شاركوا فيها كانوا يحملون، وهم متوجّهون نحو الشرق، علامة الصليب على صدورهم. وكانت تجري بإرادة بابا روما الذي وجّه سنة ١٠٩٥ (وكان يومها البابا أوربانوس الثاني) نداء في هذا الشأن إلى ملوك أوروبا وشعوبها.

لكن، لا يمكن الركون إلى الهدف المعلن للحملات الصليبيّة، فهناك أسباب عديدة دفعت إلى القيام بها، وقد جاءت نتيجة مصالح مشتركة جمعت بين الملوك والأمراء الذين قادوها، بالإضافة إلى الفرصة التي رآها البابا مؤاتية لإعادة توحيد الكنيستين، الغربيّة في روما والشرقيّة في القسطنطينيّة.

الصليبيون في لبنان

سلك الصليبيون إلى القدس طريقاً كانت تعبر لنان عبر خطين من الشمال إلى الجنوب: الأول يسلك وادي العاصي، والثاني يعبر الساحل.

الخطّ الأوّل: سلكه الفرنسيّون بقيادة الكونت ريمون دو سان جيل ووصلوا عبره إلى حصن الأكراد وسيطروا عليه باعتباره موقعاً استراتيجيّاً مهمّاً. ثمّ تقدّموا باتجاه مدينة عرقة وضربوا حولها حصاراً قويًّا استمرّ نحو ثلاثة أشهر وانتهى بالفشل في أيّار ١٠٩٩.

أما الجيوش التي سلكت الخط الساحلي فقد كانت بقيادة غودوفروا دو بويون الفرنسي وروبير الفلمنكي. وقد تحاشى سكان المدن الساحليّة اللبنانيّة الدخول في مواجهة عسكريّة مع الصليبيّين، فبعث حكّام كلّ من طرابلس وبيروت وصيدا وصور إلى قوّادهم هدايا مختلفة، من أغذية وماء للشرب ومال.

وهكذا عبر الصليبّون مدن الساحل من دون أيّ مواجهة تذكر، ما عدا اشتباكات عابرة مع السلاجقة في المنطقة، وخصوصاً في طرطوس. أما مدينتنا البترون وجبيل - وكانتا تابعتين لإمارة لطرابلس - فقد نجتا من الخراب لأن الصليبيّن لم يتعرّضوا لهما.

ولدى وصولهم إلى بيروت، تلقّوا هديّة ماليّة وكميّة من المؤن الغذائيّة من حاكم المدينة الفاطمي. ومكث الصليبيّون في بيروت ليلة واحدة لم تشهد أيّة عمليّات عسكريّة. وفي اليوم التالي، تابعوا تحرّكهم نحو صيدا. ومنها انتقلوا إلى جوار مدينة صور التي كانت من أكثر المدن اللبنانيّة ازدهاراً، إلى جانب طرابلس. وفي جوارها بات الصليبيّون ليلة أخرى في لبنان، قبل أن يتابعوا طريقهم.

تقسيم المنطقة

قسّم الصليبيون البلاد التي احتلوها إلى أربع مناطق:

- في الشمال: إمارة أنطاكية، وتضمّ كيليكيا الأرمنيّة.
- في الشرق: كونتيّة الرّها، وتشمل ضفّتي نهر الفرات.
- في الوسط: كونتيّة طرابلس، وهي تمتدّ من حصن المرقب شمالاً إلى نهر الكلب جنوباً.

- في الجنوب: مملكة القدس، وهي تشمل المنطقة الممتدّة من نهر الكلب شمالاً إلى شبه جزيرة سيناء وصولاً حتى ميناء العقبة على البحر الأحمر جنوباً.

ولم تشمل سيطرة الصليبيّين سوى المناطق الساحليّة، وتلك القريبة منها في الداخل. فمدينة بعلبك، مثلاً، لم تدخل أبداً ضمن نطاق نفوذهم.

أما منطقة جبيل فخضعت لنفوذ إيطالي جنويّ، وأصبحت بارونيّة تتمتّع بقدر لا بأس به من الاستقلال الذاتي الذي حافظت عليه طوال عهد الصليبيّين في المنطقة.

التوسّع وتثبيت المواقع

في العام ١١١٠، حاصر الصليبيّون مدينة بيروت طيلة أحد عشر يوماً، ثم هاجموها وسيطروا عليها. ونهبوا ممتلكات أهلها بعدما قتلوا الوالي والعديد من السكّان وأسروا قسماً آخر، فيما هرب من استطاع باتجاه جزيرة قبرص. وسيطرت مملكة القدس قبل ذلك على الموانىء التابعة لها في عكّا وأرسوف وقيساريّة.

وفي أواخر السنة نفسها، استولى الصليبيّون على صيدا ومرفئها، بعد حصار دام نحو شهر ونصف الشهر. وقد دخلوها من دون قتال بعدما وافق حكّامها على دفع فدية ماليّة كبيرة.

أما صور فقد صمدت لفترة طويلة، ثم سقطت في العام ١١٢٤، بعد اثني عشر عاماً من المحاولات الصليبية.

وفي الداخل، هاجم الصليبيّون البقاع فبلغوا مدينة بعلبك التي كانت خاضعة لحاكم دمشق السلجوقي طغتكين. وبعد مفاوضات بين الطرفين، توقف القتال مقابل حصول المهاجمين على ثلث الغلال التي ينتجها سهل البقاع.

بعد ذلك، أقام الصليبيّون تحصينات ساحلية وداخلية لحماية مناطق سيطرتهم من أية هجمات مباغتة. وشملت التحصينات أبراج مراقبة ساحلية،

كبرج جبيل الذي ما يزال قائماً حتى اليوم؛ وقلاعاً في طرابلس وجبيل وصيدا على الساحل، وقلاعاً داخلية مثل الشقيف أرنون (١١٣٥) والشقيف تيرون وتبنين والمنيطرة وغيرها. وقد بنيت على تلال مرتفعة لتشرف على طرقات المواصلات.

معركة حطين

برز صلاح الدين الأيوبي في تلك المرحلة حيث تولّى الحكم في مصر، وانطلق منها ليسيطر على أجزاء واسعة من بلاد الشام (دمشق وحلب)، ولقّب نفسه بالسلطان.

وبعد الاتفاق الذي أبرمه الصليبيّون مع السلاجقة في البقاع، هاجم صلاح الدين بعلبك واستولى عليها. وحارب الصليبيّين في عدد من المواقع، وجرّهم إلى معركة في سهل مرجعيون، وكاد يأسر قائدهم.

وفي تموز (يوليو) ١١٨٧، جرت المعركة الأبرز بين الطرفين في حطين، بالقرب من بحيرة طبريّة في فلسطين. فانكسر الصليبيّون وتراجعوا باتجاه صور.

وتابع صلاح الدين حملته فاستولى على قلعة طبريّة، وعكا. ثم اتجه نحو الساحل اللبناني حيث ضرب تبنين بالمنجنيق، وضيّق عليها الخناق، واستطاع الدخول إليها عنوة. وتقدم نحو صيدا، فتسلمها. وتطلع ناحية بيروت، التي زحف عليها ودخلها في اليوم نفسه الذي سقطت فيه مدينة جبيل التي هوجمت من قبل جيوشه الوافدة من بلاد الشام. وحاول السيطرة على مدينة صور، لكنه فشل في ذلك.

ثم حاصر قلعة شقيف أرنون وسيطر عليها بعدما قرّرت حاميتها التسليم وطلب الأمان. فخرج الجنود تاركين وراءهم الأموال والسلاح، ودخل جيش السلطان القلعة.

❁ ❁ ❁

إستمرّ وجود الصليبيّين في لبنان والشرق حتى دحروا على أيدي المماليك في العام ١٢٢١، وانتهى كلّ وجود عسكري لهم في المنطقة.

آثار الصليبيّين في لبنان

تعتبر بيروت من أغنى المدن اللبنانية بالآثار الصليبيّة؛ إذ كانت فيها قلعة ظلّت حتى العام ١٨٥٦، وكان موقع برجها في ساحة البرج. وهناك أيضاً كنيسة يوحنا المعنداان التي أنشأها الملك بولدوين عام ١١١٠ بعد احتلاله المدينة. لكن المسلمين حوّلوها إلى جامع من أكبر جوامع العاصمة، ويقال أن هذه الكنيسة بنيت على أنقاض هيكل فينيقي. كذلك، حوّل السملمون بعد استرجاع مدينة بيروت عام ١١٥١، كنيسة القديس يوحنا المعمدان إلى جامع، المعروف الآن بجامع العمري، وحوّلوا أيضاً ديراً وكنيسة كانا للرهبان الفرنسيسكان إلى اسطبل للخيل.

ومن الكنائس التي ما تزال موجودة حتى اليوم الكنيسة الصليبيّة في جبيل التي أنشئت عام ١١١٥، وأصبحت اليوم كنيسة القديس مار يوحنا للموارنة. وكنيسة مار يعقوب ما يزال فيها حائط واحد من عهد الصليبيّين، وكنيسة مار فوكاس العائدة للأرثوذكس والتي ما تزال حتى اليوم، ودير البلمند الذي أنشىء عام ١١٥٧. أما كاتدرائيّة القديسة مريم التي بنيت في أوائل القرن الثاني عشر فقد هدمت بسبب الزلزال الذي ضرب طرابلس عام ١١٧٠. ثم أعيد بناؤها في القرن الثالث عشر. لكن المسلمين، بعد احتلالهم طرابلس، دمروها وبنوا على أنقاضها الجامع الكبير.

معالم الازدهار

ساعدت الحروب الصليبيّة الحركة التجارية والحج إلى الأراضي المقدسة، ويظهر ذلك من خلال الروايات والأخبار التي تناقلها الرّحالة العرب وكان كلامهم كثيراً عن صور التي غمرها الإزدهار والعمران كباقي المدن اللبنانيّة أيام الصليبيّين.

وذكر الرّحالة المغربي الإدريسي عام ١١٥٤ المهارة والجودة اللتين كانت تتمتع بهما صور في صناعة الأقمشة البيضاء. وكذلك وصف صيدا والحياة فيها، فهي مدينة كثيرة السكان وأسواقها مزدحمة والأسعار فيها منخفضة وتحيط بها الأشجار والبساتين. وأتى الرحالة اليهودي بنيامين

ألتودلي الإسباني على ذكر الزجاج الذي اشتهرت صور بصنعه واكتشافها الصباغ الأرجواني. لكنه أتى أيضاً على ذكر الخراب الذي لحق بطرابلس من جراء الزلزال الذي وقع في القرن الثاني عشر.

كثيرون من الرحالة والسواح أعجبوا بجمال المدن اللبنانيّة وازدهارها، خاصة مدينة صور وأبراجها وأسوارها القويّة، ونظافة أسواقها، وطيبة أهلها، ومياهها العذبة، ونذكر منهم السائح الألماني تيودورس والرّحالة الأندلسي ابن جبير ووليم الصوري والراهب يوحنا فوكاس.

موارنة الشرق

كانت علاقة الصليبيّين بالشرق الأدنى جيدة، خاصة مع الموارنة. فالاضطهاد الذي تعرض له المسيحيّون في المنطقة من قبل عمر بن عبد العزيز الأموي والمتوكل العباسي والحاكم بأمر الله الفاطمي جعلهم يتطلعون إلى الغرب.

وبالرغم من وجود علاقات طيبة بين الطوائف المسيحيّة، إلاّ أن أيًّا منها لم ينجح في الاتحاد مع الكنيسة البابويّة. وكلّ المحاولات التي بذلت باءت بالفشل. أما الموارنة، معتنقو أكبر الطوائف المسيحيّة وأكثرها تماسكاً ووحدة، فقد أقاموا علاقة جيدة مع الصليبيّين، خاصة في الحملة الصليبيّة الأولى، عندما ساعدوهم في إيجاد الطرق والمعابر. وأقاموا علاقة صداقة مع الفرنسيين عندما نزل الملك لويس التاسع في عكا؛ إذ جاء وفد مؤلف من خمسة وعشرين ألفاً من الموارنة حاملين معهم المؤن والهدايا. وكان الموارنة يتمتعون بامتيازات وحقوق لم تتمتع بها باقي الطوائف المسيحيّة، كحق ملكيّة الأرض، والسماح لكهنتهم بخدمة القداس على المذابح اللاتينيّة.

وعندما احتلّ صلاح الدين مملكة بيت القدس، رحل الملك غوي دي ليزنيان إلى قبرص ورحل معه عدد كبير من الموارنة، ومكثوا في شمال نيقوسيا. ومع ذلك، بقي الودّ قائماً بين الموارنة والغرب.

وفي العام ١٢١٣ زار البطريرك أرميا العمشيتي روما، ولما عاد أدخل بعض التغييرات على خدمة القداس وسيامة الكهنة، وطقوس العبادة كتغطيس

المعمود بالماء ثلاث مرات، وطلبة واحدة للثالوث، وتكريس الأحداث على أيدي المطارنة، ولبس كهنة الموارنة الزي اللاتيني والخواتم وحمل العكاز. وكانت الكنيسة المارونيّة الكنيسة الوحيدة بين الكنائس الشرقيّة التي تدعو إلى القداس بواسطة الجرس، في حين استعمل غيرهم النواقيس الخشبيّة، وهذا أيضاً تقليد لاتيني أدخل على الكنيسة المارونيّة. وبذلك تحوّل الطقس الماروني القديم إلى طقس لاتيني بدأ بشكل فعلي في عهد البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٣. ولم تتحد الكنيسة المارونيّة مع الكنيسة البابويّة إلا عام ١٧٣٦، وأصبحت لهذه الكنيسة منزلة خاصة ومتميزة عند باباوات روما.

انتشار المسيحيّة

إنتعشت الحياة الفكرية والثقافيّة في الشرق الأدنى بسبب اعتناق بعض المسلمين المسيحيّة؛ فالخسارة التي لحقت بالحملات الصليبيّة وانعدام الأسباب التي حثت الناس على الالتحاق بها، مهدت الطريق لفكرة جديدة هيَ جذب المسلمين إلى اعتناق الديانة المسيحية بطريقة وديّة وسلميّة.

وأنشأ الراهب الصليبي في الأرض المقدسة الرهبنة الكرمليّة، نسبة إلى قيامها في جبل الكرمل. وانتشرت هذه الرهبنة في سورية ولبنان. وجاء إلى عكا القديس فرنسيس الأسيزي في العام ١٢١٩ وأسس الرهبنة الفرنسيسكانيّة فيها. وانتشرت هذه الرهبنة في المدن اللبنانيّة كمدينتي طرابلس وبيروت. وكذلك الأمر بالنسبة للرهبنة الدومينيكانيّة. ووضع أحد أساقفة الدومينيكان كتاباً نادى بفكرة «نريد مرسلين لا جنوداً لاسترداد الأراضي المقدسة».

وانصبّ اهتمام الإكليروس اللاتيني على فكرة واحدة، هي انتشار المسيحيّة واعتناقها في الأراضي غير المسيحيّة، بعدما كان همّهم توحيد جميع الطوائف المسيحيّة. وساعد الإكليروس على انتشار المسيحيّة الإرساليّتان الكبوشيّة واليسوعيّة اللتان تمركزتا في لبنان والعالم العربي.

المماليك

بعد وفاة صلاح الدين، ضعفت دولة الأيوبيّين ممّا مهّد لقيام دولة المماليك في مصر والتي ورثت السيطرة على المناطق التي كانت خاضعة للأيوبيّين، بما فيها لبنان وسوريا.

وقسّم المماليك هذه المنطقة على الشكل التالي: قسمت سوريا إلى ست نيابات أو ممالك، ولبنان إلى ثلاث نيابات، ودمجت مع نيابات سوريا. وقد ضمت نيابة طرابلس الشمالي لبنان والمنطقة الساحلية من شمالي اللاذقية إلى نواحي جبيل. وضمّت نيابة صفد لبنان الجنوبي وصور. أما باقي المدن فقد ضمّت إلى نيابة دمشق، وهي صيدا وبيروت وبغلبك. وأما البقاع فقسم إلى قسمين: البقاع الشمالي، والبقاع الجنوبي. على رأس كل نيابة نائب أو حاكم مستقل عن الآخرين، وكان حكمهم شبيهاً بحكم السلطان في القاهرة.

كان حكم المماليك ظالماً، وقد أساؤوا معاملة الناس الذين عرفوا الجوع، فوقعت فتن واضطرابات، وانخفض عدد السكان إلى الثلث بسبب الكوارث الطبيعية والجوع والأمراض وغيرها.

وقام السلطان قلاوون في العام ١٢٨٣ بتهجير قسم من موارنة لبنان، فأرسل جيشه إلى أعالي لبنان الشمالي، إلى بشري وإهدن وحدث الجبّة، ودمرها ودفع سكانها إلى الهرب إلى جزيرة قبرص بأعداد هائلة قدرت بثمانين ألف نسمة.

وخلال الأعوام ١٣٠٢ و ١٣٠٦ و ١٣٠٧، تعرّض لبنان لحملات عسكرية مملوكيّة، استهدفت بشكل خاص منطقة كسروان وأدّت إلى تدميرها كليًا، وكانت حدودها آنذاك تمتد ما بين نهر بيروت وجبلَي صنين والكنيسة، وتشمل المتنين الشمالي والجنوبي. أما سكّانها فكانوا من الموارنة واليعاقبة، والدروز والشيعة، والنصيريّة.

وقام المماليك بقتل عشوائي لعدد كبير من أهالي كسروان، بلغ عددهم حوالي عشرة آلاف ومعظمهم من الدروز، في معركة عين صوفر عام ١٣٠٧. وانعدمت الحياة في هذه المنطقة فتقاسمت ثلاثمئة عائلة تركمانية المنطقة الساحليّة الممتدة من شمال بيروت إلى جنوب طرابلس، كإقطاعات في ما بينها.

الحياة الفكريّة والمدارس

إنعدمت الحياة الفكريّة والثقافيّة، واستمرت هذه الحالة طوال عهد المماليك وازدادت مع العثمانيين، لأن أجواء الحرب والمنازعات والجوع والمرض وغير ذلك، كانت تمنع قيام نهضة أدبيّة؛ بالإضافة إلى العزلة التي كان العرب موضوعين فيها، وجهل حكامهم وقلة إدارتهم وثقافتهم.

لكن ما يمكن قوله هو أن المماليك اهتموا بإنشاء المدارس، خاصة في طرابلس، حيث أنشأوا أربعة منها أكبرها مدرسة القرطائيّة نسبة إلى مملوك من موالي قلاوون، والمدرسة الخاتونيّة نسبة إلى خاتون محظيّة أحد حكام الموالي للسلطان الأشرف.

إلى جانب المدارس ظهرت معاهد جديدة للتعليم الديني، أو ما يعرف بالتكيّة أو الزاوية الصوفيّة. وهذه التكيّات شبيهة بأديرة الرهبان المسيحيّة. وانتشرت هذه المعاهد في كل أنحاء سوريا ولبنان. أما في بعلبك، فقد كثرت المساجد والمدارس الوطنيّة وكانت اللغة السريانيّة هي اللغة المحكيّة المتبعة بين الموارنة المعزولين.

إستعملت اللغة العربيّة جزئياً في الكتب الدينيّة، ولكن بأحرف سريانيّة، إلى أن انتشرت بشكل واسع في كافة بلدان الهلال الخصيب، واعتمدتها الطوائف المسيحيّة من يعاقبة ونساطرة وموارنة.

وفي العام ١٣٦٥ قام السلطان بسجن أساقفة من الموارنة في دمشق، بعدما تعرضت مدينة الإسكندريّة لهجوم من قبل القبارصة. ومن بين الأساقفة، تمكن أسقف إهدن من الهرب قبل القبض عليه، واختبأ في مكان منعزل. وهناك كتب الأناجيل باللغتين السريانيّة والعربيّة، ولكن بالخط

الكرشوني. وهذا يعني أن اللغات المتبعة في زمانه هي اثنتان: العربيّة والسريانيّة.

أمّا بالنسبة لأديرة الرهبان التي كانت مركز تعليم وتثقيف، فكان معلموها من الرهبان والقساوسة. وكان البناء يتضمن المدرسة والكنيسة معاً. أما التعاليم العالي فكان مخصصاً لفئة محدودة وللذين يريدون الالتحاق بالرهبنة أو الكهنوت. ومن أهم ما قام به الرهبان هو استنساخ مخطوطات قديمة ونقلها من جيل إلى جيل عن طريق الدرس والتدريس.

الفصل التاسع

الإمارة المعنية

في ٢٤ آب (أغسطس) ١٥١٦، التقى جيشا العثمانيين والمماليك في مرج دابق، بالقرب من مدينة حلب السورية. فانهزم المماليك بقيادة سلطانهم قانصوه الغوري لأسباب عديدة، أبرزها تفوّق العثمانيين بالسلاح لاعتمادهم على سلاح المدفعية والأسلحة الحديثة. وانتقل لبنان من سيطرة المماليك إلى سيطرة العثمانيين بطريقة سلمية، لأن اللبنانيين، وخصوصاً المعنيين وحلفاءهم، وقفوا موقف المتفرّج في المعركة. وعندما انتصر السلطان سليم الأول ودخل دمشق، جاءه وفد من الأمراء اللبنانيين، ومن بينهم فخر الدين المعني الأول، وقدّم له الطاعة. وألقى فخر الدين كلمة هذا نصها: «اللهم أدام دوام من اخترته لملكك، وجعلته خليفة عهدك، وسلطته على عبادك وأرضك، وقلدته سنتك وفرضك، ناصر الشريعة النيرة الغراء، وقائد الأمة الطاهرة الظاهرة سيدنا وليّ نعمتنا أمير المؤمنين، الإمام العادل، والذكي الفاضل الذي بيده أزمة الأمر باد شاه أدام الله بقاءه وفي العز الدائم أبقاه، وخلّد في الدنيا مجده ونعماه، ورفع إلى القيامة طالع سعده، وبلغه مأموله، وقصده... أعاننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسعد والتخليد بأنعم العز والتمهيد آمين».

تركت خطبة الأمير المعني الإعجاب لدى السلطان بشخصيته الوقورة وبإخلاصه الذي وصفه البعض بالظاهر، فلقبه بـ «سلطان البرّ» وأقرّه كما سائر الأمراء اللبنانيين على إقطاعاتهم وسمح لهم بممارسة استقلالهم وامتيازاتهم التي كانت لهم أيام اللمماليك، وفرض عليهم ضريبة طفيفة، وجعل حكم المعنيين وراثياً.

من هم المعنيون؟

ينتسب المعنيون إلى الأمير معن الأيوبي الملقب بأبيب ربيعة، ويظهر اسمه للمرة الأولى في التاريخ سنة ١١٢٠ عندما أمره والي دمشق طغتكين بالتوجه مع عشيرته إلى البقاع، ومنها إلى جبال لبنان المشرفة على الساحل ليتخذها حصناً لمواجهة الصليبيّين.

وفي العام نفسه، انتقل المعنيون إلى الشوف ونزلوا في بعقلين وجعلوها مقراً لهم. وقامت علاقات طيبة بينهم وبين الأمراء التنوخيّين، ثم صاهروا الشهابيين واعتنقوا المذهب الدرزي.

فخر الدين الأول (١٥١٦ ـ ١٥٤٤)

كانت سياسته ترتكز على نبذ التعصّب بأشكاله كافة، ونشر مبادىء التعاون والعدل والمحبة بين الناس. وساهم ذلك في وفود جماعات من المسيحيّين والمسلمين الشيعة إلى لبنان والإقامة فيه.

أما الجانب الثاني من سياسة فخر الدين المعني الأوّل فقد قام على عقد تحالفات عديدة مع الأسر الإقطاعيّة اللبنانيّة لمواجهة الأخطار التي تهددهم جميعاً، فتقرب من التنوخيين والشهابيين وغيرهم.

وحرص فخر الدين على الحفاظ على علاقات جيدة مع الولاة العثمانيين، وخصوصاً ولاة دمشق. ولكن هذا الحرص لم يمنعهم من زيادة الضرائب عليه من حين إلى آخر وترك المجال لأحاديث الوشاة. ولما احتج الأمير على ذلك، استغل الفرصة أخصامه اليمنيون، وادعوا أن فخر الدين يناوىء العثمانيين وسياستهم؛ فاستدعاه والي دمشق ودبر أمر مقتله في ظروف غامضة عام ١٥٤٤.

الأمير قرقماز (١٥٤٤ ـ ١٥٨٥)

تسلّم الحكم بعد مقتل والده فخر الدين الأول، وسار على خطاه، موطداً الأمن في الداخل والعلاقات الجيدة مع الدولة العثمانية.

وفي العام ١٥٨٤، وبينما كانت قافلة عثمانية تنقل أموال الضرائب من مصر إلى الآستانة، هاجمتها مجموعة من اللصوص واستولت على الأموال التي تحملها. فاتّهم العثمانيون آل سيفا بالعملية. لكن هؤلاء تمكنوا من إقناع العثمانيين بأن أنصار الأمير قرقماز تعرضوا للقافلة. وكان العثمانيون بدورهم يرغبون في إذلال أمراء الجبل، فتوفرت الظروف لـ «تأديب» الأمير المعني. وطلب السلطان من والي مصر تجريد حملة عسكرية على الإمارة المعنية.

جهز إبراهيم باشا حملة عسكرية واتجه بها نحو لبنان فجاء برجاله أولاً إلى البقاع ثم هاجم الشوف. تصدّى له الأمير قرقماز قدر استطاعته، لكن قوّات الوالي هزمت قوّات الأمير، وقتلت الكثيرين من أنصاره، ودمرت القرى وهدمت البيوت. عند ذلك، هرب الأمير المعني واختبأ في مغارة شقيف تيرون (قلعة نيحا قرب جزين)، لكن إبراهيم باشا لحق به وحاصره فيها، ثم أشعل حطباً أخضر على مدخلها، فمات قرقماز اختناقاً عام ١٥٨٥.

وتسلم شقيق زوجته سيف الدين التنوخي الإمارة ليسلمها عام ١٥٩٠ إلى ابن أخته الأمير فخر الدين المعني الثاني.

فخر الدين الثاني الكبير (١٥٧٢ ـ ١٦٣٥)

ولد سنة ١٥٧٢ في بعقلين من الأمير قرقماز والسيّدة نسب التنوخية. في الثانية عشرة من عمره، توفي والده، فخبأته والدته مع شقيقه يونس عند آل الخازن في بلدة بلونه الكسروانية. ثم أقام عند خاله الأمير سيف الدين التنوخي في عبيه، إلى أن رضي العثمانيون على المعنيين، فتسلّم فخر الدين الإمارة من خاله سنة ١٥٩٠ بعد بلوغه سن الرشد.

* **سياسته الداخلية:** سعى فخر الدين إلى إنشاء دولة قوية، مستقلة عن العثمانيين، واضعاً نصب عينيه الانتقام من الذين كانوا وراء مقتل والده الأمير قرقماز، وخصوصاً آل سيفا وبني فريخ. فجمع الحزب القيسي من حول في مواجهة خصمه. الحزب اليمني. وسعى إلى استرضاء العثمانيين واستمالة بعض الأسر الإقطاعية إليه عن طريق الهدايا. وصاهر آل سيفا لكسبهم إلى جانبه. وعمل على تأسيس جيش قوي بالرجال والعتاد.

ولأن أعداءه أقوياء، اعتمد فخر الدين على سياسة الاستفراد للقضاء عليهم، وفي مقدّمتهم ابن فريخ ويوسف سيفا:

- القضاء على ابن فريخ: طلب فخر الدين من صديقه والي دمشق مراد باشا أن يخلّصه من منصور بن فريخ، وقدّم له المال والهدايا. فاستدعى الوالي ابن فريخ إلى دمشق ودبّر مقتله في العام ١٥٩٣. وهاجم فخر الدين البقاع وقضى على آل فريخ وضمّ منطقتهم إلى إمارته. واستعاد سنجق صيدا الذي يتبعه إقليم جبل عامل وبلاد بشارة، ومدينة بيروت التي كانت آنذاك تحت سلطة آل سيفا. ثم ضمّ سنجق صفد في فلسطين.



فخر الدين الثاني بريشة ليبلّو

ـ الصراع مع يوسف سيفا: كان يوسف سيفا أقوى خصوم فخر الدين في الداخل، فسعى إلى التخلّص منه عبر وسيلتين متناقضتين، المصاهرة والحرب. إلاّ أن ذلك لم يحسم الصراع نهائياً بين الرجلين. ومن أبرز المعارك التي خاضاها معكرة نهر الكلب سنة ١٥٩٨ والتي تمكّن فخر الدين بنتيجتها من استعادة كسروان والفتوح اللتين خرجتا عن سيطرة اللمعنيين في عهد الأمير قرقماز. لكنه أعاد المنطقتين إلى سلطة ابن سيفا، شرط أن يكفّ عن محاربة الأمير وحلفائه.

وبعد هدوء استمرّ سنوات، وقعت بين الجانبين معركة في جونية سنة ١٦٠٥، بعدما هاجم ابن سيفا البقاع حيث آل حرفوش حلفاء الأمير المعني. وانتصر فخر الدين وانتزع بيروت وكسروان والفتوح وضمّها نهائياً إلى إمارته بموافقة والي دمشق.

* **سياسته الخارجية:** أقام فخر الدين علاقات صداقة وتحالف مع أكثر من جهة خارجية، ضمن إطار سعيه إلى تحقيق الاستقلال عن الدولة العثمانية. فتحالف مع علي باشا جانبولاد والي حلب الذي وجد هو الآخر في الأمير المعني حليفاً يستطيع مساعدته في مواجهة العثمانيين وإنجاح حركته الاستقلالية. وحارب الإثنان يوسف سيفا وتمكّنا من محاصرته في قلعة الحصن في سوريا. إلاّ أن العثمانيين لم يلبثوا أن جردوا حملة على والي حلب، فاحتلوا المدينة وقضوا على جانبولاد. أمّا فخر الدين فسارع إلى إعلام ولائه للسلطنة، مؤكداً أنّ تحالفه مع علي جانبولاد كان موجهاً ضد ابن سيفا، وليس ضد العثمانيين.

بعد تلك المرحلة، تطلّع فخر الدين مرّة أخرى نحو الخارج، بحثاً عن حليف حقيقي يستطيع مساعدته في تحقيق أمانيه الاستقلالية. وإثر اتصالات مختلفة مع بعض دول أوروبا، وجد الأمير أن هناك فرصة ممكنة مع دوقية توسكانا الإيطالية، بقيادة فرديناند الأول. ولأن الطرفين وجدا في تحالفهما فرصة لتحقيق أهداف مشتركة أو خاصة، فقد عقدا معاهدة سنة ١٦٠٨، على أثر محادثات جرت في صيدا بين الأمير وسفير توسكانا. وبموجب المعاهدة، تعهّدت الأخيرة بما يلي:

١ ـ أن تزوّد الأمير فخر الدين بخبراء في صبّ المدافع.

٢ ـ أن تطلق سراح الرهائن الفلورنسيّين (فلورنسة كانت عاصمة لتوسكانا) المعتقلين لدى العثمانيين، لأنّهم كانوا يعرفون أسرار قلاع فخر الدين، وخصوصاً قلعتي الشقيف وصيدا.

٣ ـ أن تحصل توسكانا على كتاب من البابا يأمر به مسيحيّي الشرق بوضع إمكاناتهم بتصرّف الأمير والالتفاف حوله.

٤ ـ أن يصدر دوق توسكانا أوامره إلى السفن التوسكانية بالرسو في ميناء صيدا.

٥ ـ أن يزوّد دوق توسكانا فخر الدين بجواز سفر يسمح له بالذهاب إلى توسكانا وبمركبين أو ثلاثة لتبادل الرسائل بينه وبين الأمير وأن يهديه أربعة هواوين.

وبعد توقيع المعاهدة، بدأ فرديناند دوق توسكانا بتطبيق بنودها فوراً. وعندما توفي سنة ١٦٠٨ خلفه ابنه قوزما الثاني فسار على سياسة أبيه تجاه فخر الدين وأغدق عليه الأسلحة، وعجَّ ميناء صيدا بالسفن التجارية التوسكانية.

ورغم إحاطة المعاهدة بالسريّة التامّة، تمكن العثمانيون عبر جواسيسهم من الاطلاع عليها، وقرّروا معاقبة الأمير. وكُلّف والي دمشق أحمد حافظ باشا بإعداد حملة عسكرية لذلك.

* **حملة أحمد حافظ باشا**: يعود العداء بين فخر الدين ووالي دمشق إلى قيام هذا الأخير بعزل أنصار الأمير من مراكزهم في عجلون وحوران والجولان. وقد أعادهم الأمير إلى مراكزهم بالقوة. فحقد حافظ باشا عليه وراح ينتظر الفرصة المناسبة للانتقام.

إستعدّ الأمير للقتال بتجهيز القلاع والحصون بالسلاح والذخائر والمؤن، وبتعزيزها بالمقاتلين. وفي الوقت نفسه، حاول التفاوض مع الوالي عير بعض الوسطاء. لكن جهوده باءت بالفشل، خصوصاً بعد اجتماعه في الدامور مع أعيان البلاد حيث لمس منهم عدم الرغبة في القتال. فقرر مغادرة

لبنان إلى توسكانا، وسلّم الحكم إلى ابنه الأمير علي، يعاونه عمه الأمير يونس.

وفي العام ١٦١٣، هاجم العثمانيون الإمارة وحاولوا السيطرة على قلعتي بانياس والشقيف، ففشلوا. وعمدوا إلى الانتقام من الأهالي بحرق قراهم وبيوتهم ومزروعاتهم بعدما تكبدوا خسائر كبيرة في معارك بسري الأولى والثانية والباروك.

حاولت السيّدة نسب إنقاذ الموقف، فقصدت حافظ باشا مع ثلاثين من رجال الدين، وطلبت رفع الحصار عن القلاع وانسحاب جنود الوالي من الشوف. فوافق والي دمشق على ذلك مقابل دفع غرامة بلغت ثلاثماية ألف قرش، فقبض منها ٢٨٠ ألفاً، وأخذ السيدة نسب رهينة حتى يدفع باقي المبلغ.

وكان لحملة حافظ باشا ضد الإمارة المعنية نتائج سلبية تلخّصت بالتالي:

- إضطرار الأمير إلى ترك الإمارة ومغادرتها إلى أوروبا.
- تخلي الأمير فخر الدين عن بيروت وكسروان لعدوه اللدود ابن سيفا.
- تدمير دير القمر وحرق منازل المعنيين.
- حصول أحمد حافظ باشا على غرامة مالية، وأخذ والدة الأمير رهينة.

ورغم كل الخسائر فقد بقي الحزب القيسي في الحكم ممثّلاً بالأمير علي بن فخر الدين.

* **فخر الدين في أوروبا:** غادر الأمير المعني لبنان في أيلول (سبتمبر) ١٦١٣، ووصل إلى توسكانا في تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة نفسها. وكان برفقته زوجته خاصكية ومستشاره الحاج كيوان وخمسون رجلاً من حاشيته. وكان في استقباله الدوق قوزما الثاني.

وخلال إقامته في توسكانا، أجرى فخر الدين محادثات مع قوزما الثاني وطلب منه إمداده بدعم عسكري لمقاومة العثمانيين. فتردّد قوزما في البداية،

ثم عاد ووافق على الأمر بعدما عادت البعثة التي أرسلها إلى لبنان وقدّمت تقريراً أكّدت فيه على قوة فخر الدين ومناعة حصونه واستعداد أبناء الإمارة للقتال إلى جانبه.

إلاّ أنّ المفاوضات وصلت إلى طريق مسدود عندما رفض توزما الثاني أن يشارك في حملة عسكرية ضدّ العثمانيين بمساندة أوروبية، مصرّاً على أن يتولّى الحملة بمفرده. وهذا ما رفضه فخر الدين. ويقول الأمير في رسالة وجهها إلى اللبنانيين: «إن المفاوضة بين فريقين غير متساويين من حيث القوة ضرب من الاستجداء. وعليه فإني أشور عليكم أن تعتمدوا على أنفسكم أوّلاً، هذا إذا أردتم أن تنالوا استقلالاً محترماً ومركزاً مرموقاً بين الشعوب».
غادر فخر الدين توسكانا متوجهاً إلى صقلية حيث فشل أيضاً في مسعاه. وكان دوق الجزيرة يماطل في الاستجابة لطلبات الأمير.

في هذه الأثناء، تلقى الأمير كتاباً من والدته يتضمّن عفو الآستانة عنه، فعاد إلى لبنان في أيلول (سبتمبر) ١٦١٨. وإذا كانت جولته الأوروبية قد فشلت في تحقيق الأهداف الأساسية، فإنها حققت نتائج إيجابية على صعد أخرى؛ فإعجاب الأمير بما شاهده في إيطاليا من تقدّم اقتصادي وازدهار عمراني ورقي اجتماعي، دفعه إلى اصطحاب خبراء ومهندسين وبنائين ومزارعين إيطاليين معه إلى لبنان لتدريب أبنائه ومساعدتهم على النهوض بوطنهم في مختلف المجالات.

* **مرحلة التوسّع**: دأب فخر الدين، بعد عودته إلى لبنان، على اعتماد نهج سياسي ذات خطين: إعادة توحيد الإمارة، واسترضاء الباب العالي. والخط الثاني كان يتمّ عبر الرشوة والهدايا ودفع الأموال.

أمّا الخط الأول فكان لا بدّ أن يمرّ عبر الانتقام من خصومه الذين استغلّوا غيابه ليسيطروا على بعض أرجاء الإمارة، وفي مقدّمتهم يوسف سيفا. وقد سنحت له الفرصة لتصفية حسابه مع آل سيفا حين طلب إليه والي طرابلس عمر باشا الكاتانجي مهاجمة يوسف سيفا للمماطلته في تأدية الضريبة المفروضة عليه، وزاد الأمير عليها تعويضه عن الخراب الذي ألحقه ابن سيفا بالإمارة أثناء غيابه.

ولمّا تردّد ابن سيفا في تسديد الأموال، زحف الأمير فخر الدين بجيشه عام ١٦١٩ إلى بيروت، ومنها سلك الطريق الساحلي حيث سيطر على جبيل والبترون والكورة والضنيّة ليصل إلى عكار. وهناك حاصر ابن سيفا الذي هرب إلى حصن الأكراد والتجأ فيه. فخرّب الأمير قلاع آل سيفا وقصورهم، ولحق بابن سيفا ليحاصره في الحصن المذكور. إلاّ أنّ وساطة واليي حلب ودمشق أدّت إلى رفع الحصار مقابل ١٥٠ ألف قرش ونقل الحجارة من عكار بحراً إلى صيدا، ومنها إلى دير القمر لترميم قصورها، وذلك تحقيق للقَسَم الذي أطلقه: «وحق طيبة وزمزم والنبي المختار ما بعمّر الدير إلا من حجر عكار».

بعد ذلك، أعطاه والي طرابلس عمر باشا الكاتانجي التزام مقاطعتي جبيل والبترون وعيّن عليهما على التوالي أبا نادر الخازن والمقدم يوسف الشاعر. ثمّ نال التزام منطقتي عكار والضنيّة، واستغل فترة ضعف ابن سيفا واستولى على مقاطعة بشرّي.

وفي سنة ١٦٢٥ نال فخر الدين من الدولة العثمانية ولاية طرابلس التي بقي فيها ابن سيفا حتى وفاته في السنة نفسها باسم ولده حسن متعداً دفع الضريبة الخاصة بها، فاستجاب السلطان العثماني لطلبه.

واستعاد الأمير فخر الدين أيضاً المناطق التي كانت خاضعة لسيطرته قبل حملة أحمد حافظ باشا عام ١٦١٣، ومنها صيدا وصفد والبقاع وطرابلس.

وفي سنة ١٦٢٢ أقطعه السلطان العثماني سنجقي نابلس وعجلون لتصبح الطريق إلى فلسطين وشرق الأردن مفتوحة أمامه. لكن والي دمشق رفض تسليمه السنجقين، ونزامن ذلك مع انقلاب آل حرفوش على الأمير، على رغم عفوه عنهم بعد دعمهم لوالي دمشق سنة ١٦١٣. وتحالف هؤلاء مع والي دمشق مصطفى باشا وحشدوا جيشهم لمحاربة الأمير.

تجمّعت أسباب المعركة، وزحف والي دمشق على رأس جيش قوامه اثنا عشر ألف مقاتل باتجاه البقاع وانضمّ إليه يونس حرفوش وعمر ابن سيفا وأتباعهما.

ووصلت الأنباء إلى الأمير، فاتصل بحلفائه الشهابيين وجهز جيشاً قوامه ٤٠٠٠ مقاتل. والتقى الجيشان في ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٦٢٣ في عنجر، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين كان النصر فيها لمصلحة الأمير المعني، ووقع والي دمشق مصطفى باشا نفسه أسيراً بين يدي الأمير. لكن الأمير أحسن استقباله وأكرم وفادته وأطلق سراحه. فقدَّر الوالي نبل أخلاق الأمير وولاّه على البقاع ليصبح لبنان بكامله تحت سيطرة الأمير فخر الدين الثاني. وأنعم عليه بولاية غزة وسنجقية صفد وعجلون ونابلس.

إلاّ أن أمراء العرب في فلسطين عارضوا حكم فخر الدين لمقاطعاتهم وخاضوا ضده معارك عديدة انتهت بتخلي الأمير عن تلك المقاطعات، باستثناء صفد.

بعد عنجر، حصل تقارب بين السلطنة وفخر الدين الذي أقرّه السلطان مراد الرابع والياً على عربستان، من حلب إلى مصر، وذلك بناء على فرمان سلطاني. وردّ فخر الدين على ذلك بإرسال مئتي ألف قرش ذهباً إلى الباب العالي. ثم سار على رأس جيشه ليتسلّم زمام الأمور في المناطق التي منحه إياها السلطان.

* **نهاية فخر الدين**: لم يدم الوفاق طويلاً بين الآستانة والأمير فخر الدين، فقد أدّت الشكاوى المتكررة لدى السلطان ضد الأمير إلى سوء العلاقة بين الطرفين للأسباب التالية:

- حقد والي دمشق أحمد كجك، ووالي حلب على الأمير المعني.
- شكاوى الحزب اليمني المعروف بعدائه للمعنيين ضد الأمير.
- الاتهامات التي وجهها أعداء الأمير له وخصوصاً التنكر للمسلمين والتقرب من المسيحيين رغم عدم اعترافه بالطوائف وانتمائه اللبناني فقط.
- عدم قطع الأمير صلته بالأوروبيين وبابا روما.

دفعت هذه الأسباب السلطان مراد الرابع إلى الاقتناع بأن فخر الدين أصبح مصدر خطر على الدولة. وللقضاء عليه، كلّف والي دمشق أحمد كجك بتنفيذ المهمة.

وكان أحمد كجك قد عمل سابقاً لدى فخر الدين، وعلى معرفة تامّة بأوضاع الإمارة المعنيّة وأسرارها العسكرية، وغادر لبنان ناقماً بعد ارتكابه خطأً، وذهب إلى الآستانة فنال حظوة، وترقى في الوظائف حتى أصبح والياً على دمشق عام ١٦٣٢، وظلّ يحرّض ضد الأمير المعني ويحذر من علاقاته الأوروبيّة. ونجح الكجك في بث الشقاق بين أنصار فخر الدين، وانضم إليه أعداء الأمير من الحزب اليمني.

ووفقاً لأوامر السلطان، شنّ الكجك حملة برية كبيرة قادها بنفسه، وبمساندة قوّة بحرية من الأسطول العثماني بقيادة أمير البحر جعفر باشا. وهاجم الأراضي اللبنانية عام ١٦٣٣. فاستدعى الأمير مجلس الشورى في الإمارة لإقرار ما يجب عمله، فتقرّر أن يظهر الطاعة لأوامر السلطان، ويسلّم القلاع، أملاً في تسوية تقوم على تقديم مبلغ من المال. أما معاونوه فأشاروا عليه بضرورة المقاومة.

لكن قرار الأمير لم يبعد عنه كأس المواجهة. فكان الصدام الأول في سوق الخان حيث قتل بنجله الأمير علي في المعركة.

تأكّد فخر الدين من الهزيمة، على رغم أنه وزّع قوّاته على القلاع والحصون. وكانت تشنّ الغارات على الجيش العثماني ليلاً منزلةً به خسائر جسيمة. وفي النهار يظهر مقاتلوه على المرتفعات ويلوحون للعدو بسيوفهم، ويدعونه للقتال ويستدرجونه إلى مكامن نصبت له.

لكن هذا الوضع لم يدم طويلاً. فبعد تسليمه قلعتي صيدا وبيروت لقائد الأسطول العثماني وإعطائه مبلغاً كبيراً من المال، لجأ الأمير إلى قلعة نيحا فتبعه الكجك وحاول اقتحامها فلم يفلح. عندئذٍ لجأ إلى الحيلة، فأرسل من يسرّ له أنه إذا دفع له أربعمائة ألف قرش ولّى مكانه الأمير منصور ثاني أنجاله.

وافق الأمير على هذا الحلّ وأرسل ابنه المذكور إلى الباشا بهديّة مؤلفة من ستين جملاً محملة بالنقود. وبعد بضعة أيام أوفد الشيخ أبا خطّار الماروني بأربعمائة ألف قرش. فلما قبض الكجك المال قتل أبا خطّار وأرسل الأمير منصور إلى الآستانة.

وعندما لم يفلح الكجك في اقتحام قلعة نيحا، حيث اختبأ الأمير، توصل إلى معرفة مصدر المياه التي تصل إليها وسممها. فانتقل فخر الدين إلى مغارة جزين. ولمّا تأكد أنه خاسر لا محالة، استسلم مع أفراد عائلته أملاً في المثول أمام السلطان العثماني ونيل رضاه.

نقل الأمير فخر الدين أسيراً إلى الآستانة، وهناك استطاع إقناع السلطان ببراءته وأن يكسب رضاه بعد تأكيده له كذب الوشاة وصدق ولائه للدولة. لكن السلطان، حين علم بثورة ابن أخ الأمير فخر الدين، الأمير ملحم في الشوف، أمر بقتله وبقتل أفراد عائلته. ولم يسلم من أولاد فخر الدين إلا ابنه حسين الذي أبقاه السلطان لصغر سنه، وأدخله في حاشيته ليصبح في ما بعد سفيراً للدولة العثمانيّة في الهند. وقد تمّ قتل الأمير وأفراد عائلته في ١٣ نيسان (أبريل) ١٦٣٥.

* **الدولة في عهد فخر الدين**: حقّق الأمير المعني خلال عهده إنجازات عديدة ساهمت في تقدّم لبنان اقتصادياً وعمرانياً وعسكريّاً، ولا سيّما في المرحلة التي تلت عودته من أوروبا سنة ١٦١٨. ومن أبرز هذه الإنجازات:

١ ـ الجيش والقلاع: أنشأ الأمير فخر الدين جيشاً كبيراً تراوح عدده بين ٤٠ ألفاً و ٦٠ ألفاً. وتألف من الوطنيين والمرتزقة، وتولي قيادته اللبنانيون وأشهرهم الأميران يونس والشيخ أبو نادر الخازن.

هذا الجيش الذي نمّن الأمير من بسط نفوذه وتوسيع إمارته والانتصار على خصومه، جمع اللبنانيّين من كل الطوائف دون أي تفريق. وكانت مهمّته حفظ الأمن في الإمارة وجباية الضرائب. وكان مدرّباً بشكل جيّد، ومجهّزاً بالأسلحة الحديثة وموزعاً على القلاع الحصينة. وتألف من ثلاث فئات هي: الجيش الوطني، والمرتزقة، والجيش المساعد.

أما السلاح فكان البندقية والسيف والمدفع، وبعض السفن الحربية الصغيرة.

ورمّم فخر الدين القلاع القديمة وحصّنها لكي تستطيع الصمود في وجه أيّ هجوم قد تتعرّض له. وأبرز القلاع في لبنان البحصاص قرب طرابلس،

بعلبك، جبيل، جزين، سمار جبيل، شقيف أرنون، صيدا، وصور. وكانت له قلاع في الخارج كحصن الأكراد وتدمر وأنطاكية، والسلط في عجلون.

٢ ـ الإدارة والقضاء: اعتمد فخر الدين في إدارة البلاد على عدد من المستشارين من مختلف الطوائف اللبنانية، إلى جانب أقاربه، وخصوصاً السيّدة نسب، والدته، وأخاه يونس وابنه عليّ.

أما القضاء فقد تولاّه رجال الدين، وكانت صلاحيّاتهم تشمل القضايا المدنية والدينيّة والأحوال الشخصيّة. أما القضايا السياسيّة المهمة، فكان الأمير يشرف عليها مباشرة.

٣ ـ الاقتصاد: وكان يرتكز على الزراعة والتجارة:

أ ـ الزراعة: بعد عودته من أوروبا، جاء فخر الدين بمهندسين زراعيين من توسكانا للإشراف على تنظيم البساتين. وأحضر أنواعاً جديدة من المزروعات المختلفة. فنشطت زراعات، أبرزها التوت والزيتون والحبوب والفاكهة والخضار. وازدهرت أيضاً تربية دود القز لإنتاج الحرير الطبيعي. واهتمّ الأمير المعني بتربية الماشية فوزّع أعداداً منها على المزارعين.

ب ـ التجارة: لتأمين تجارة ناشطة وآمنة مع الدول القريبة والبعيدة، دأب فخر الدين على محاربة القراصنة وقطاع الطرق وتزوير العملة، وحسّن أوضاع المرافىء، وأقام الخانات فازدهرت التجارة. وكان لبنان يصدّر الزيت والصابون والقطن والحرير والحبوب ورماد القلي لصناعة الزجاج وغيرها.

٤ ـ العمران: نظّم فخر الدين المدن الرئيسيّة وأنشأ الحدائق والبساتين، وبنى القصور، معتمداً في ذلك على المهندسين الإيطاليين. وشملت اهتماماته أيضاً تحسين أوضاع المرافىء وشقّ الطرقات لتطوير شبكة المواصلات بين أنحاء البلاد، وأقام عدداً من الجسور.

٥ ـ العلم: شجّع فخر الدين مجيء الإرساليات الأجنبية إلى لبنان وتأسيس المدارس فيه. وكان أبرزها الإرسالية الكبوشية (١٦٢٠). وفي عهده، ازدهرت مدرسة روما المارونية التي خرّجت عدداً من المفكرين والأدباء والمترجمين ورجال الدين، أمثال إبراهيم الحاقلاني وجرجس عميرة ويوسف السمعاني.

نهاية المعنيّين

بعد استسلام فخر الدين الثاني للعثمانيين، تسلّم الحكم مكانه علي علم الدين اليمني. فبادر هذا إلى الغدر بالأمير يونس الذي استسلم له بعد وعد منه بالعفو عنه وعن ولديه، فأمر بتعذيبه حتى الموت. ونجا أحد ولديه، الأمير ملحم، الذي تمكّن من الفرار. وقضى علم الدين على الأسرة التنوخيّة فانقرضت.

لم يتحمّل أهل الشوف ظلم علي علم الدين، فتجمّعوا حول الأمير ملحم والأحزاب القيسيّة، وانتصروا على اليمنيّين في مجدل المعوش، وفرّ علي علم الدين إلى دمشق. وكان ذلك سبباً في مقتل الأمير فخر الدين الثاني وأولاده.

خشي الأمير ملحم من غدر العثمانيين، فتخلّى عن الحكم لمصلحة علي علم الدين. لكن ظلمه أثار عليه نقمة اللبنانيين، فاضطرّ العثمانيون لإعادة الأمير ملحم إلى الحكم. وحاول علي علم الدين استعادة الحكم بمساعدة بشير باشا، والي دمشق. إلاّ أن الأمير ملحم هزمه في وادي القرن، ففرّ إلى دمشق حيث سجنه الوالي.

أصلح الأمير ملحم علاقاته مع الولاة، فوسّع حدود إمارته، واستمرّ في الحكم، حتى وفاته سنة ١٦٥٨، إثر إصابته بالحمّى. وتولّى الحكم بعده ولداه قرقماز وأحمد اللذين حكما سويّا فوطّدا الأمن والاستقرار. إلاّ أن مؤامرات الولاة العثمانيين استمرّت في استهدافهما، لا سيّما بعد إنشاء ولاية صيدا التي كان دورها مراقبة أهل الجبل.

وبالغدر والحيلة، تمكّن والي صيدا محمد باشا الألباني من الإيقاع بالأميرين، فقتل قرقماز، وأصيب أحمد بجرح بليغ. لكنه تمكّن من الفرار والاختباء. وتسلّم الحكم محمد علم الدين.

وبعد عزل محمد باشا عن ولاية صيدا، عاد الأمير أحمد إلى الظهور، فجمع حوله القيسيّين وانتصر على آل علم الدين وتسلّم الحكم حتى العام ١٦٩٣. ثم عاد إليه بعد فترة قصيرة، وأصلح الأمور مع الباب العالي ووالي صيدا، وحكم حتى وفاته سنة١٦٩٧.

وبما أنه كان قد فقد ولده الوحيد سنة ١٦٧٩، فإن الأسرة المعنية انقرضت بموت الأمير أحمد، فآلت الإمارة إلى الأسرة الشهابيّة.

الفصل العاشر

الإمارة الشهابية

الإمارة الشهابية

(١٦٩٧ ـ ١٨٤٢)

أصل الشهابيين وعلاقتهم بالمعنيين

يعود أصل الشهابيّين إلى بني مخزوم من قبيلة قريش، وينتمون إلى مالك الحارث الملقّب بشهاب. تركوا الجزيرة العربية مع بداية الفتح العربي حوالي سنة ٦٢٣، واستقرّوا في منطقة حوران في قرية تدعى الشهباء، ثم انتقلوا سنة ١١٧٣ إلى منطقة وادي التيم إثر خلاف وقع بين صلاح الدين الأيوبي ومحمود نور الدين زنكي. وقد حارب الشهابيّون الصليبيّين، وسجلوا انتصارات عدة فنالوا رضى نور الدين زنكي.

هذه الانتصارات دفعت المعنيين إلى دعم الشهابيين. وتوطدت العلاقة بين الأسرتين المعنية والشهابية، نظراً لانتمائهما إلى القيسية، وترسخت أيضاً بالمصاهرة. وبلغت العلاقة أوجها في عهد الأمير فخر الدين الثاني الذي حظي بدعم الشهابيين له في كل معاركه، لا سيّما في معركة عنجر.

ويروي الأمير حيدر الشهابي أن بشير الأوّل، أوّل أمراء الشهابيّين قدم إلى الشوف منجداً الأمير أحمد المعني على قتال الأمير موسى علم الدين.

واستمرّت العلاقات وطيدة بين المعنيّين والشهابيّين حتى انتقلت الإمارة من آل معن إلى آل شهاب.

إنتقال الإمارة إلى الشهابيّين

بوفاة الأمير أحمد المعني انقطعت السلالة المعنية، وترك الباب العالي للبنانيين أن ينتخبوا من يشاؤون على كرسي الإمارة. فاجتمع أعيان البلاد في

بلدة السمقانية بالقرب من بعقلين، واتفقوا على انتخاب أمير شهابي من راشيا حاكماً على لبنان حفظاً لذكر السلالة المعنية، وهو الأمير بشير الشهابي ابن شقيقة الأمير أحمد المعني. وتمّ رفع القرار إلى والي صيدا ليرفعه بدوره إلى الآستانة مع التأكيد بأن الأموال الأميرية سترسل حالاً مع المتأخر منها.

لكن الباب العالي، وتحت تأثير الأمير حسن بن فخر الدين، دعا إلى إسناد الإمارة إلى الأمير حيدر الشهابي ابن ابنة الأمير أحمد المعني، تمشياً مع المبدأ الحقوقي الوراثي القائل بأن ابن الابنة هو أحق بالوراثة من ابن الشقيقة.

ولم يكن الأمير حيدر إذ ذاك يتجاوز الثانية عشرة من عمره. وبناءً على ذلك، قرّر الباب العالي أن يتولّى بشير الشهابي الحكم نيابة عن الأمير حيدر ريثما يبلغ سن الرشد.

الأمير بشير الأول (١٦٩٧ ـ ١٧٠٧)

إستلم الأمير بشير الأول الإمارة وجعل مقره في دير القمر عاصمة المعنيين القديمة، وقد تولى حكم المقاطعات التي كانت للمعنيين. ونهج العهد الشهابي على منوال أسلافه المعنيّين في الحفاظ على استقلال لبنان ووحدته، والعمل على توسيع حدود الإمارة. وأحسن معاملة الناس فالتفوا حوله. كذلك كانت له علاقات حسنة مع الولاة، فقدم الهدايا إلى والي صيدا وساعده في القضاء على الشيخ مشرف بن علي الصغير فولاه على جبل عامل وصفد، وقد عيّن عليها ابن أخيه الأمير منصور يساعده الشيخ عمر الزيداني القيسي. وتمكن الأمير في الشمال من حلّ الخلاف بين والي طرابلس ومشايخ آل حمادة، حكام بلاد جبيل والبترون، فأعادهم إلى مناطقهم وأشرف عليهم وتكفل بجباية الضرائب منهم.

وقد احتفظ الأمير بشير بولايته حتى عام ١٧٠٧ وتوفي مسموماً، أثناء قيامه بزيارة حاصبيا حيث استضافه الأمير نجم وتناول عنده الطعام والحلوى. ويقال إن السمّ دُسَّ له في الطعام وأن الذين كانوا يتولون أمر وصيه الأمير حيدر هم الذين سمموا له.

مات الأمير بشير الأول في صفد، ودفن في صيدا في مدافن بني معن. وانتقلت الإمارة إلى الأمير حيدر الشهابي.

الأمير حيدر (١٧٠٧ ـ ١٧٢٩)

إستلم الأمير حيدر الشهابي الحكم وكان عمره إحدى وعشرين سنة. في بداية حكمه طرأت ظروف أدت إلى تغيير سياسة الولاية في صيدا، فعُزل الوالي أرسلان باشا وعُيّن مكانه بشير باشا، فسلخ الوالي الجديد مقاطعة صفد وسلّمها لظاهر العمر. وسلخ أيضاً جبل عامل وسلّمه لآل الصغير. عندها أغدق الأمير حيدر الهدايا على والي صيدا وتمكن من استعادة مقاطعة جبل عامل، فواجه معارضة آل الصغير، ولكنه تمكن من إخضاعهم وتعيين الشيخ محمود أبو هرموش والياً عليهم. ولم يطل الوقت حتى راح أبو هرموش يسيء معاملة السكان. ولمّا استدعاه الأمير، فرّ إلى صيدا والتمس من واليها بشير باشا الحماية؛ فاستحصل له هذا الأخير على لقب باشا وعيّن الأمير يوسف علم الدين اليمني على الإمارة، وحرك اليمنيين ضد الأمير حيدر الذي اضطر إلى ترك الإمارة واللجوء إلى الهرمل، تاركاً عائلته في فتوح كسروان.

تميّز حكم الأمير يوسف علم الدين بالقساوة، فزاد الضرائب ونكّل بالقيسيين. عندئذٍ، كان لا بدّ من عودة الأمير حيدر، فعاد والتفّ حوله القيسيون، فيما جمع أبو هرموش الحزب اليمني، وطلب المساعدة من والي صيدا بشير باشا ووالي دمشق نصوح باشا، وتوجه إلى عين دارا حيث فاجأه الأمير حيدر.

معركة عين دارا

دارت في عين دارا معركة طاحنة أظهر فيها اللبنانيون تفوقهم. وانتهت بانتصار القيسية، وانهزام نصوح باشا وبشير باشا، فيما وقع محمود باشا في قبضة اللبنانيين. وقد قتل في هذه المعركة ثلاثة من أمراء علم الدين والكثير من أعوانهم، وأسر أربعة قتلهم الأمير حيدر في الباروك.

وأمر الأمير حيدر بقطع رأس لسان أبي هرموش وإبهاميه، ولم يقتله احتراماً للقب الباشاوية. أما الذين نجوا من هذه المعركة فهربوا إلى حوران حيث شكلوا النواة الأولى لجالية درزية هناك.

أبرز ما أسفرت عنه هذه المعركة كان توطيد دعائم السيادة الشهابية، والقضاء على النفوذ اليمني في لبنان، وبالتالي القضاء على الخلاف القيسي ـ اليمني بشكل نهائي.

وعمد الأمير حيدر على الأثر إلى تعزيز النظام الإقطاعي وبسط سيطرته على مختلف المناطق، واستولى على ما كان بحوزة اليمنيين، ثم أعاد توزيعها على الأسر القيسية الإقطاعية البارزة. ومنح الأمير هذه الأسر ألقاباً تميّز أبناءها عن عامة الشعب.

تزعّمت الأسرة الشهابية الأسر اللبنانية الإقطاعية وحمل أبناؤها لقب أمراء، وشاركهم في ذلك أسرتا آل أبي اللمع وآل أرسلان.

❀ ❀ ❀

تميّز عهد الأمير حيدر بالرخاء والعزّ، فعمد إلى تخفيض الضرائب، وضمن ولاء جميع الأسر الإقطاعية، فساد الأمن والاستقرار حتى اعتزاله سنة ١٧٢٩، ثم توفي بعد ذلك سنة ١٧٣٢.

الأمير ملحم (١٧٢٩ ـ ١٧٥٤)

إستلم الأمير ملحم الحكم عندما اعتزل والده الأمير حيدر عام ١٧٢٩، فواصل سياسة والده، وبدأ عهده تخفيض الضرائب ونشر العدل بين المواطنين. ثم توسّع في جبل عامل، شرق صور، حيث كانت تسكن جماعة من الشيعة. والسبب يعود إلى أن هذه الجماعة حاولت الخروج عن طاعة سعد الدين باشا والي صيدا بامتناعها عن دفع الضرائب. فطلب والي صيدا مساعدة الأمير ملحم الذي لبّى الطلب، ودارت معركة في قرية أنصار انتصر فيها الأمير الشهابي واعتقل عدداً من شيوخ المنطقة، ثم أطلقهم بعد تعهّدهم بدفع جزية سنويّة.

وفي سنة ١٧٤٨، تمكن الأمير ملحم من استرداد البقاع إثر معركة وقعت في بلدة بر الياس وأحرز فيها النصر على جيش أسعد باشا العظم والي دمشق، وأخي سعد الدين العظم والي صيدا. وتابع الأمير ملحم زحفه باتجاه بعلبك مستغلاً قيام أمير بني حرفوش بمساعدة أسعد باشا في معركة بر الياس، فدخل بعلبك سنة ١٧٤٤، وعزل الأمير حيدر ابن الحرفوش ونصّب أخاه الأمير حسين مكانه.

وفي العام ١٧٤٩ حصل خلاف بين الأمير ملحم ووالي بيروت التركي ياسين بك، فأوعز الأمير إلى الشيخ شاهين تلحوق بإثارة الاضطرابات في المدينة وحولها. عجز الوالي التركي عن ضبط الأوضاع وطلب مساندة والي دمشق الذي كتب إلى الأمير ملحم عارضاً عليه ولاية بيروت، فضمّها إلى إمارته.

وانصرف الأمير ملحم إلى تشجيع التجارة وبناء القصور، وفرض النظام وأقام العدل حتى أصيب بالمرض سنة ١٧٥٤، فاعتزل الحكم لمصلحة أخويه أحمد ومنصور في السنة نفسها. وانتقل إلى بيروت وأقام فيها حتى وفاته سنة ١٧٦١.

الأميران أحمد ومنصور

حكم الأميران أحمد ومنصور مجتمعين في البداية. وفي بداية عهدهما، اختلفا مع ابن أخيهما الأمير قاسم بعدما ولّي من قبل السلطنة على الشوف وتوابعه. واستطاع الأمير قاسم أن يدخل مدينة بيروت، فهرب عمّاه وتمكّنا من رشوة والي صيدا بالمال، فوافق على خلع الأمير قاسم وإعادتهما إلى الحكم.

بعد فترة من الحكم الثنائي، ظهرت الفتنة بين الأميرين (١٧٦٢)، إذ حاول كلّ منهما الاستقلال بالإمارة، الأمير منصور مستنداً إلى الجنبلاطية ومقره في بيروت، والأمير أحمد معتمداً على اليزبكية ومقره في دير القمر. وعزّز هذا الانقسام تجدّد الصراع بين اليزبكية بزعامة الشيخ عبد السلام عماد والجنبلاطية بزعامة الشيخ علي جنبلاط.

في هذا الجو، عزم الأمير منصور على مهاجمة أخيه وطلب المساعدة من والي صيدا محمد باشا العظم الذي حشد عسكره، وتوجها إلى دير القمر، فهرب الأمير أحمد إلى كفرنبرخ بعدما فشل في الحصول على الدعم اليزبكي. واستقلّ الأمير منصور بالولاية ونجحت الوساطات في إعادة الأمير أحمد إلى دير القمر من دون أن يكون له أي دور في إدارة شؤون الولاية.

شهدت البلاد في تلك الفترة سلسلة من الاضطرابات الأهلية، وتأثر لبنان بما جرى من أحداث في الشرق، وكان أكثرها أثراً في لبنان حركتا علي بك الكبير في مصر وظاهر العمر في فلسطين.

ولم يتمكن الأمير منصور من الحفاظ على سياسة الحياد التي كان يتبعها في بداية عهده، في حين برز الأمير يوسف ابن الأمير ملحم كزعيم للمعارضة ضد الأمير منصور، مدعوماً من والي دمشق عثمان باشا. فاضطرّ منصور للاستقالة سنة ١٧٧٠ لمصلحة خصمه الأمير يوسف.

الأمير يوسف (١٧٧٠ ـ ١٧٨٨)

تولّى الأمير يوسف الحكم في مرحلة كانت المنطقة تمرّ فيها بأحداث مختلفة، أبرزها حركتا علي بك الكبير في مصر وظاهر العمر في عكا، وبعده أحمد باشا الجزار.

وشهد لبنان في تلك المرحلة سلسلة من التطوّرات؛ فقد احتلّ ظاهر العمر صيدا، وحارب شيعة جبل عامل، ثم حالفهم، وتدخل في بيروت. أما الأمير يوسف الشهابي فتحالف مع والي دمشق، وتمكنا من استعادة مدينة صيدا من ظاهر العمر عام ١٧٧٥، فتراجع هذا الأخير إلى عكا. ثم أرسل العثمانيون أسطولاً بحرياً وحملة بريّة وضربوا حصاراً على عكا، فوقعت خيانة في جيش ظاهر العمر، وفرّ من المدينة. وفي الطريق قتله أحد جنوده. ودخل الجيش العثماني إلى عكا في ١٦ آب (أغسطس) ١٧٧٥، فقطع رأس ظاهر العمر وأرسله إلى اسطنبول ليُعلق على سور سراي السلطان. ووصل إلى الحكم بعده بوسني يدعى أحمد باشا، وقد لقّب بالجزار لتميّزه بالغدر والاستبداد والظلم والطمع.

وكان الأمير يوسف قد وسّع حدود إمارته إلى الشمال والبقاع، وعيّن أخاه سيد أحمد على البقاع، ثم عزله بعدما لمس منه عدم الإخلاص.

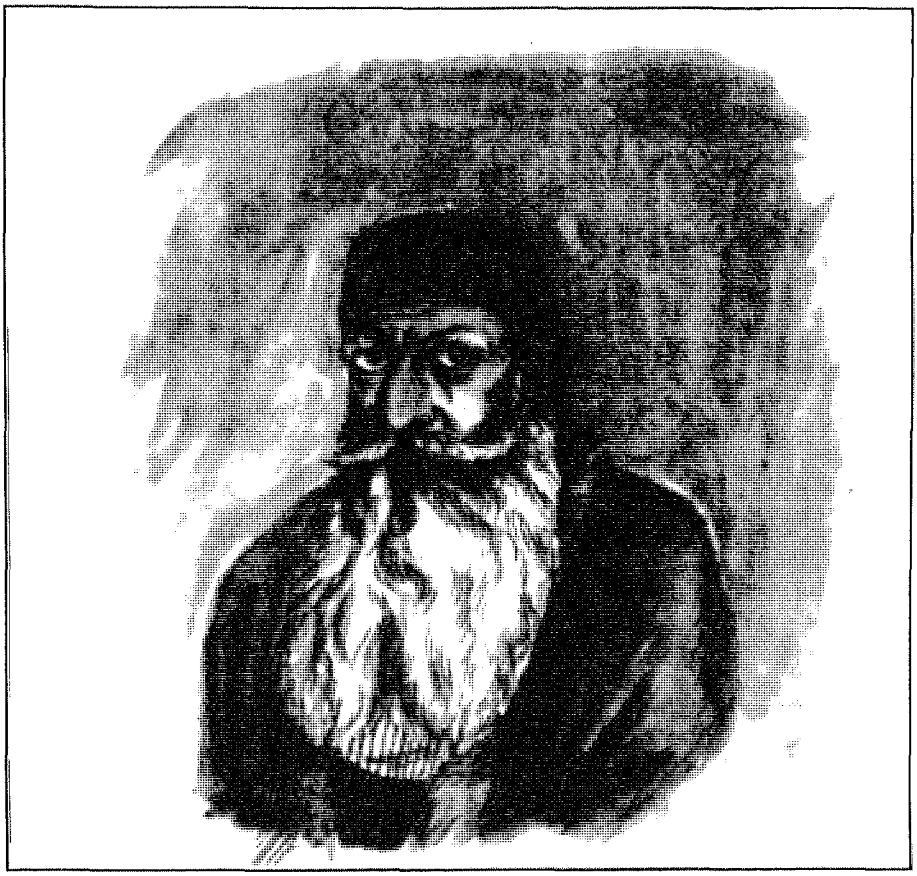
وعند وصول الجزار إلى الحكم، راح يفرض الضرائب الباهظة ويحرّك مطامع الأمراء وطموحاتهم، ضارباً الأحزاب بعضها ببعض، وجاعلاً من الحكم اللبناني ألعوبة بين يديه. واستمرّ اللبنانيون يعانون ظلمه حتى وفاته سنة ١٨٠٤.

تميّزت علاقة الأمير يوسف والجزار بالتشنّج؛ فعندما تسلّم الجزار ولاية صيدا راح يفرض الضرائب على الأمير، ويحرك ضده المعارضة، وأبرز وجوهها في تلك الفترة كانت من آل نكد، جنبلاط، أبي اللمع وأخوي الأمير يوسف، سيد أحمد وأفندي. ثم راح يعزله عن الحكم تارة، ويعيده إليه تارة أخرى. وأبرز ما سجل في هذا الصدد ما جرى في عامي ١٧٧٨ و ١٧٨٥.

ففي العام ١٧٧٨ عزل الجزار الأمير يوسف بعدما وُعد بالمال، وعيّن أخويه سيد أحمد وأفندي اللذين فرضا ضرائب إضافية أثارت نقمة الشعب.

وفي العام ١٨٧٥ ، ساند الجنبلاطيون شقيق الأمير يوسف سيد أحمد وخاله إسماعيل أمير حاصبيا الساعيين إلى استلام الحكم. لكن الأمير يوسف وعد الجزار بمليون قرش مقابل عودته إلى الحكم، فقبل وعاد الأمير إلى منصبه.

إلاّ أنّ النفور بين الرجلين برز من جديد، خاصة بعد معركة بر الياس (١٧٨٨) التي هزم فيها الأمير يوسف، فقرّر الاستقالة من منصبه وأعلم أعيان البلاد بذلك. واتفق الجميع، وبدعم من الجزار، على اختيار الأمير بشير خلفاً للأمير يوسف الذي انتقل إلى جبيل، فدمشق ومنها إلى عكا. وكاد يسترجع الحكم لولا تدخّل الجزار الذي أمر بسجنه في عكا، بإيعاز من الأمير بشير، ثم أمر بشنقه سنة ١٧٩١ مع مدبره غندور السعد.



الأمير بشير الثاني

بشير الثاني (١٧٨٨ - ١٨٤٠)

نشأته وتولّيه الحكم

الأمير بشير من مواليد غزير ١٧٦٧. هو ابن قاسم عمر شهاب، توفي والده وكان قد اعتنق المسيحية وهو في شهره الرابع. تزوجت أمه ثانية وأقامت في الحدث، فيما اعتنت خادمة أبيه بتربيته وشقيقه حسن، وسكنت في برج البراجنة قريباً من أمه. ثم انتقل الأمير بشير إلى دير القمر وعاش في كنف الأمير يوسف الذي اتكل عليه في المهمات الصعبة.

تزوج الأمير بشير من الست شمس، وهي أرملة شهابية غنية. ورزق منها ثلاثة أولاد هم: قاسم، أمين وخليل. وبعد موتها (١٨٢٩) تزوج شركسية تدعى حسن جهان، ورزق منها ابنتين كبيرتهما سعدى، وكان يحب أن يُكنى أحياناً بـ «أبي سعدى».

تولّى الحكم على رأس إمارة الجبل بعد استقالة الأمير يوسف سنة ١٧٨٨، واستمرّ في منصبه بين عزل وعودة حتى العام ١٨٤٠.

في عهد الجزار

لم ينعم الأمير بشير بالاستقرار والهدوء، في ظلّ سياسة الجزار المتقلبة التي انعكست اضطرابات داخلية، بعضها دموي. ففي العام ١٧٩٣، استدعى الجزار أولاد الأمير يوسف، حسين وسعد الدين وسليم، ليوليهم الإمارة. ثم استدعاهم مرتين خلال العامين ١٧٩٤ و ١٧٩٨ للغاية نفسها. وفي كلّ مرّة كانت تحدث خلافات ومعارك بين أنصار الأمير بشير وأنصار أبناء الأمير يوسف.

لكن حدثاً طارئاً في العام ١٧٩٨ غيّر لفترة من الزمن مسار الأمور في المنطقة. فقد احتلّ الأمبراطور الفرنسي نابوليون بونابرت مصر بعد انتصاره على المماليك. ثم توجّه نحو فلسطين وحاصر مدينة عكا. واتجهت قوات عثمانية وأسطول بريطاني إلى المنطقة لمساندة مدينة عكا في وجه الغازي الفرنسي.



الجزار في أحد مجالسه

وأثناء الحصار، وردت إلى الأمير بشير رسالة من بونابرت يطلب منه فيها مساعدته على فتح عكا. وتلقى طلباً آخر من الجزار لمساعدته على فكّ الحصار عن المدينة. لكن الأمير فضّل الحياد باعتباره خير موقف في تلك المرحلة. وكان القنصل البريطاني قد أبلغ الأمير بضرورة حياد الإمارة مقابل ضمانات بريطانية وأخرى من الصدر الأعظم بربط لبنان مباشرة بالباب العالي بعد فصله عن سلطة واليي دمشق وصيدا.

وأرسل بونابرت رسالة أخرى إلى الأمير بشير يعاتبه على عدم الاستجابة لطلبه، فوقعت الرسالة بيد الجزار فاطمأن للأمر. وفشل الحصار الفرنسي للمدينة وعاد بونابرت إلى القاهرة في حزيران (يونيو) ١٧٩٩.

في تلك المرحلة، أصدر الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا أمراً أجاز للأمير بشير ضمّ مناطق وادي التيم وبعلبك والبقاع وجبل عامل إلى الإمارة، وإلحاقه مباشرة بالباب العالي. فاستاء الجزار مما حصل، وأرسل جيشاً فعزل الأمير وعيّن مكانه أبناء الأمير يوسف. وانتقل الأمير بشير إلى مصر على متن بارجة بريطانية. وهناك التقى بالصدر الأعظم، ثم عاد إلى الحكم بعد بضعة أشهر، على أثر تدخّل الصدر الأعظم لدى الجزار. لكن الأمير بقي تحت سلطة والي عكا حتى وفاته سنة ١٨٠٤.

مرحلة استقلال

بعد وفاة الجزار، انصرف الأمير بشير إلى توطيد أركان حكمه وتقوية نفوذه. وعندما تسلّم سليمان باشا ولاية عكا، صادقه الأمير وأمدّه بالمال والرجال. ثم ساعد يوسف الكنج، والي دمشق، في مواجهة الوهابيّين حين اقتربوا في العام ١٨١٠ من الولاية. لكنه عاد وحارب الكنج نفسه عندما رفض تسليم مركزه للوالي الجديد سليمان باشا الذي عيّنه الباب العالي على دمشق والذي كان والياً على صيدا. واستطاع بشير إلحاق الهزيمة بالكنج وسلّم دمشق إلى الوالي الجديد.

وانصرف الأمير إلى الشؤون الداخلية فعيّن ولديه، الأمير خليل على البقاع والأمير قاسم على جبيل. كما عيّن علي بك الأسعد على عكار. ثم

ضمّ بيروت إلى الإمارة وقضى على مناوئيه من آل تلحوق وعبد الملك وأرسلان، كما قضى على خصومه الرئيسيّين أبناء الأمير يوسف.

إنتهت مرحلة الوئام مع عكا بعد موت سليمان باشا سنة ١٨١٩ وتسلّم عبدالله باشا الولاية مكانه. وأراد هذا إخضاع الأمير لنفوذه من خلال رفع قيمة الضرائب، واعتقال عدد من الرعايا اللبنانيين الذين كانوا في صيدا. فرضخ الأمير، وحاول جمع الضرائب لكنه ووجه بالاستياء من أهالي المتن وكسروان، فتنازل عن الحكم وتوجّه إلى حوران، واستلم الحكم مكانه الأميران حسن وسلمان شهاب. وفي عهدهما عمّت الفوضى أرجاء الإمارة فوافق عبدالله باشا على عودة الأمير بشير، فعاد في حزيران (يونيو) ١٨٢١. ولم يطل أمد هذه المرحلة الجديدة من حكمه؛ ففي العام ١٨٢٢، حاصر ولاية دمشق بطلب من عبدالله باشا. فاستاءت السلطنة من هذا الأمر ونقلت والي عكا من مركزه وولّت مكانه والي دمشق درويش باشا، وغادر الأمير البلاد مرّة جديدة تاركاً الحكم في يد أحد نسبائه ويدعى عباس شهاب.

بعد أقل من عام، نال بشير العفو من الباب العالي، وكذلك عبدالله باشا، بعد وساطة من والي مصر محمد علي. وعاد الاثنان إلى موقعيهما في الحكم. فانصرف الأمير إلى القضاء على من تبقى من خصومه، وفي مقدّمتهم حليفه السابق الشيخ بشير جنبلاط الذي عمل مع عباس شهاب على منع عودته من مصر. وبعد عودته، حاول الشيخ بشير استرضاءه بالمال، لكن الأمير رفض. فهرب الشيخ جنبلاط إلى حوران، وصادر الأمير أملاكه وهدم قصره في المختارة، دافعاً إياه إلى مواجهة عسكرية جرت في السمقانية سنة ١٨٢٥ حيث انتصر الأمير وهرب الشيخ إلى دمشق. لكن رجال عبدالله باشا تمكنوا من الإمساك به، وسجن في عكا لفترة ثم أعدم خنقاً. وقيل إن ذلك تمّ بطلب من الأمير بشير. إلاّ أنّ ما حدث كان نقطة تحوّل في العلاقات المسيحيّة - الدرزيّة ستكون لها عواقب سيئة على التعايش بين الجانبين في لبنان، وستؤدي إلى وقوع مجازر رهيبة يذهب ضحيتها الآلاف من القتلى.

في العهد المصري (١٨٣١ - ١٨٤٠)


إبراهيم باشا

*** الحملة المصرية على سوريا:** إستاء والي مصر محمد علي من السلطان العثماني الذي نكث بوعده له بإعطائه ولاية الشام تقديراً لخدماته العسكرية والمالية التي قدّمها له في حروبه في الحجاز سنة ١٨١٠ وضد اليونان سنة ١٨٢٧، وقرّر الاستيلاء على الولاية بالقوة بعد حصوله على موافقة فرنسا ودعم الأمير بشير.

زحف الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا، ابن محمد علي، على فلسطين وسيطر على غزة ويافا وحيفا، ثم حاصر عكا وأسقطها. وتابع تقدّمه بمساندة الأمير الشهابي فدخل دمشق وحمص وحماه وحلب، واستطاع تهديد الدولة العثمانية في عقر دارها وكادت تسقط لولا تدخّل الدول الأوروبية الكبرى ووقف إبراهيم باشا عند حدّه. وبموجب اتفاقية كوتاهية [١٥ أيار (مايو) ١٨٣٣]، انسحب إبراهيم باشا من الأناضول لقاء اعتراف السلطان بولاية محمد علي على كلّ من سوريا ولبنان وفلسطين وكريت وأدنة، بالإضافة إلى مصر.

*** الحكم المصري:** أبقى إبراهيم باشا على الأمير بشير في الإمارة وسلّمه المدن الساحلية، فيما أصبحت بيروت قاعدة للحكم المصري وعاشت فترة من الازدهار، ونشطت فيها التجارة، وأتت إليها البعثات الأجنبية وتطوّرت مدارسها. وأقام الأمير مستشفى الكرنتينا، وأرسل عدداً من الطلاب لدراسة الطب في القصر العيني في مصر.

في المقابل، كان محمد علي في حاجة إلى المال والجند لمواجهة العثمانيين، فارتفعت أسعار السلع في لبنان، وتمّ فرض التجنيد الإجباري والعمل بالسخرة. وطاول هذا الإجراء اللبنانيين فعبّروا عن استيائهم. ورفض الدروز نصائح الأمير بشير، الذي رضخ للمصريين، بتقديم ألف شاب للخدمة العسكرية. وكان أن نفّذت الإجراءات بالقوة، وشملت المسيحيين والدروز والمسلمين على حدّ سواء.

وتمادى المصريون في مطالبهم، ففرضوا على الأمير جمع السلاح من المواطنين فنفّذ الأمير ذلك في بعض المناطق، وتمّ جمع آلاف البنادق من بيت الدين وغيرها في أواخر العام ١٨٣٥.

أمام هذا الواقع المؤلم والبالغ في الظلم، لم يجد اللبنانيون أمامهم إلاّ الثورة لاستعادة كرامتهم وحريّتهم.

*** ثورة ١٨٤٠ ونهاية بشير الثاني**: عرفت مناطق لبنانية مختلفة ثورات ضدّ المصريين قبل العام ١٨٤٠، إلاّ أن الأمير بشير والمصريين أخمدوها بقوّة، وأبرزها ثورتا طرابلس ووادي التيم. لكن ثورة ١٨٤٠ كانت العامل الحاسم في إنهاء الاحتلال المصري للبنان، وبالتالي إنهاء عهد الأمير بشير الذي غدا في المرحلة الأخيرة أداة طيّعة بين يدي إبراهيم باشا، وراح ينفذ أوامره على رغم الأذى الذي كانت تسبّبه للبنانيين. وقد نسي هؤلاء خلافاتهم الماضية واتحدوا، مسيحيّين ودروزاً، في وجه الأمير والمحتلّ، وعقدوا اجتماعاً في دير القمر [أيار (مايو) ١٨٤٠] اتفقوا خلاله على عدم تسليم السلاح ورفض التجنيد. وأقسموا على المقاومة بالقوة. ورفع وفد منهم مذكرة بالمطالب إلى الأمير رفضها المصريون.

إجتمع أعيان البلاد ثانية في كنيسة مار الياس في انطلياس [٧ حزيران (يونيو) ١٨٤٠] وأقسموا اليمين على العمل يداً واحدة بقيادة الشيخ فرنسيس الخازن للدفاع عن حقوقهم وتحقيق الاستقلال. وانطلقت الثورة في عدد من المناطق. إلاّ أن تفوق المصريين بالسلاح والعناصر المدرّبة جعل المعركة تفقد عنصر التكافؤ، فانهزم الثوار وتشتّت شملهم.



من جنود إبراهيم باشا

في هذا الوقت، كانت الدول الأوروبية والدولة العثمانية تراقب الوضع عن كثب. وانعقد مؤتمر دولي في لندن، حضره مندوبون عن إنكلترا والنمسا وروسيا وبروسيا والسلطنة العثمانية، وقاطعته فرنسا التي كانت تؤيد المصريين. وتمّ الاتفاق على إخراج المصريين من لبنان وسوريا وفلسطين. وراحت هذه الدول تمدّ الثوار بالسلاح، ووصل الأسطولان الإنكليزي والنمساوي إلى شواطىء بيروت، ووقعت معارك عنيفة تخلّلتها أعمال قصف بحري لمواقع المصريين الذين انهزموا مع نهاية صيف تلك السنة.

إستسلم الأمير بشير إلى الأسطول البريطاني وتمّ نفيه إلى جزيرة مالطة ومنها إلى الأناضول حيث أمضى بقية عمره وتوفي في ٢٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥٠.

دولة بشير الثاني

الجيش

بني الأمير بشير جيشاً قوياً، تألف من الخيالة والمشاة، وكانت أسلحته من السيوف والخناجر والفؤوس والبنادق والمدافع الصغيرة. وأنشأ جيشاً

خاصاً من الخيّالة والحوّالة. وانحصرت مهمة الفرسان في مرافقة الأمير وتنفيذ أوامره. أمّا الحوّالة فتولّت الحفاظ على الأمن وجباية الضرائب. وكان في استطاعة الأمير أن يجمع جيشاً من ١٥ ألف محارب.

الأمن

إستخدم الأمير القسوة من أجل تحقيق الأمن؛ فطارد قطاع الطرق في البرّ والقراصنة في البحر، وضرب اللصوص ولاحق المجرمين، فساد الأمن والنظام في البلاد؛ وراح الناس يتنقلون بحرية وطمأنينة في الليل والنهار.

العدالة والقضاء

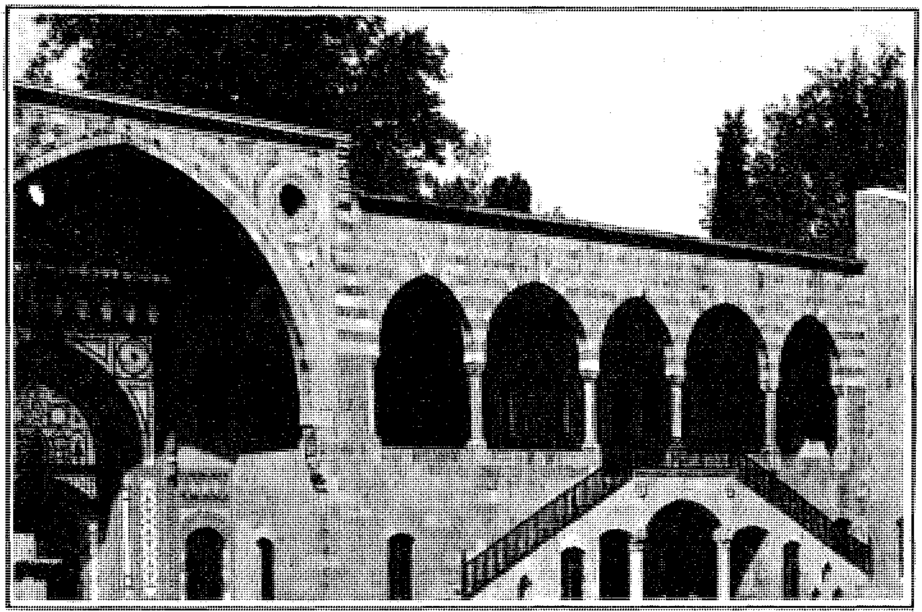
وصف الأمير بشير بالمستبدّ العادل، وكان يحكم في الدعاوى السياسية والجنائية وفي الدعاوى الصعبة بين شخصين من طائفتين مختلفتين. وترك القضايا المدنية لحكم رجال الدين. وكان قضاة مدنيون يحكمون في القضايا التي تخرج عن صلاحيات رجال الدين. ولتنظيم القضاء، اختار الأمير عدداً من الشبان وأرسلهم ليتعلّموا القوانين في أفضل المدارس.

العمران

من أبرز انجازات الأمير بشير الثاني في مجال العمران بناء قصر بيت الدين الذي اشترك في إنجازه بناؤون من الشوير وعمال من حلب ودمشق لصقل الرخام وصنع الفسيفساء. وقد استغرق العمل به نحو أربعين عاماً. وجرّت المياه إلى القصر من نبع الصفا في قناة بلغ طولها تسعة أميال. وربط القصر بالقرى المجاورة عبر بعض الطرقات التي شقّت بتخطيط هندسي.

العلم

شجّع الأمير على بناء المدارس والمعاهد الثقافية، وسمح للإرساليات الأجنبية بدخول لبنان. وفي مطلع عهده، حوّل البطريرك يوسف إسطفان دير القديس أنطونيوس في عين ورقة إلى معهد للاهوت، ثم إلى معهد ثقافي عالٍ لعموم أبناء الطائفة المارونية. ومن هذا المعهد تخرّج عدد من أعلام الفكر، أمثال المطران يوسف الدبس ورشيد الدحداح وبطرس البستاني. وساهم انتشار المدارس في نشر العلم والثقافة في الوسط الشعبي.



قصر بيت الدين

بشير الثالث ونهاية الإمارة

بعد خروج المصريين من لبنان واستسلام بشير الثاني، عمدت الدولة العثمانية وبعد التشاور مع حلفائها الأوروبيين إلى عزل الأمير الشهابي وتعيين بشير قاسم ملحم (بشير الثالث) أميراً على جبل لبنان. وقد شكّلت فترة حكمه مرحلة انتقالية بين نهاية الإمارة والحكم العثماني المباشر على لبنان.

كان العثمانيون يتحيّنون الفرص لوضع حدّ لاستقلال أمراء الجبل، خاصة بعد تجاربهم المريرة مع فخر الدين الثاني في ما مضى، ومن ثم مع بشير الثاني، الذي تحالف مع عدو الدولة العثمانيّة اللدود إبراهيم باشا. وللأسف أتى حكم بشير الثالث في مرحلة كانت البلاد بحاجة إلى شخصيّة قويّة تستطيع الوقوف في وجه الأحداث الداخلية التي أثارها المناصب ورجال الإقطاع، واتخذت طابعاً طائفيًا، وتستطيع كذلك أن تضع حداً لتدخلات السلطنة العثمانيّة، وسعيها الدؤوب إلى وضع اليد على إدارة وتوجهات الجبل

السياسيّة. فبشير الثالث هذا، لم يرضِ أحداً من الأفرقاء، لا داخل لبنان ولا خارجه.

في الداخل، كانت لدى الدروز نقمة كبيرة على الأسرة الشهابيّة لأسباب متعددة، تبدأ بتنصر العائلة أو على الأقل حكامها، وتنكّرهم للمذهب الدرزي الذي كان هو مذهب الحاكم منذ أيالم المعنيّين. وكون الأمير في الأساس هو أمير «جبل الدروز»، والدليل أنه في فرمان تعيين بشير الثالث وردت عبارة «أمير جبل الدروز».

إذاً، كانت الخلافات تبدأ من هنا وتمرّ بالوضع الذي خلفه بشير الثاني وراءه، من قضائه على الشيخ بشير جنبلاط، إلى عزل العديد من المناصب والمشايخ. وهذه التراكمات وجدت متنفسها في رفض استمرار الأمراء الشهابيين على رأس السلطة. وتذكر المراجع المتعددة أن الدروز طالبوا العثمانيّين بتعيين حاكم عثماني سنّي بدلاً من الأمير الشهابي.

في الجهة الأخرى، لم يستطع بشير الثالث أن يحوز على رضى الموارنة أو الكنيسة، فكان ينتقد رجال الدين والبطريركيّة ولا يحاول أن يأخذ بمشورتها، إن حاولت أن تسدي إليه المشورة أو النصيحة، وقد حاولت دون جدوى. وعندما اقتنع بصواب نظرتها إلى الأمور كان الوقت قد أصبح متأخراً ولم يعد الندم مفيداً.

ووصل الأمر بعد انتفاضة الدروز في وجه بشير الثالث إلى أن حاصروا مقرّه في دير القمر، ولما حاول طلب جيش من المسيحيّين التوجه إلى هناك لفك الحصار وانقاذ ما يمكن إنقاذه، تخلّف هذا الجيش وبقي في بعبدا بحالة من التردد والجمود.

وأمام هذه الأحوال الصعبة، وجدت السلطنة فرصتها الضائعة في ظلّ الانقسام الداخلي، فنفذت من هذه الثغرة، وأقالت الأمير، وعينت مكانه ضابطاً في عداد جيشها، ويدعى عمر باشا النمساوي، حاكماً على جبل لبنان في أوائل سنة ١٨٤٢.

ولاية عمر باشا

خدم هذا الرجل الذي ينتمي إلى أصول مجرية في الجيش العثماني كضابط خلال الحملة التي شنتها «الدولة العليّة» لتحرير بلاد الشام من الاحتلال المصري.

وقد عُيّن على رأس إدارة الجبل بعد تنحية بشير الثالث واستقرّ في بيت الدين. لكنهَ لم يستطيع أن يحوز على ولاء الدروز أو المسيحيّن، رغم أنه حاول جاهداً أن يستميل إليه أحد الفريقين المتنازعين.

ولمّا عجز عن ذلك، راح يلعب بالتناقضات القائمة ويذكي الخلافات الموجودة، وذلك بهدف إضعاف الفريقين معاً فيسهل له حكم الجبل. وعلى جانب آخر، كانت الكنيسة المارونيّة لا تزال متمسكة بفكرة إعادة أحد أمراء الأسرة الشهابيّة إلى حكم جبل لبنان، لكنها ستواجه بالرفض القاطع من قبل الباب العالي.

وإزاء ارتفاع موجة رفض الفئات المارونيّة والدرزية، تحرك سفراء الدول الأوروبيّة وطالبوا الصدارة العظمى عبر وزارة الخارجيّة بإقالة عمر باشا النمساوي من منصبه، وإيجاد حكم ملائم لجبل لبنان يبتعد عن فكرة الإدارة المباشرة، كون ذلك كان مرفوضاً من قبل الجميع. فكان الجواب في نظام جديد عرف بنظام «القائمقاميّتين».

الفصل الحادي عشر

القائمقاميتان

نشأة النظام

بعدما فشل عمر باشا النمساوي في تثبيت حكمه على لبنان، استدعاه الباب العالي. وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٢، عقد اجتماع حضره مسؤولون عن الدول الأوروبية الكبرى والدولة العثمانية، تقرّر في ختامه تطبيق نظام جديد في لبنان الذي يقسم بموجبه إلى قائمقاميتين، شمالية على رأسها قائمقام مسيحي، وجنوبية على رأسها قائمقام درزي. ويكون الاثنان تابعين لباشا صيدا المقيم في بيروت والذي يملك صلاحية اختيار القائمقامين. وقد عيّن الأمير حيدر أبي اللمع قائمقاماً على المنطقة الشماليّة، والأمير أحمد أرسلان قائمقاماً على المنطقة الجنوبية.

أبقى هذا التقسيم على عوامل عدّة سيكون لها الدور الأساسي في عودة الاضطرابات بين المسيحيّين والدروز، لأنه ترك أقليّات مسيحيّة في المنطقة الدرزية وأخرى درزية في المنطقة المسيحيّة. أما دير القمر فقد خضعت لنظام خاص وتولّى إدارتها موظف تركي.

تضاف إلى هذه المشكلات قضية إطلاق سراح الزعماء المسجونين والمحافظة على حقوق الإقطاعيين الدروز. فالأمير أحمد أرسلان ظلّ يطالب السلطنة من خلال واليها في بيروت بهاتين القضيّتين وإيجاد حلّ سريع لهما، مظهراً استياءه من تباطؤ السلطنة في هذا المجال، فأقاله والي بيروت وسجنه مع بقية الزعماء. وحاول تعيين بديل له فجوبه بمقاطعة درزية شاملة، واضطر للتراجع عن موقفه وإعادته إلى السلطة.

وفي القائمقامية المسيحية، برزت مشكلة تمثيل الأمير حيدر أبي اللمع؛ فهو من جهة قائمقام على المناطق المسيحية، ومن جهة ثانية اعتبر

في نظر السلطنة قائمقاماً على الموارنة فقط، وذلك بغية استرضاء الأرثوذكس الذين استمروا في مطالبتهم بقائمقامية خاصة بهم. وتمّ فصل جبيل والكورة وإهدن وبشري عن القائمقامية المسيحية بحجة أن هذه المناطق لم تكن ضمن الإمارة في السابق، ثم أعيدت إليها بعد سلسلة من الاحتجاجات.

الاضطرابات

كان عهد القائمقاميتين مضطرباً في شكل عام، وقد سادت فيه الخلافات الطائفية بين المسيحيّين والدروز. فالأقلية المسيحيّة رفضت الخضوع للقائمقام الدرزي والأقليّة الدرزية رفضت الخضوع للقائمقام المسيحي. ووصلت الانقسامات إلى داخل الطوائف نفسها، بين المسيحيين أنفسهم وبين الدروز أنفسهم.

ولم تقف الدول الأوروبية على الحياد، بل ساهمت كل دولة من الدول الكبرى في دعم طائفة على حساب الطوائف الأخرى. ولم يكن دور العثمانيّين بأقل جرماً.

وفي العام ١٨٤٥، حدثت اضطرابات واسعة بين المسيحيّين والدروز، وحدثت أعمال شغب وسلب ونهب في بعض قرى الشوف، وقتل العديد من الأشخاص من الجانبين.

وأمام إلحاح الدول الكبرى، أرسلت الدولة العثمانية وزير خارجيتها شكيب أفندي إلى بيروت لوضع حدّ للأحداث الجارية.

تنظيمات شكيب أفندي

بدأ شكيب أفندي عمله بإقالة القائمقام أحمد أرسلان من منصبه وعيّن مكانه شقيقه أمين. وجمع السلاح من مناطق الجبل، ووزع مبالغ ماليّة على المسيحيّين كتعويض عن خسائرهم المادية. وعهد إلى أصحاب الإقطاعات بقمع الاضطرابات. وشكّل لكلّ قائمقامية مجلساً برئاسة القائمقام وعضوية نائب عنه وقاضٍ وممثل لكل طائفة من الطوائف التي ينتمي إليها سكان القائمقامية. وأصبح هؤلاء موظفين يتقاضون رواتب محدّدة.

ثورة الفلاحين

قامت الثورة سنة ١٨٥٨ ضدّ السلطة الإقطاعية، وقادها طانيوس شاهين من بلدة ريفون. وكانت تهدف إلى إنهاء النظام الإقطاعي وتخفيض الضرائب وإعطاء الفلاحين المزيد من الحقوق التي تتيح لهم العيش بكرامة بعيداً عن الفقر والجوع وتسلّط رجال الإقطاع ومعاملتهم السيئة. وشملت الثورة معظم قرى كسروان، وخصوصاً جونيه وزوق مكايل وعجلتون وريفون وفيطرون وميروبا وكفرذبيان والقليعات وبقعاتا وعشقوت. واستطاعت الثورة أن توحّد الروابط بين القرى والبلدات، وحاولت تنظيم نفسها عن طريق جمع الأموال لتأمين متطلباتها. واستطاع الثوار طرد الإقطاعيين من قصورهم وأملاكهم، وخصوصاً آل الخازن، واستثمروا أشجار التوت. وحصلت تعديات في بعض القرى الكسروانية.

تدخّلت البطريركية المارونية لإيجاد حلّ ما يرضي الطرفين. وتمّ التوصّل إلى اتفاق يلغي بعض امتيازات الإقطاعيّين وأعمال السخرة، ويحسّن معاملة الفلاحين خلال حياتهم اليومية والعمليّة. وتضمّن الاتفاق إشراك الفلاحين في المشاعات ضمن مناطق الجرد الكسرواني. وفي المقابل، استعاد آل الخازن أملاكهم من أيدي الثوار.

من هو طانيوس شاهين؟

يبقى طانيوس شاهين الذي تولى قيادة الثورة في كانون الأول ١٨٥٨ واحداً من أكثر شخصيات عهد القائمقاميتين بروزاً. وقد ولد في ريفون سنة ١٨١٥ وتوفي فيها أيضاً مغموراً منسيّاً عام ١٨٩٥.

تميّز بإرادة قوية وصلبة وذهن متّقد وتمتّع بثقة الأهالي فحقق نفوذاً كبيراً في أوساطهم. لكن أساليبه وخططه السياسية أثارت الجدل والحيرة. ولجأ بعض الأحيان إلى إسناد حججه إلى البطريرك مسعد لإعطائها دعماً معنوياً. علماً بأن البطريرك لم يكن راضياً كثيراً عن تصرفاته. بدأ حياته العامة داخل الثورة كوكيل على بلدته ريفون ثم أصبح وكيلاً على قرى كسروان الجردية. واشتهر بعدائِهِ الشديد للمشايخ.

حوادث ١٨٦٠

أ ـ الأسباب: ساهمت عوامل مختلفة في وقوع هذه الحوادث، أبرزها:

ـ اضطرابات العلاقات المارونية ـ الدرزية على مدى نحو أربعين عاماً سبقت تلك السنة. ومما زاد في هذا الاضطراب عدم مشاركة الفلاحين الدروز في ثورة ١٨٥٨ التي اقتصرت على القائمقامية المسيحية فقط.

ـ سعي السلطنة العثمانية الدائم إلى القضاء على استقلال لبنان الذاتي وإلغاء شخصيته الخاصة.

ـ محاولات الدول الأوروبية للسيطرة على مناطق نفوذ داخل السلطنة، انطلاقاً من مصالح سياسيّة مغلفة بشعارات اقتصادية وتجارية وثقافية.

ب ـ الحوادث: في ١٥ آب (أغسطس) ١٨٥٩، وقع خلاف بين ماروني ودرزي في بلدة بيت مري، وتطوّر إلى اشتباكات سقط بنتيجتها ٣٢ قتيلاً من الطرفين. وراح الطرفان يستعدان وسط تزايد موجة الحقد والتحريض التي شاركت فيها السلطنة العثمانية.

ولم يطل الوقت حتى انفجر الوضع، وراحت الحوادث تنتقل من منطقة إلى أخرى موقعة الضحايا من الأطفال والنساء والشيوخ، تحت أنظار العسكر العثماني الذي كان يتفرّج على مجازر كانت تتمّ أمام مرأى منه. حتى أن الجنود العثمانيين كانوا يسهّلون أحياناً حدوث هذه المجازر، وكانوا أحياناً يشاركون فيها. وشملت الحوادث مناطق صيدا والمعاملتين والمديرج وزحلة ودير القمر وحاصبيا وراشيا وجزين وقرى عديدة في المتن وكسروان.

وحصلت اتصالات بخورشيد باشا، والي بيروت، من قبل مطران بيروت الماروني طوبيا عون للتدخّل. وساهم بعض العقلاء الدروز في منع المعتدين من أبناء طائفتهم من مهاجمة بعض قرى المتن، كرأس الحرف والكحلونية وغيرهما.

وكان العثمانيون يرسلون بين الحين والآخر قوة عسكريّة إلى مناطق الاضطرابات لرفع العتب فقط. وغالباً ما كانت تشارك هذه القوات في دعم الدروز ضد المسيحيّين.

التدخل الأوروبي

أمام هول المجازر التي حدثت، تحرّك الضمير الأوروبي، ودعت الدعول الكبرى إلى عقد مؤتمر دولي لمعالجة الوضع، بمشاركة الدولة العثمانية. وشارك في المؤتمر أيضاً مندوبون عن بريطانيا وفرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا. وبرز توجّه فرنسي يدعو إلى التدخل المباشر. وبعد سلسلة من المشاورات، أرسلت فرنسا حملة عسكرية إلى لبنان بقيادة الجنرال De Beaufort d'Hautpoul على رأس سبعة آلاف جندي وضابط. وحدّدت مدّة انتدابها بستة أشهر، على أن يؤمن الباب العالي تمويلها. وأكّدت الدول الأوروبية التي وافقت على الحملة الفرنسيّة أن الممارسات التركية الرسمية التي قام بها المسؤولون والموظفون الأتراك هي التي حتمت عليها تغطية الخطوة الفرنسيّة والمشاركة في الحملة بستة آلاف جندي، ليصبح مجموع القوة المشاركة ١٢ ألف جندي.

ووصل فؤاد باشا، وزير الخارجية العثمانية، إلى بيروت حيث عزل خورشيد باشا محمّلاً إياه مسؤوليّة ما جرى في بعض قرى المتن الجنوبي. كما عزل والي دمشق. وزجّ بعض زعماء الدروز في السجن من الذين اعتبروا مسؤولين عن المجازر المرتكبة. وكلّف لجاناً من المخمنين لكي يزوروا المناطق التي شهدت الأحداث ويعدّوا التقارير عن حجم الخسائر، ليصار إلى التعويض على أصحاب الحقوق.

وبعد بداية انتشار الجيش الفرنسي بين بيروت ودير القمر، هرب العديد من المشايخ الدروز الذين شاركوا في الأحداث إلى حوران وجبل الدروز. واتفق على لجنة دولية في بيروت لوضع حلّ للأزمة اللبنانية عبر استبدال نظام القائمقاميتين بنظام آخر يعيد الأمن والاستقرار إلى الجبل.

الفصل الثاني عشر

المتصرفية

نشأة النظام

إجتمع مندوبو الدولة العثمانية والدول الأوروبية الكبرى (فرنسا، بريطانيا، روسيا، بروسيا، والنمسا) لإيجاد حلّ للأزمة اللبنانية على أثر حوادث ١٨٦٠. فطرحت روسيا تقسيم لبنان إلى ثلاث مقاطعات، فعارضت ذلك الدول الأخرى. ورفضت الدولة العثمانية اقتراحاً فرنسياً بعودة الشهابيين إلى الحكم. وأخيراً، تقدّم مندوب بروسيا بمشروع يقضي بتعيين حاكم مسيحي من قبل السلطنة، هادفاً منه إلى وضع حدّ للتجاذبات الحاصلة، وإلى منع السلطنة من وضع اليد المباشرة على الجبل. وانتهت الاجتماعات برفع مشروعين جديدين إلى الباب العالي ليختار أحدهما بديلاً لنظام القائمقاميتين. فتمّ اختيار النظام القاضي بتعيين حاكم واحد على لبنان وعدم تقسيمه إلى مناطق.

أقرّ النظام الجديد في ٩ حزيران (يونيو) ١٨٦١، وبموجبه أصبح لبنان «متصرفية» يتولّى إدارتها حاكم مسيحي عثماني يعيّنه الباب العالي ويكون مرجعه إليه. ثمّ عدّل هذا النظام في ٩ أيلول (سبتمبر) ١٨٦٤، وأصبح لبنان بموجبه مقسّماً إلى سبعة أقضية هي: الشوف، المتن، كسروان، البترون، الكورة، جزين، وزحلة. وأضيفت إليها مديرية مستقلّة هي مديريّة دير القمر. وقسّمت الأقضية السبعة إلى مديريّات. وعرف هذا النظام بـ «بروتوكول ١٨٦٤».

تقويم النظام

كان لبروتوكول ١٨٦٤ حسنات وسيئات مختلفة، يمكن إيجازها كما يلي:

أ ـ الحسنات:

ـ ألغى امتيازات الإقطاعيين ومنح حقوقاً متساوية لجميع الرعايا اللبنانيين من مختلف الدرجات.

ـ أعاد وحدة لبنان وجعله بلداً مستقلاً على رأسه حاكم فرد بضمانة الدول الكبرى فرنسا، بريطانيا، روسيا، بروسيا والنمسا. وانضمت إليها إيطاليا سنة ١٨٦٨.

ـ أقرّ اعتماد الانتخابات على الطريقة الديمقراطية في تأليف المجلس الإداري الكبير، الذي أصبح ذا صفة تمثيلية ينوب بها عن الشعب في تصريف شؤون الحكم.

ـ جعل القضاء مستقلاً وقائماً بنفسه.

ـ أقرّ فصل الجندية في لبنان عن الجندية العثمانية فصلاً تاماً، ومنع العسكر السلطاني من دخول لبنان إلاّ بطلب من المتصرف.

ب ـ السيئات:

ـ كان نظاماً مرتجلاً وموضوعاً من غير رويّة وتعمّق.

ـ جعل الحاكم غريباً ومدّته محدودة ومرجعه اسطنبول.

ـ أتاح للمتصرّف التصرّف على هواه بمقدرات البلاد، فاستغلّ بعض المتصرفين ذلك من أجل تحقيق مصالحهم الشخصيّة.

المتصرّفون

تعاقب على حكم لبنان بموجب البروتوكول ثمانية متصرفين مسيحيّين. وبعد نشوب الحرب العالمية الأولى، ودخول الجيش العثماني إلى لبنان، عيّن جمال باشا ثلاثة متصرفين مسلمين. ودام عهد المتصرفيّة حتى العام ١٩١٨، تاريخ انسحاب العثمانيين من لبنان ودخول الحلفاء إليه.

* داود باشا (١٨٦١ ـ ١٨٦٨): بدأ عهده بمواجهة بعض الصعوبات، لا سيّما في التعاطي مع القائمقام السابق للمنطقة الشمالية يوسف بك كرم.

فحاول إرضاءه لكنه رفض، فتدخّلت الدولة العثمانية ونقلت كرم إلى اسطنبول. ثم عاد بعد فترة وفضل اعتزال العمل السياسي. إلاّ أن الوضع بين الرجلين انفجر نتيجة عدم اعتراف الشماليين بحكومة داود باشا. وجرت مناوشات بين الطرفين إلى أن تدخّلت فرنسا معلنة حمايتها ليوسف بك كرم، فسافر إلى الجزائر، ثم إلى مرسيليا، ومن هناك إلى بلجيكا فإيطاليا حيث توفي سنة ١٨٨٨. بعد نهاية ولاية داود باشا في العام ١٨٦٤، أدخلت تعديلات على نظام ١٨٦١، وجدّدت ولايته خمس سنوات عمل داود باشا خلال عهده على تنظيم الدوائر والأقلام وترتيب مجالس المحاكمة والوكلاء وتعيين حكام الأقضية. شكّل فرقة عسكرية من ١٥٠٠ جندي وقسّمها إلى فرسان ومشاة. إشترى سراي دير القمر، ثم قصر بيت الدين وجعله مقرًّا صيفيًّا لحكمه. ثم أنشأ مطبعة في بيت الدين وجريدة «لبنان» التي كانت تصدر بالعربية والفرنسيّة. كما أنشأ عدداً من المدارس الحكومية المجانية ومدرسة للطائفة الدرزية في عبيه.

في أواخر ولايته الثانية، طالب بتوسيع حدود لبنان وضمّ المدن الساحليّة والبقاع ووادي التيم إليه. فاستدعته الدولة العثمانية في أيار ١٨٦٨ ودفعته إلى تقديم استقالته.

* **فرنكو باشا (١٨٦٨ ـ ١٨٧٣)**: بدأ ولايته بتنازله عن إيراد البقاع وتحويل إدارته إلى ولاية سوريا. وتميّزت فترة حكمه بالهدوء والسلام فقام ببعض المشاريع، أهمها: إنشاء إحدى عشرة مدرسة حكومية مجانية، تنشيط الزراعة، وخصوصاً الأشجار المثمرة، إستحداث طرقات جديدة وبناء نحو عشرين جسراً، أقامة مصنع للسجاد في دير القمر،توفي في ١٨ شباط (فبراير) ١٨٧٣ بعد إصابته بمرض في القلب، ودفن في الحازمية.

* **رستم باشا (١٨٧٣ ـ ١٨٨٣)**: كان حازماً وعادلاً ومقدّساً القانون. بدأ عهده بالتشديد على منع ذوي النفوذ من التدخل في شؤون القضاء رعاية للعدالة، وفي ضرب يد الإجرام من دون هوادة. من أبرز إنجازاته:

ـ تأسيس ٧٢ مدرسة حكومية.

- إقامة عدداً من الجسور، أبرزها «جسر الباشا».
- إنشاء عدد من المخافر لتوطيد الأمن وبناء سجن جديد.

أقيل من منصبه على أثر خلافه مع جهات دينية لبنانية.

* **واصا باشا (١٨٨٣ ـ ١٨٩٢)**: واصل سياسة أسلافه لناحية الاهتمام بشق الطرقات وإقامة الجسور والمخافر، واهتمّ بالتنقيب عن الآثار. ألغى نظام المحاكم وربطه بالنظام المعمول به في اسطنبول. توفي في ٢٩ حزيران (يونيو) ١٨٩٢ بعد معاناة مع المرض.

* **نعوم باشا (١٨٩٢ ـ ١٩٠٢)**: استهلّ عمله بحملة تطهير واسعة في دوائر الحكومة شملت الموظفين الذين عرفوا بالفساد، وخصوصاً الكبار منهم. وفرض رقابة شديدة على الموظفين الآخرين، فاستقام سير العمل في حكومته ممّا أرضى اللبنانيين. تميّز عهده بالأمن والسلام، وعرف عنه تشبّثه بامتيازات لبنان وشخصيته الرسميّة. أنشأ سرايات متعدّدة في عدد من المدن، وشقّ عدداً من الطرقات وبنى بعض الجسور. وظلّ في الحكم حتى نهاية ولايته الثانية.

* **مظفر باشا (١٩٠٢ ـ ١٩٠٧)**: انتشرت في عهده الفوضى وكثر الإجرام وشاع الفساد وازدادت القلاقل. وكان يكثر من سياسة عزل الموظفين من دون مبرّرات، وأحياناً كانت الوظائف تمنح لمن ليسوا أهلاً لها. ونتج عن ذلك سقوط هيبة الحكم فقلّت ثقة الناس به. توفي في ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩٠٧ بعد معاناة مع المرض.

* **يوسف باشا (١٩٠٧ ـ ١٩١٢)**: هو نجل المتصرف الثاني فرنكو باشا. سار في سياسته سير المتكتّم ونهج نهجاً هادئاً وعامل الجميع بالمساواة فرضي عنه الشعب واحترمه. قام بحملة تطهير في الإدارة والمحاكم وعزل بعض الموظفين وفرض رسوماً إضافية على الدعاوى الحقوقية والعرائض. لكنه تمادى في القيام بأعمال تخالف نظام البروتوكول، ممّا ألّب اللبنانيين ضدّه. فعمد إلى انتهاج سياسة انتقاميّة تجاه معارضيه، لكن المعارضة صمدت في وجهه حتى نهاية ولايته في ١٢ تموز (يوليو) ١٩١٢.

* **أوهانس باشا (١٩١٣ ـ ١٩١٥)**: بعد فترة قصيرة على استلامه الحكم. نشبت الحرب العالمية الأولى، ودخل الجيش العثماني إلى لبنان بقيادة جمال باشا فأصبح الحكم بيده. وبعد نكبة الأرمن على أيدي الأتراك، أصبح أوهانس باشا، وهو أرمني، من المشكوك بإخلاصهم، فأجبر على الاستقالة في صيف العام ١٩١٥.

* **متصرّفون إستثنائيون**: هم ثلاثة، أوّلهم علي منيف بك مستشار وزارة الداخلية العثمانية. دامت فترة حكمه من ٢٥ أيلول (سبتمبر) ١٩١٥ إلى ١٥ أيار (مايو) ١٩١٦. وجاء بعده إسماعيل حقي بك [١٥ أيار (مايو) ١٩١٦ ـ ١٤ تموز (يوليو) ١٩١٨]. والمتصرف الأخير كان ممتاز بك [٢٥ آب (أغسطس) ـ ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩١٨]. ومع نهاية عهده، انسحب الجيش العثماني من لبنان الذي دخلته جيوش الحلفاء.

الحياة الاجتماعيّة والاقتصادية

لم يشهد عهد المتصرفيّة أيّة أحداث أمنية بارزة، ممّا أضفى على البلاد هدوءاً واستقراراً لم يشهد مثلهما لبنان إلاّ في فترات من عهد الأمير المعني فخر الدين الثاني. وعرفت البلاد أجواء من الحريّة التي تأمنت للجميع، فانتشر في تلك المرحلة من تاريخ لبنان المثل الشائع «نيال من له مرقد عنزة في جبل لبنان».

وشهد لبنان موجة هجرة إلى أفريقيا والقارة الأميركية (وخصوصاً الولايات المتحدة والبرازيل) كانت قد بدأت في أواسط القرن التاسع عشر مع المواطن أنطونيوس البشعلاني من صليما سنة ١٨٥٤، بعد الحديث عن الازدهار الاقتصادي وفرص العمل في هذه الدول. وبرع اللبنانيون في المهجر بالأعمال الاقتصادية والماليّة، وحتى الفكرية والأدبية والسياسيّة.

وعلى الصعيد الاقتصادي، تراجع مستوى الزراعة بسبب فصل سهل البقاع عن المتصرفية وبسبب ارتفاع الضرائب على المنتوجات المصدّرة إلى الخارج. وفيما اقتصرت الصناعة على بعض الحرف اليدويّة، كانت التجارة في حالة ركود بسبب وجود المرافىء الكبرى خارج حدود المتصرفية.